

أحمد عوف من مصر لمصر

د. أحمد عوف

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
(شراء) مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٦٣٦٥٦

الكتاب
للنشر والتوزيع

٦٠ شارع القصر العيني - أمام بغداد الجوف
(١١٤٥١) القاهرة

٣٥٥٤٥٢٩ - ٣٥٤٧٥٦٦ ت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رجاء ونداء:

**بعد قراءة هذا الكتاب . . أقول للمصريين جميعا :
من يكره مصر فليرمها بحجر أو يلقي بها في سقر . .
فكفاهما ما كفاهما .**

ملامح الكتاب

هذه صحائف مصر ... عارية بلا زيف . وهي ليست تاريخًا لها بقدر ما هي تقييم شامل للاحداث التي عاصرتها . والكتاب (بانوراما) تاريخية بعيدا عن اراجيف المؤرخين . ورحلة في أغوار العصور التي ألت بمصر منذ فجر التاريخ حتى القرن العشرين (الخامس عشر هجرى) . لنكون علي بيئة بخبايا وخفايا هذا التاريخ بلا تحيز أو تطرف أو مقالة بعيدا عن أى إيديولوجية أو عواطف قد تجعلنا نضل أو نتحيز . والحقائق أقصر طريق للوصول إلى الحقيقة والإقناع لسمع الباطل وتبيده .

فإذا كان لكل عهد كتابه ... فالتاريخ قضاته . وإذا كان لكل عصر حكامه فله المؤرخ أحكامه . وأصدق وصف للمصريين أنهم سيدخلون الجنة بلا حساب . لأن ما رآوه من عذاب الدنيا طوال تاريخهم سيغفونهم من حساب الآخرة . فمصر طوال تاريخها أشبه برجل يعيش في داره مع أهله آمنًا مطمئنًا فيدخل عليه لص مسلح ليقتل به وبأهله في العراء حفاة عراة إلى مصير مجهول تاركهم يندبون حظهم أمام باب بيتهم .

والمصريون يخالفون شعوب أهل الأرض في عاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم بحكامهم . وهذه العلاقة المتناقضة أوجبتها التراكمات التاريخية خلال العهود التي مرت بها بلادهم . حتي نجد الشخصية المصرية لها مزاج خاص بها . وهذا المزاج يتحكم فيه إتجاهان واضحان هما " الدين والمال " . وهذان الإتجاهان يعتبران مفتاح الشخصية المصرية وما عدا هذا لم يكن يهم المصريون من يحكمهم بقدر ما كان يهمهم من يقترب من عقائدهم أو عاداتهم أو تقاليدهم أو من كان يظلمهم في أموالهم أو خرائبهم أو أرضهم . لهذا نجدهم دائما في واد وحكامهم في واد آخر . ولهذا - أيضا - نجد أن هذا المزاج المصري هو مؤشر الإستقرار والرخاء في مصر . فإذا إختل إختلت معه أمور البلاد . وهذا ما سنطالعه في الكتاب . وقد يقال أن الرخاء مرتبط بفيضان النيل وهذا الرأي لا يقاس عليه . فأيام الدولة الطولونية قد قل ورغم هذا عم الرخاء ... وأيام الخديو إسماعيل قد فاض وأدخل الميكنة الزراعية ومع هذا خربت البلاد . وفي النصف الثاني من هذا القرن أغنانا السد العالي عن الفيضان ورغم هذا نجد الأزمات الاقتصادية تلاحقنا أكثر من عقدين .

والمصريون لا يهمهم من يحكمهم فلقد حكمهم أطفال وصبيان وعبيد ... لكن مع كل

هذا كان يهمهم من يظلمهم . فنجد كل انتفاضاتهم ليست لتغيير الحكام لكنها شكوى من إرتفاع الضرائب أو الأسعار أو لتوفير السلع أيام المجاعات أو للحفاظ علي العادات أو التقاليد ، كما كان أيام نابليون . فالمصريون إستقبلوا الحملة الفرنسية بالزغاريد والأحضان لأنها ستخلصهم من ظلم المالِك .. لكن عندما ضيق عليهم نابليون في الضرائب ودخلت خيوله الأزهر وفرض عليهم إجراء صحيا لعنوه وثاروا عليه وجعلوا من مصر جحيما له وأمسكوه . عكس الإسكندر الأكبر لما أتى مصر واحترم تقاليدها وعاداتها نصبه الكهنة إبن الاله آمون واستولى علي مصر بلا حرب . وهذه الحقيقة إنتبه لها نابليون وهو في منفاه بسانت هيلانة حيث قال في مذكراته : "لقد حصل الإسكندر علي مصر باحترامه لعادات وتقاليده المصريين بدلا من أن يغزوها بمائة ألف جندي مقنوني" . لهذا لما أتى كرومر إلي مصر أيام الاحتلال البريطاني ترك الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية للخبينو وخفض الضرائب علي الفلاحين فأصبح عهده ذهبيا للفلاح المصري لكن بعد حادثة (بنشواي) عام ١٩٠٦ لعنه المصريون وثاروا ضده وضد الاحتلال .

والأقباط لم يحكموا مصر طوال تاريخهم . وقد حكمهم البيزنطيون المسيحيون طوال تاريخهم قبل الفتح الإسلامي . وكانوا أيام البيزنطيين (الروم) يلاقون التعذيب والتشريد . حتى نجد أن شهداء الكنيسة القبطية هم شهداء هذه الفترة التي يطلق عليها الأقباط (عصر الاضطهاد) وبعد دخول الإسلام مصر أصبحت أغلبية قبطية لأول مرة بعدها أصبحت في القرن الثاني الهجري أغلبية مسلمة لأول مرة أيضا .

وعصور مصر ما قبل الإسلام هي :

١ - عصر ما قبل التاريخ وهو يرجع إلى ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد وهذا العصر هو عصر ما قبل الاسرات .

٢ - عصر الاسرات الأول ويضم (الأسرتين ١ ، ٢) (٣١٠٠ ق م - ٢٢٨٦ ق م) .

٣ - المملكة القديمة (الأسرة ٣ - ٦) (٢٦٨٦ ق م - ٢١٨١ ق م) .

٤ - الفترة المتوسطة الأولى (الأسرة ٧ - ١٠) (٢١٨١ ق م - ٢٠٤٠ ق م) .

٥ - عصر المملكة المتوسطة (الأسرة ١١ - ١٢) (٢١٣٣ ق م - ١٧٨٦ ق م) .

٦ - عصر الفترة المتوسطة الثانية (الأسرة ١٣ - ١٧) (١٧٨٦ ق م - ١٥٦٧ ق م) .

٧ - الدولة الحديثة (الأسرة ١٨ - ٢٠) (١٥٦٧ ق م - ١٠٨٥ ق م)

٨ - عصر الفترة المتأخرة (الأسرة ٢١ - ٣٠) (١٠٨٥ ق م - ٣٣٢ ق م) .

- ٩ - عصر الأفریق (٢٢٢ ق م - ٣٠ ق م) .
- ١٠ - عصر الرومان (٣٠ ق م - ٦٣٩ م) وفيه كانت مصر تابعة لروما ثم أصبحت عام ٣٩٥ م تابعة للقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) .
- والمطالع لتاريخ مصر منذ القرن السابع حتى القرن العشرين يجد مصر قد حكمها المسلمون حوالي ١٤ قرنا من بينهم ١١ قرنا حكمها فيها الأتراك وهذه الحقيقة سنطالعها ضمن صفحات هذا الكتاب .
- والعهد الإسلامي لمصر هي :
- ١ - عصر الولاة (عرب) من سنة ٦٤١ م حتى سنة ٨٦٨ م .
- ٢ - العهد الطولوني (وراثه) (أتراك) من سنة ٨٦٨ م حتى ٩٠٥ م .
- [استقل الطولونيون بمصر والشام وشمال الجزيرة أيام الخلافة العباسية] .
- ٣ - حكم (بغداد) مركزيا لمصر منذ سنة ٩٠٥ م حتى ٩٣٥ م .
- ٤ - الحكم الأخشيدي (أتراك) من سنة ٩٣٥ م حتى ٩٦٩ م .
- [استقل الأخشيديون بمصر وفلسطين وجنوب الشام أيام الخلافة العباسية] .
- ٥ - الحكم الفاطمي (خلفاء شيعة إسماعيلية) من ٩٦٩ م حتى ١١٧١ م .
- حيث انفصلت مصر سياسيا وإداريا عن الخلافة العباسية وحكمت من ساحل الاطلنطى غربا حتى شمال الشام . وكانت العاصمة القاهرة .
- ٦ - الحكم الأيوبي (أكراد) منذ سنة ١١٧١ م حتى ١٢٥٢ م .
- فيه عادت مصر إلى الخلافة العباسية وحكم الأيوبيون مصر وفلسطين والشام ما عدا بعض المدن التي كانت في أيدي الصليبيين . وكان للمماليك الأتراك نفوذهم في السلطنة الأيوبية ولاسيما في أواخر عهدها .
- ٧ - الحكم المملوكي (أتراك) منذ سنة ١٢٥٢ م حتى ١٥١٧ م .
- فيه حكم السلاطين المماليك مصر والشام حتى جبال طوروس والفرات والنوبة وليبيا . وطردوا الصليبيين نهائيا من الشام وفلسطين وحملوا مصر والشام من المغول التتار واستعادوا الخلافة العباسية بمصر بعد سقوط بغداد .
- ٨ - الحكم العثماني (أتراك) منذ سنة ١٥١٧ م حتى ١٨٠٥ م .
- حيث ظل يحكمها وال عثمانى حتى عام ١٨٠٥ م عندما استقل بها إداريا محمد علي . وقد

كان الفرنسيون قد احتلوا مصر ما بين عامي ١٧٩٨ م و ١٨٠٢ م .
وظهر أيام الحكم العثماني نفوذ المماليك (الباكوات) منذ سنة ١٧٠٤
٩ - حكم أسرة محمد علي منذ سنة ١٨٠٥ م وحتى سنة ١٩٥٢ م .
ظلت فيه مصر مستقلة إداريا عن الدولة العثمانية حتى عام ١٩١٤ .
دولة مستقلة ذاتيا تخضع للحماية البريطانية . وقد احتل الانجليز ،
حتى عام ١٩٥٦ م .
١٠ - جمهورية منذ سنة ١٩٥٣ م حتى الآن . وفي عام ١٩٥٨ إتحدت
١٩٦١ في الجمهورية العربية المتحدة . وأطلق علي مصر الأقليم الجنو
الشمالي .
ومصر أول مرة تستقل فيها منذ حكم الفراعنة كان في عهد الد
مستقلة إداريا عن الخلافة العباسية لأكثر من ستة قرون حتى دخول
١٥١٧ م . وأصبحت مصر ولاية عثمانية تتبع الاستانة .
ومصر لم يحكمها المصريون بعد الفراعنة حتى عام ١٩٥٣ م . عند
نجيب قائد ثورة (٢٣ يوليو) أول رئيس للجمهورية . وأول وزير مصري
رئيس وزراء قبطي هو بطرس باشا غالي وأول رئيس وزراء فلاح مصري
وزراء مصرية هي وزارة الشعب عام ١٩٢٤ م وكانت من الأتنية .
ومصر كانت ولاية عربية منذ القرن السابع ميلادي ثم أصبحت إمار
سلطنة ثم ولاية ثم خديوية ثم سلطنة ثم مملكة وأخيرا جمهورية .
وحكم مصر أربع نسوة من : حتشبسوت أيام قدماء المصريين و
البطانة ونوبيا أيام حكم مملكة تدمر الأرنية لمصر . وآخرهن شجرة الدر
وفي عهدهن إزدهرت مصر . ولعبن دورا تاريخيا في سياستها .
ومصر أول ولاية إسلامية ضمن إطار الخلافة الأموية تخلت عن لغا
الفرس والروم والهنود والآتراك والمغول مبقيين علي لغاتهم حتى اليوم رغم إه
ومصر بعد عصر الولاة حكمها ١٤ خليفة فاطمي و ٦٠ سلطانا و ٢
رؤساء جمهوريات . وأيامهم كانت مصر تابعة للمدينة والكوفة أيام علي بن
الكوفة فبغداد ثم سامراء فالقاهرة . ومنذ عام ١٥١٧ م . أصبحت قايفة

١٩١٤ م . وهذا ما سنطالعه في الكتاب بالتفصيل .

وفي عصرى المماليك كانت السمة السائدة في حكم سلاطينهم أن يستمر السلطان شهرا أو سنة أو سنتين إما يخلع أو يقتل بعدها . وأطولهم عمرا في الحكم هو الإشراف سيف الدين قايتباي (٢٧ عاما) والظاهر بيبرس (١٧ عاما) والإشراف قانصوه الغوري (١٦ عاما) . وأطول مدة حكمها حاكم لمصر الإسلامية هي مدة حكم محمد علي حيث حكمها ٤٣ عاما ، وأقصر مدة حكمها رئيس للجمهورية هي مدة اللواء محمد نجيب حيث حكم عاما وعدة شهور . والإسلام لم يظهر في مصر ورغم هذا دافعت منه وأحييت السنة وحافظت على تراث الاسلام من الضياع أو الإندثار بعد حريق بغداد . وجعلت من الأزهر أكبر جامعة إسلامية في العالم .

والشيعة الفاطمية حكموا مصر أكثر من قرنين لكنهم لم يستطيعوا تغيير مذهب المصريين السننى . وبعد زوال حكمهم تحولت كل المساجد في ٢٤ ساعة إلى سنية . حتى الأزهر الذى بنوه ليروج الفكر الشيعى أصبح أكبر منارة للمذهب السننى .

والمصريون لم يحاربوا حتى أيام الفراعنة لكنهم لأول مرة يتطوعون في جيش عمرو بن العاص وينتصرون في برقة ويصنعون أول أسطول للمسلمين . ويحاربون عليه ، وينتصرون علي البيزنطيين في موقعة (ذات الصواري) التاريخية ويحققون أول إنتصار بحرى في الإسلام .

وأخيرا ... كلما أرى الملايين كل صباح تحمل كتبها متوجهة إلى المدارس والجامعات أترحم علي ابن مصر علي باشا مبارك الفلاح المصرى الذى حقق ثورة في التعليم إبان القرن الـ ١٩ . رغم ملاقاه من إضطهاد ورفق أيام سعيد باشا وإسماعيل وتوفيق إلا أنه تحمل ولم يكل من أجل عيون مصر ، فحمل على أكتافه في عصر إسماعيل تحديث مصر لتكون قطعة من أوروبا . فالتعليم أيام محمد علي كان مؤسسة عسكرية لتجنيد المصريين في جيشه . وكان يتسم بالسخره حتى كان الآباء يعتبرون إلحاق أبنائهم بمدارسه (المكاتب) مصيبة . لكن بعدما جعله علي مبارك تعليما مدنيا أصبح الآباء يعتبرون رفق أبنائهم من المدارس أو الجامعات كارثة . فسياسة محمد علي في التعليم نفرت المصريين منه وكرهتهم في الجهادية .

والآن مهما كلفتنا مجانية التعليم فهي تقينا من غائلة الجهل والتخلف . فهذه المؤسسات التعليمية المنبثة في كل مدينة أو قرية مشاعل تنويرية وحصون حضارة تشمخ بعظمة مصر . وتثير للأجيال اللاحقة والمتلاحقة طريق الحضارة المنشودة .

أما هذا الكتاب فهو تذكرة لمن ينسى أو يتناسى أو يجهل تاريخ مصر من المسلمين
والأقباط حتى نخرس الفتنة .
فمصر كفاها ما جئنا عليها طوال تاريخها وهي لم تكن علي أحد . فصحائفها بيض
الوجه . وبين سطورها سود العهد . لكنها مع كل هذا تسير من عصر إلي عصر ولا تعود .
والله ولي التوفيق .

د. أحمد محمد عوف

المصور الخواله

حقيقة تقال أن مصر في مرحلة ما قبل التاريخ يندر وجود تسجيلات منونة لتصوير أحوالها منذ فجر التاريخ الإنسانى اللهم بعض الآثار المدونة . التى وجدت في منطقة البدارى بأسسيوط والفيوم والمعادى وحلوان وهليوبوليس (عين شمس) . وهذا شاهد علي فجر الحضارة المصرية منذ ٦٠٠٠ عام قبل الميلاد .

ويحتل التاريخ المصرى القديم منذ عصر ما قبل الأسرات إهتمام المؤرخين . والمطالع لهذا التاريخ يجد أن ثمة اعجازا حضاريا قام فوق أرض مصر منذ أكثر من خمسة آلاف عام . ومهما قلنا أو صورنا أو كتبنا عن هذا التاريخ الموهل في القدم لا يمكن لنا أن نوفيه حقه من براعة قدماء المصريين في شتى مجالات المعرفة الانسانية . فمصر كما يقول (برى) هي مهبط الوحى الحضارى . لأن الصانع المصرى كان صبورا وثبورا يعتنى بما في يديه مطوعا المادة ومسيطر عليها لدرجة لا يبرزه فيها الآخرون . ومقولة المؤرخ (برى) بأن قدماء المصريين كانوا سادة في كل شىء هي الحقيقة المؤكدة .

ومن إستقرارنا لتاريخ مصر القديمة نجد ما مرت بفترات ركود حضارى إلا أنها كانت تقوم من كبواتها أكثر قوة مجددة حضارتها عبر العصور والقرون الخالية .

وتاريخ مصر الفرعونى لم يكن مدونا قبل العصر الاغريقى . وأول محاولة كانت عندما كلف بطليموس المؤرخ الاغريقى (مانيتو) في القرن الثالث قبل الميلاد بالتنقيب في البرديات القديمة الموجودة في معبد (أمون) . فتاريخ قدماء المصريين في عصر الأسرات لم يكن مدونا كتاريخ في مخططاتهم . فالنقوش الجدارية الجرانيتية والجيرية لم تسجل سوى الاحداث والمشاهد الهامة التى تناولت الحياة الإجتماعية للمصريين ومزجوها بالأساطير الفرعونية . لهذا كان تكوين هذا التاريخ لأول مرة إبان العصر البطليموسى (الاغريقى) . حتى كتابات المؤرخ الاغريقى (هيرودوت) الذى زار مصر عام ٤٥٠ ق م كانت في جملتها وصفا لمصر كما شاهدها . وتكويننا لما سمعنا من الكهان عندما جاس في الأقاليم وزار المعابد .

وكلمة (فرعون) هي في الأصل الكلمة الفرعونية (بيرع) ومعناها البيت الكبير أو البيت

الملكى . وقديما لم تكن هذه الكلمة لقب الملك لأن ألقابه كانت خمسة ألقاب لم يكن من بينها لقب (فرعون) . وأول ظهور لكلمة (فرعون) كلقب كان في التوراة عندما جاء فيه ذكر قصة الخروج لليهود من مصر . فأطلق علي الملك الفرعونى (فرعون) موسى . ولهذا ما زال إسم ملك الخروج لغزا تاريخيا حتى الآن إلا أنه كان من ملوك الاسرتين ال ١٨ و ١٩ . وألقاب الملك كانت خمسة وهى (حورس والسيدتان وحورس الذهب وملك مصر العليا والسفلى وصاحب الأرض المزبوجة وابن رع وصاحب التيجان) .

والمصريون الأوائل في عصر ما قبل التاريخ كانوا يصطادون الأسماك والحيوانات البرية والطيور . وكانوا يمارسون الفلاحة المختلطة بزراعة القمح مع الشعير والشوفان ويقومون بعملية الحصاد . كما كانوا يربون الثيران والأغنام والماعز والخنازير ويصطادون الغزلان والأبقار المتوحشة والظباء وأفراس النهر من النيل مستخدمين الأقواس والسهام . كما كانوا يصطادون الأسماك من بحيرات القيوم بالسنانير .

وقدماء المصريين كانت لهم صناعاتهم البدائية فصنعوا الأوعية من الطين والخوص وكانوا يغزلون ملابسهم من الكتان . وفي البرد كانوا يلبسون الكتان بعد تغطيته بجلود الغزلان والماعز يجعل شعورها بالداخل للتدفئة . كما كان من عاداتهم دفن الموتى ومعهم مقتنياتهم حتى أدوات الزينة التى كانت من الخرز . وكانوا يدفنون مع الميت (الدمى) النسائية التى كانوا يصنعونها من الطين والعاج . لهذا وجدت في مقابرهم أمشاط وخواتم وأساور وخلاخيل من العاج .

وكانت النسوة تتزين بالحلقات في أنوفهن كما عرفن الكحل والألوان والمساحيق للزينة وكن يضعنها في علب صغيرة من الأربواز بعد سحق الأحجار الملونة . وكن يعجن الكحل ليستعملنه كظلال لجفونهن وهذا يتضح في الصور الجدارية وتمثال نفرتيتى .

وكان قدماء المصريين يعصرون بذر الخروع للحصول على زيتة للتدليك وتنعيم الجلد . كما استخدموا الأصداغ البحرية التى كانوا يجلبونها من البحر الأحمر في الزينة . وكانوا يجلبون الكحل من النوبة وسيناء مقابل التبادل التجارى بينهم الذى كان يمارس قديما في أخشىق الحدود . والمصريون الأوائل قد نزحوا إلي مصر من غرب آسيا وأفريقيا حيث سكن النازحون وادى النيل في الوجه القبلى . وبعضهم سكن بلدة بهوت بتل البلامون شمال دمياط . وكانت (نقادة) عاصمة الوجه القبلى . وفي الربيع الأخير من الخمسة آلاف سنة (ق م) استولى حاكم مصر السفلى على مصر العليا (الصعيد) ونصب نفسه حاكما علي مصر الموحدة . بعده مصر العليا

إنفصلت ليحكمها (نخن) ومصر السفلى حكمها (بوتو) . لكن في نهاية الأربع آلاف سنة (ق م) استطاع الملك مينا ملك مصر العليا الاستيلاء على الدلتا موحدا مصر . وهذه الوحدة ظلت طوال الأسرة الأولى التي لا نعرف عاصمتها . حتى مجيء الأسرة الثانية مدينة منف أصبحت العاصمة وقد بناها الملك مينا في سقارة وكان يطلق عليها (ممفيس) .

وقدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الملك هو الاله وتجسيد لحورس وأمون . وكان حورس الاله الرئيسي لمصر السفلى والاله (ست) إله مصر العليا . وأثناء الأسرة الثانية حاول الملك (برييس) التخلي عن لقب حورس (إله مصر السفلى) وتلقب بلقب الاله (ست) إله مصر العليا . وهذا أشعل ثورة في الدلتا ضده . ولم يستطع السيطرة عليها . إلا أن الملك (خرخيمو) آخر ملوك الأسرة الثانية وحد مصر ثانية ولقب نفسه بهورس ست .

وفي عهد الملك زوسر أثناء حكم الأسرة الثالثة شهدت مصر مجاعة رهيبة ظلت سبع سنوات عجاف بسبب فيضان النيل . وهذا ما جعل (زوسر) يرسل وزيره أمنوحبب إلى أقصى الجنوب في أسوان ليقدم القرابين للاله (خنوم) إله جزيرة الفنتين . وكان قدماء المصريين يعتقدون أن هذه الجزيرة بداية النيل ومصدر مياهه . لهذا نجد (زوسر) يحاول إكتشاف خزانة . فأرسل بعثة استكشافية إلى النوبة وصلت لمسافة ٧٠ ميلا نون جنوى .

وملوك الدولة القديمة كانوا يلبسون تاجين أحدهما أبيض والثاني أحمر وكان للملك وزيره الذي كان يشرف على البلاد من النواحي العسكرية والاقتصادية ويتبعه خزائن الغلال والذهب . ويعاونه الكتبة في ضبط جبايتها ودفاتها . وملوك هذه الدولة كانوا يشنون حملاتهم على سيناء والنوبة لجلب الابنوس والعاج والذهب والنحاس والاصباغ .. كما كانوا يجلبون منهما العبيد ليعملوا في الدولة .. وكان يطلق عليهم (الموتى الأحياء) . وعصر هذه الدولة يعتبر عصر البنايات الضخمة كالأهرامات التي بناها خوفو وخفرع ومنقرع . علاوة على حوالى سبعين هرمًا بنتهم . وكان رجال البلاط يقيمون لأنفسهم المقابر الحجرية الضخمة . وكانت فكرة هذه الأهرامات ترتبط أساسا بالعقيدة الدينية وقتها . التي كانت تتطلع إلى ما وراء الحياة . لهذا كان من عادة قدماء المصريين تحنيط الجثث ووضع الطعام والشراب معها . وفي أواخر عهد هذه الدولة إضمحل نفوذها وانفصلت أقاليمها عن الحكومة المركزية .

ومع بداية ظهور الأسرات أصبحت (منف) العاصمة الموحدة لمصر ولا سيما بعدما وحد ملوك الأسرة الأولى الديانتين المصريتين واتخذ الملك (أوديمو) لقباله واتخذ القصب رمزا لمصر

العليا والنحلة رمزا لمصر السفلى .

وأرض مصر كانت تعتبر ملكا للملك وحده بما عليها من مصريين ومواشى وبما فيها من مصادر طبيعية وكان مستولا عن النواحي الدينية والاقتصادية للبلاد . وكان المصريون يؤلهون ويعتقدون في قدرته على منح الحياة أو الموت . كما كان يقود المعارك الحربية بنفسه . وكان الكهنة يتبعونه شخصيا وينوبون عنه في إقامة الشعائر والطقوس الدينية في المعابد . ورغم تأليه الملوك ورغم هذا التقديس إلا أن الفراعنة الضعاف واجهوا ثورات الشعب المصرى عليهم .

وكما يقول الفيلسوف الالماني (هيغل) (في كتابه فلسفة التاريخ) مصر بلد العجائب حتم اليوم ، فلقد استطاع المصريون حفر الأرض وشق القنوات وفلاحتها ، لدرجة كان المصريون القدماء يواجهون مشكلات فرقة الحاصيل من القمح الشعير وكانوا يقاتلون بهذا الغلال ثم تجارتهم مع جيرانهم .

النيل وحياة المصريين .

عرف المصري القديم العلوم الرياضية من خلال حساباته للفيضان وتقسيم الأراضى إلى وحدات طولية ومساحية لتوزيعها على الفلاحين وتقدير الضرائب الخراجية عليهم . كما عرف الموازين والمكاييل ، والحساب كان بعد الأصابع ، وجعل للأعداد رموزا ترمز للأرقام إلا أنهم لم يكتشفوا الصفر . وبناء الأهرامات يدل على معرفة قدماء المصريين بالأطوال والزوايا الهندسية بدقة حيث كانوا يقيسون الأرض بالذراع . كما استعملوا الروافع والاثقال في بناء المعابد والأهرامات والمسلات . فنقلوا صخور الجرانيت من أسوان إلى طيبة . وحدد المصريون القدماء موعد الفيضان وموعد الحصاد حسب التقويم المصرى القديم . ولهذا نجد الحضارة المصرية القديمة تقوم على النيل . فعصر طوال تاريخها كانت تعتمد على النيل كمصدر رئيسى لخيراتها وهذا ما جعل (هيرودوت) يقول : أن كهان مصر كانوا يطلقون على بلدهم أنها هبة النيل . وهذا الحقيقة تاريخية لأن إنتظام الفيضان سنويا جعل المصريين يشكلون ديانتهم فاطلقوا عليه الاله أوزوريس ورووا عنه وحوله الأساطيل الفرعونية . والفيضان كان يصل للدلتا في ١٥ يونيو من كل عام قبل بناء السد العالى ويظل يفيض حتى نهاية شهر سبتمبر تاركا الأرض مشبعة بالماء بعدم تغطى بطبقة من الطمي الغنى الذى يعيد للأرض حيويتها وخصوبتها . وأتقن المصريون طرق تخزين مياه النيل خلف السدود . وشقوا الترع والقنوات . وفى عهد الملكة الوسطى أقاموا سد على بحر موسى بالفيوم لتخزين المياه في أيام التحريق .

والنيل قد شق مصر إلى شطرين هما مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) .
ولكل شطر تاريخه وطبيعته المميزة من الناحية الجغرافية والطوبغرافية . فكان الصعيد منعزلا
عن بقية العالم القديم لذلك كانت له حضارته الخاصة . عكس الدلتا فلقد كانت مفتوحة على العالم
الخارجى على البحر الأبيض وآسيا . وكان لمصر عاصمتين أحدهما في الصعيد والأخرى في
الدلتا . ولهذا كان على الملك إقامة الطقوس مرتين . أحدهما في كل عاصمة .

كما يقول (جون بينز) أن فعلا مصر هبة النيل لأنها بدونها لم تصبح دولة عظمى . وأغنى
دولة في العالم القديم . منذ عام ٣٠٠٠ ق م وحتى ٣٠ ق م عندما غزاها الرومان . وكانت مصر
تعتمد في ثروتها على النيل الذي كان وسيلة النقل والمواصلات الرئيسية بين الأقاليم المصرية والمدن .
وهذا وحد البلاد . لأن النيل كان السبب في تماسك مصر حفاظا على وحدتها لعدة قرون .

وقدما المصريين أطلقوا على النيل النهر . وأصل كلمة النيل ليست معروفة لكن من المرجح
أن يكون أصل الكلمة (النيل) وهى صبغة سوداء . وكان الفيضان يطلق عليه (حابى) أي الذى
يفيض بالخير . لهذا كان الملوك وحكام الأقاليم يلقبون أنفسهم بحابى تيمنا بالفيضان . وحابى لم
يكن من آلهة قدماء المصريين . لهذا كانوا يرسمونه كشخص بدين يأتى بالمحصول الوفير للآلهة .
ولهذا - أيضا - لم يقيموا لحابى معبدا لكنهم كانوا يقدمون للفيضان القرابين باسمه عند جبل
السلاسل بالجنوب . ويرفعون إليه أناشيدهم ويقيمون له الطقوس الخاصة إبان الفيضان . ويلقون
إليه بأجمل عروس لديهم في عيد وفاء النيل ليفيض عليهم . وتعم البركات على وادى مصر .
وكانوا يؤلهون (خنوم) كاله للشلال وقد نحتوا له تمثالا عند جزيرة فيلة قرب أسوان . وكان
يعتبر (رب الخزان) الذى يفيض منه الفيضان فيما وراء الجزيرة .

واسطورة أوزيريس تتصل بالنيل .. فازوريس في الاسطورة الفرعونية كان ملك مصر الذى
قتله أخوه (سيث) (إله الكوارث) على شاطئ النهر وقطعه إريا إريا . لكن أخته إيزيس جمعت
أشلاءه وتزوجته وأنجبت منه (حورس) بعد موت أوزيريس نفسه الذى أصبح بموته ملك العالم
السفلى . ولهذا بعد كل فيضان يحتفل قدماء المصريين بأوزيريس بفرس تماثيل له في حقول
الشعير . لأنهم يعتقدون أنه لما قتل دفنت أجزاء من جسمه في عدة مدن مصرية لأخصاب تربتها .
و كان الكهنة يحتفلون سنويا بعيد (سيد) في منف . وأوزيريس هو الاله الاساسى لمصر وكان
يطلق عليه الاله الشهيد . والملك هو النسخة الأرضية منه . وكان يرمز إلى الخلود البشرى ويعتبر
إله الخصب والنماء والبنور . لهذا كان المصريون يرسمونه كخنفسة لأنها تضع بيضا كثيرا

وكانوا يرمزون إليه بالشمس التي تطل كل يوم لتشرق ثانية. كما كانوا يرمزون إليه - أيضا - بعجل أبيس المقدس أما إيزيس فكان يطلق عليها (هاتور) الآلهة البقرة و هلال القمر ونجمة البحر . أما حورس فكان الآلهة الصقر والفجر الذي ينمو ليصبح أوزيريس ثانية . وكانت تماثيل إيزيس تصورهما وهي تحمل حورس بين ذراعيها وهي واقفة على هلال القمر . والآلهة الثلاثة (أوزيريس وإيزيس وحورس) كانوا يشكلون عقيدة التثليث لدى قدماء المصريين . وكان لهم - أيضا - آلهة أخرى كاله الشر وإله الخير .

وكان العرفيون أيام الفراعنة يورثون أبناهم صناعاتهم الفلاحون يورثون الأبناء في فلاحه الأرض . وكانوا متعلقين بأرضهم فاستقروا بالوادي ولم يهجر حورس كانوا أثنا مشهور الفيلسوف يسخرون في الخدمة العامة في الأشغال كإقامة المعابد والأهرامات حورس حفر وتطهير الترع . والفالابية العظمى من الشعب المصري كانوا فلاحين وكانوا يوسعون أراضيهم ويردم البركة والمستنقعات في الدلتا بالذات . وكانوا يستعملون الخشب في رفع المياه إلى الأراضي العالية التي كانت تزدح . ومصر اشتهرت بالزراعة والحيوان وتربية المواشي وكانت تصدرها إلى العالم القديم وكانت صحرانها تمدها بالملح والنطرون والأحجار النفيسة والذهب الذي كان ترواها في أرض مصر .

ومصر كانت مفتوحة على العالم وهذا يتضح من (خطابات العمارة) التي اكتشفت في تل العمارة وهي عبارة عن رسائل دبلوماسية متبادلة بين حكام مصر وحكام الأناضول وأشور وبابل وقبرص وفلسطين وسوريا . وهذه الخطابات التاريخية تعتبر أرشيفا هاما ألقى الضوء على التاريخ المصري القديم والعلاقات التجارية وعادات وتقاليده المصريين الفراعنة . وهذه الخطابات كانت ألواحاً من الطين عددها ١٥٠ لوحاً مكتوبة بالكاينانية (البابلية) التي كانت لغة الدبلوماسية الدولية وقتها .

وكانت الرسائل تعنون باسم ملك مصر أو بكلمة (ريس) إذا كانت مرسله من حكام الأقاليم في الشام أحد أقاليم مصر وقتها . وهذه الرسائل كانت موجودة في اطلال دار المحفوظات الملكية في مدينة إخناتون (تل العمارة) أبان حكم إخناتون ويعدده هدمت المدينة إنتقاماً منه ومن دعوته وقام بهذا التخريب كهنة معبد آمون بطيبة (الأقصر) . فلما انتقل الكتبة منها لطيبة تخلصوا من هذه الرسائل بدفنوها في الأرض وظلت مطمورة حتى إكتشفتها امرأة كانت تحفر الأرض للحصول على السياخ من بقايا التل لتكتشف هذه الوثائق التاريخية .

فلسفة الموت عندها قدماء المصريين:

كان قدماء المصريين لهم فلسفتهم وأفكارهم عن الحياة والموت وما بعد الحياة . حيث كانوا يؤمنون بالخلود كعقيدة أساسية لديهم . لهذا كان الموت له تأثيره على نمط الحياة عندهم بل سمة الحضارة الفرعونية . وكانت فكرتهم عن الخلود أن الصحراء لجفافها لها القدرة على حفظ الموميات من التحلل مما يجعل حياة الموتى مستمرة إلى الأبد . لهذا إعتنوا بحفظ الموتى حفاظا على حياتهم الأخروية . وكانت عقيدتهم أن الملك بموته يتحول إلى الإله أوزيريس لهذا كانوا يحنطونه ويقيمون له الشعائر الجنائزية الخاصة ليبعث ثانية باسم الإله أوزيريس بعدما يتجدد مع الإله رع (إله الشمس) في سماء مصر . لهذا نجد الحضارة الفرعونية قد قامت على مفهوم ديني وطقوس جنائزية . حيث أقيمت مقابر الملوك أية في الفن المعماري الذي تفوقوا فيه . وخير شاهد على هذا الأهرامات التي بنيت في عهد الأسرة الرابعة (٢٥٠٠ ق م) . وهي في الأصل مقابر ملكية . والهرم الأكبر يعتبر أجمل وأكبر مقبرة في العالم حتى الآن . فلقد بناء خوفو في عشرين عاما . وكان المصريون يضعون مع الميت تماثيل من الحجر والخشب كدمى أشخاص . يعتبرونهم خدم المقبرة يخدمون الملك عند البعث . وكانوا يضعون معه مجوهراته وذهب ليتزين بهما في المقبرة .

والكاتب اليوناني (نيكوس كانانتراكيس) في كتابه (رحلة إلى مصر) يصف لنا فكرة الموت لدى قدماء المصريين كما جاء في كتاب (الموتى) .. من أن المصري باستثناء لحظات نادرة في تاريخه لم يجعل الحرية غاية له أبدا . ففي حياته السياسية كان عليه أن يطيع القادة لأن غايته الوحيدة كانت هزيمة الموت وقهره وكانت هذه هي الغاية العظمى . لهذا كانت قصوره وبيوته من الطين لأنها خيام لمرحلة انتقالية هي مرحلة الحياة الدنيا . أما قبوره فكانت من الحجارة الصلبة لأنها مساكن أبدية . وكان العمال يقومون بتفريغ الجثث من أحشائها ويملاؤها بالطيب والأعشاب العطرية والقار ويعلقون الطلاسم فوقها ويضعون كتاب الموتى بجوار الميت ليتعرف على الاجابة على أي الطرق يختار . وأي التعاويذ يتلو . والميت يصرخ في قبره الصرخة الأبدية قائلا : لم أقترب خطيئة ولم أقتل أو أسرق أو أكذب ولم أطأ الحقول المحروثة ولم أقتر على أحد ولم أكن عاقلا لوالدي أو للملك . ولم أغش أو أنقص في الميزان . ولم أخد الحليب من أفواه الأطفال ولم أحرف الماء عن مجراه . إننى طاهر . طاهر . وعفيف . هذه كانت مثاليات وأخلاقيات المصريين كما طالعناها في هذه الصرخة الأبدية في قبور الموتى عند الحساب في الحياة الأخرى . قبل أن

يدخل الميت في كنف الحياة الأبدية حيث تحاط الروح بالطعام والأثاث والحيوانات . وكان أهل الميت يأتون بالطعام ليقدموه بالمقبرة أو يحرقوه أمامها لتتغذى الروح على رائحته . لكن بعدها إكتفوا برسم صور الطعام والأثاث والحيوانات على جدران المقبرة إعتقادا بأن أصوات الكهنة تحولها كل يوم إلى طعام يقدم لروح الميت فيتناوله . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن الروح مع شروق الشمس تغادر المقبرة لتتجول بين الحقول على ضفاف النيل وترى أطفالها حتى غروب الشمس فتعود إلى القبر مع حلول الظلام فتتبره شمعة ضخمة إلى أن تشرق الشمس في اليوم التالي . وهذه النظرة الآخروية والأبدية كما جاء في كتاب الموتى أول كتاب مقدس في التاريخ الانساني ... جعلت المصريين يتطلعون إلى الموت للخلاص من قسوة حكامهم وتعسف كهنتهم . وهذه النظرة الدينية كانت تؤثر على النواحي الحياتية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية لدى قدماء المصريين . فكانت تمنحهم الصبر والقوة على مواصلة رحلة الشقاء والبؤس الدنيوية وتريحهم من هم الدنيا أملين في الأبدية التي لا يصلون إليها إلا بالموت . وهذه النظرة التشاؤمية أصبحت تلازم المصريين طوال عصورهم . فتراهم حتى اليوم يقيمون ذكرى الاربعة للميت ويزودون قبره كل خميس ومعهم (القرص) الطعام ويقيمون في المدافن إقامة كاملة بجوار الميت ليؤنسوا وحدته ويلقنوه الشهادتين بعد دفنه ويلقوا عليه الاجابات على أسئلة ملك القبر . وهذه كلها عادات فرعونية متوارثة عن قدماء المصريين .

وقدماء المصريين كانوا يعتبرون الفترة ما بين وفاة الملك وتنصيب خليفته هي فترة حرجة لأن قوى الشر قد إنتهزت على الحكم السوى . لهذا كان الملك الجديد ينصب في الفجر التالي على وفاة الملك وتتم المراسيم بسرعة حتى لا تعم الفوضى البلاد وتتشبب الأزمات . وكانت وراثة العرش الفرعوني لابن الملك من زوجته الأصلية الفرعونية وليس من حريمه من الأجنبيةات . لأن الملوك تفشى بينهم زواجهم المتعدد من الأسىويات . وكانت الابنة الكبرى من الملكة الأم تعتبر وريثة ملكية للعرش . لهذا كان الملك يتزوج من أخته للابقاء على الروح الملكية في البيت المالك ليتوارثها أبناءهم أبناءهما . حتى لا تتبدد هذه الروح و كان في حالة وفاة ولي العهد تتزوج الابنة الملكية من ولي العهد الآخر حتى ولو كانت أمه أجنبية . وهذا ما حدث مع تحتس الثالث والرابع وتوت عنخ آمون وحور محب التي كانت أمهاتهم أسىويات (آشوريات) . وهذا الزواج كان يؤهلهم لتولى ملك مصر . لكن هذه القاعدة تضاعفت بعد عهد حور محب الذي خلف توت عنخ آمون . وهذا الزواج قد يتم في حياة الملك الأب نفسه . ولم يشذ عن نظام وراثة العرش في هذه الأسرة

سوى إخناتون الذى تزوج نفرتيتى ولم تكن أميرة لأن أباهما (أى) كان من كبار رجال القصر الفرعونى . وأما (تاي) من الشعب .

العلوم والآداب والفنون الفرعونية:

كان المصريون لهم آدابهم وحكمهم التى اشتهروا بها . وأشهرها كتاب الموتى وكتاب نصائح للملك وأشعار إخناتون التى تعتبر من أشعار العشاق الالهى الرفيع المستوى حيث كان يناجى فيها آتون الاله الأكبر خالق الشمس والحياة . وكان لقديما المصريين قصصهم وأشهرها قصة الأخين وقصة البحار بانى السفن . كما مارسوا أدب الرحلات وأشهره قصة سنوحى (فى الأسرة ال ١٢) ورحلة إينامون (فى الأسرة ال ٢٠) وهى عبارة عن مقامرات فى أرض الكنعانيين .

ويمتاز الأدب المصرى بانه من النوع الفنائى الاحتفالى أو الدينى أو التعليمى أو القصصى . والأمثال الشعبية الفرعونية كانت من وهى الفراعنة كما يقول سليم حسن (الأدب المصرى القديم) فلقد بذل المصرى القديم عدة قرون يؤلف ويحسن كتاباته بمهارة واتساع أفق إجتماعى . وكانت حكم (فتاح حب) نواة لحكم سليمان المشهورة فى الأدب العبرى القديم . والمصريون إشتهروا بحكمهم وأمثالهم الشعبية كما تراها فى تعاليم (إمنموبى) . وكان أسلوب الكتاب المصريين يتسم بالجمال اللفظى والأقوال المنتقاة والمختارة بدقة تعبيرية . والمطالع لأقوال (الفلاح الفصيح) فى رسالته التى رفعها للملك يشرح فيها الغبن الذى وقع عليه من أحد عماله مما جعل الملك يرفع عنه الظلم ويجزل له العطاء . وهذه الرسالة تعتبر نبأاً لكل حاكم لو اتبع الوصايا التى جاءت بها . ولهذا اشتهرت هذه المقالة بأسلوبها البليغ وأفكارها الثيرة .

ومع ظهور الدولة الوسطى انحط الأدب المصرى وأخذ أسلوب الكتابة يميل إلى التصنع والتكلف والزخرفة اللفظية . وهذا يتضح لنا فى قصة سنوهيت وورقة إنستاس كما يقول المؤرخ سليم حسن فى (الأدب المصرى القديم) . وفى أيام إمنحوتب الرابع (الأسرة ال ١٨) إبان الثورة الكبرى قامت ثورة دينية ضده عرفت بثورة كهنة آمون على الملك إخناتون (إمنحوتب الرابع) وكان الشعراء الذين يشايعونه يكتبون أشعارهم للشعب . كانا جل باللغة العامية مما أشاعها وساعد على إنتشارها لأنها كانت تنشد الإصلاح الدينى الذى دعا إليه الملك إخناتون . لكن بعد وفاته عاد الأدب إلى أسلوب العهد القديم متبعاً إتقان العبارات وإختيار الألفاظ والامتناء بالأسلوب الرفيع . وكان نتيجة الفتوحات الفرعونية لعدة بلدان فى شرق البحر الأبيض وغرب

آسيا والنوبة . أن ظهر في الأدب الفرعوني بعض الكلمات الأجنبية التي وفدت إلى اللغة الفرعونية نتيجة هذا الامتزاج مع هذه الشعوب التي كانت خاضعة للحكم المصري . ولا سيما إبان الأسرة ال ١٨ . وبعض هذه الكلمات أتت نتيجة للغزو الأجنبي لمصر من البابليين والآشوريين والليبيين . ولما جاء الاغريق لمصر عام ٣٣٢ ق م أصبحت اللغة الاغريقية هي اللغة الرسمية للدولة المصرية البطليموسية . وهذا كان كافيا لتدهور الأدب المصري الفرعوني والقضاء عليه .

والطب الفرعوني كان مشهورا . وهذا يتضح من برديات الدولة القديمة التي بينت أن قدماء المصريين كانوا على علم بالتشريح والأمراض . ولهذا وصفوا لها العلاجات . وعرفوا الختان منذ زمن قديم . وهذا واضح في المومياء ومن الرسومات الجدارية والنقوش التي خلفوها . وأخذ موسى عن قدماء المصريين عادة الختان . ولأهمية الطب نجدهم يطلقون على أمنتب إله الشفاء . ولقد أخذ الرومان الطب عن قدماء المصريين . وكان كتاب (توت) الحكيم الفرعوني هو الكتاب الطبي الذي ظل لعدة قرون يتبع في العلاج وكان الأطباء يعاقبون لو خالفوا تعليماته أو لم يتبعوا ما جاء به . وعرف قدماء المصريين مرض شلل الأطفال (عام ١٥٠٠ ق م) وشخصوه بدقة . وشهرة الطب المصري نجدها في قصة ملك بنط الذي أرسل زوجته مع السفينة الفرعونية وكانت مصابة بداء الفيل فأرسلها لطبية لتعالج فيها لأن أطباء مصر كانوا مشهورين . وهذا سجل على معبد حتشبسوت حيث صورت هذه الرحلة . واشتهرت مصر بطب العيون . لهذا الملك قمبيز أرسل في طلب طبيب عيون من الملك أموزيس ملك مصر لعلاج . إلا أن الطبيب تضايق من سفره إلى خارج بلده فاوغر صدر قمبيز ضد ملك مصر وأوعز إليه أن يتزوج إبنته لينتقم منه . فأرسل ملك مصر فتاة بديلة من فتيات القصر وهذه الخدعة الملكية أغضبت قمبيز ملك الفرس فأرسل جيشه . وغزا مصر وضمها إلى الامبراطورية الفارسية من أجل عيون قمبيز عام (٥٢٥ ق م) .

وقبل عصر الأسرات إخترع المصريون الكتابة وكانت عبارة عن رسوم تصويرية أطلق عليها الهيروغليفية (أى الاشارات المقدسة) . لأن هذه الكتابات كانت تستخدم في الأغراض الدينية أو للنقش على جدران المعابد إلا أنها أصبحت فيما بعد تستعمل في الحياة العادية . وظلت اللغة الهيروغليفية متداولة في مصر حتى عهد الامبراطور الروماني (تيودوس) الذي - كما قال (جان فيركوشيه) عالم المصريات الفرنسي - أغلق الهياكل والمعابد الوثنية في إمبراطوريته بعدما دان بالمسيحية وجعلها دين الدولة الرومانية القديمة . وأغلقت المعابد الفرعونية نتيجة لهذا المظهر الامبراطوري . واختفت طبقة الكهنة المصريين . ولم يبق في مصر من يتعلم اللغة

الهيروغليفية التي اندثرت في العصر الروماني فأصبحت أثارها على المعابد والمسلات وفي أوراق البردى لغزا تاريخيا ظل من المعميات للبشرية ، حتى اكتشف حجر رشيد في أواخر القرن ال ١٨ إبان وجود الحملة الفرنسية بمصر عام ١٧٩٩ م . وكشف العالم الفرنسي شامبليون سر هذه اللغة والتعرف على أبجديتها . ومما سهل عليه المهمة أن الحجر كان مدونا عليه مرسوم من الملك بطليموس الخامس (عام ١٩٦ ق م) موجه إلى الكهنة المصريين يدعوهم فيه للاحتفال بتتويجه ملكا علي مصر . ونقش هذا المرسوم على حجر رشيد بثلاث لغات هي الهيروغليفية (اللغة الفرعونية القديمة) والديموطيقية (اللغة الفرعونية الدارجة العامية) والاعريقية (لغة البطالمة ولغة الدولة الرسمية وقتها) . وكان شامبليون يتقن الاعريقية وهذا مامكنه من التوصل لحل شفرة اللغة الهيروغليفية .

وكان قدماء المصريين يعتقدون أن للكتابة إلهة هي الالهة (تحوت) ربة الكتب ورعاية فن الكتابة وحامية سجلات التاريخ الملكية . ولهذا كان الكهنة يحتفظون بطريقة كتابة اللغة الهيروغليفية لأنفسهم ليورثوها لأبنائهم من بعدهم لقصر مهنة الكتابة والكتب على طائفتهم . وكانوا يستخدمون المداد الأسود في كتاباتهم على ورق البردى الذي كان يبلغ طوله عشرة أمتار ويطوى كاسطوانة ليفردها القارئ عند قراءتها أو الإطلاع عليها . وكانوا يستعملون في أغلب الأحيان وجه الصفحة . وقليل ما كانوا يستخدمون ظهر الصحيفة في الكتابة .

وفي عصر البطالمة (البطالمة) إستخدم المصريون الحروف الاعريقية في كتابة اللغة الهيروغليفية وأضافوا على الأبجدية الاعريقية سبعة حروف من الخط الديموطيقى وهذا التوليف كما يقول (الدكتور مختار رسمى) في كتابه (فضل الحضارة المصرية على العلوم) هو أصل اللغة القبطية التي أساسها اللغة الهيروغليفية العامية (الديموطيقية) مكتوبة بالأبجدية الاعريقية . والكتابة ظهرت في الدلتا قبل الصعيد بالنقوش لتسجيل الأحداث الهامة . وأشهرها لوحة الملك نارمر التي صور فيها يهوى بديوسه على رأس محارب مصرى من الدلتا .

واللغة الهيروغليفية التي في مجملها أشكال ورموز للحيوانات والطيور كانت لها خطوطها المميزة كالخط الهيراطيقى الذي كان يدون على أوراق البردى والأواني . والخط الديموطيقى الذي إخترع في القرن السابع ق م إبان الأسرة ال ٢٥ .

وأول من إكتشف فكرة التقويم هم قدماء المصريين منذ خمسة آلاف سنة عندما سجلوا طريقة حساباته على أحد معابدهم . واستخدم الملك خوفو تلسكوبا لرصد النجوم . ومراقبة ظهور

النجم (سيروس) كل عام مع حلول الفيضان .. واعتبر قدماء المصريين السنة ٣٦٥ يومه الأيام قسموها إلى ١٢ شهرا وقسموا الشهر لـ ٣٠ يوما . وأضافوا في نهاية شهور الخمسة أيام للسنة العادية وستة أيام للسنة الكبيسة . والحول لديهم كان من بداية الالف للفيضان الذى يليه . وقرنوا بداية مجيئه بظهور النجم (سيروس) في سماء مصر . ومع كانت تبدأ السنة الفرعونية الجديدة . ووضع الحكيم الفرعونى (توت) تقويما حسب الشمس وجعل السنة تبدأ في الاعتدال الخريفى (٢٣ ديسمبر) وجعل المدة بين الاعتدال الخريفى والربيعى ١٨٠ يوما . والمدة بين الاعتدالين الربيعى والخريفى تعادل ٢٥٠, ١٨٥ يوم السنة إلى ١٢ شهرا وجعل الشهر ٣٠ يوما وأضاف بعد الشهور الـ ١٢ خمسة أيام جعلها الآلهة .. وجعل (توت) اليوم ١٠ ساعات والساعة ١٠٠ دقيقة والدقيقة ١٠٠ ثانية . وأصبحت التوتى يعادل ١٠٠ ألف ثانية (حاليا يعادل ٨٦٤٠٠ ثانية حسب الحساب الفلكى العالمى زار مصر وقد من الكلدانيين بالعراق أخذوا فكرة التقويم الفرعونى بعدما قسموا اليوم ساعة والساعة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية .

وفي عام ٦٣ ق م إتخذ يوليوس قيصر التقويم التوتى الفرعونى تقويما للدولة الر بعدما وزع الأيام الخمسة في نهاية السنة . والتي كانت تضاف للعبادة . فوزعها يوما في بعض الشهور وطبق هذا التقويم الجديد عام ٤٨ ق م .

وقدماء المصريين كان لهم أسطولهم البحرى فنرى الملك (ساحورع) (٢٥٥٣ ق م) يرسل أسطولا إلى بلاد بنط (الصومال وأريتريا) لجلب البخور للمعابد والآلهة والعطور والأبنوس . وظلت هذه الرحلات البحرية تتوالى . وأشهرها رحلة الملكة حتشبسوت ق م - ١٤٦٩ ق م) وإبان الأسيرة ٢٦ نجد هيروdotus يصف القناة التى شقها الملك نخاو III والبحيرات المرة لوصلة بالبحر الأحمر . فنراه يرسل سفنه في القرن الرابع عن طريق الأحمر ودارت حول أفريقيا للوصول إلى جبل الأعمدة السبعة (جبل طارق) . ثم أتت عبر الأبيض إلى بر مصر . وهذا يبين أن الفراعنة كانوا علي علم بطريق الرجاء الصالح الذى فاسكودى جاما البرتغالى عام ١٤٩٦ م كما كانوا يتبادلون مع الدول الأفريقية السلع والمنتجات وكانت هناك قوافل برية للسودان تعبر من مصر إلى هناك عن طريق الأربعين (طريق التاريخى) وكان البخور له أهمية مقدسة لدى قدماء المصريين لأنهم كانوا يستخدمونه لتوليفة التحنيط مع النطرون ومسل النحل كانوا يقدمونه كقرابين للآلهة في المعابد .

وعرفه المصريون القدماء بالقانون والعدالتطبق ملوكهم قانمون (من أين لك هذا؟) امة وهذه . فكما يقول الفيلسوف الالماني (هيجل) في كتابه (فلسفة التاريخ) كان القانون على كل مصري التواجد أمام أملاكه أو داره في اليوم الذي تحدده الشرطة الفرعونية له .
 لها بالتفصيل مصائد ثروتها ودخله . ومن يكذب أو يتهرب أو يتلغم في الرد على أسئلة
 رطة كان يعاقب بالاعدام . وكان القضاء المصري القديم يتمثل في مجلس العدالة الذي كان
 بمناية فائقة كان يضم ثلاثين قاضيا يمثلون أقاليم مصري يختارون من بينهم رئيسا . وكانت
 لعات بتقديم المذكورات وهذه الطريقة كما يقول (ديودوروس) كانت طريقة مؤثرة . وكان الإتهام
 أمام المحكمة بطريقة تمثيلية صامتة (بانتومايم) معتمدة على الإشارات والرموز الهيروغليفية
 ن الحكم - أيضا - بالإشارات حيث كان القضاة يعلقون على صدورهم (رمز الصدق) الذي
 يلوح به القضاة . والقانون المصري القديم يجرم السرقة ، وإذا لم يبلغ السارق عن نفسه
 حف له العقوبة . وهذا النص كان يستهدف القضاء على قطاع الطرق ولصوص المقابر الملكية .
 هر قضية فرعونية سجلتها لنا البرديات التي هربت ببرديات (سرقة المقابر الملكية) بمنطقة
 انة الكبرى بوادي الملوك بالاضفة الغربية لطيبة . وهذه القضية نوت في عهد رمسيس التاسع
 لقبض على اللصوص بعد إجراء التحقيقات في مكان الجريمة . وعقدت المحكمة العظمى في
 الكرنك بالاضفة الشرقية ورأسها الوزير (خمسواس) وكانت تضم عمدة طيبة البلد (الشرقية)
 موين من البلاط الملكي . وحكمت المحكمة على المتهمين رقم إترافاتهم بالبرامة عام ١١٠٠ ق م
 نال أن القضاة كانوا مرتشين . وفي عهد الأسرة الـ ٢٠ تفشت ظاهرة نهب المقابر والسرقات .
 نت إجراءات التحقيق مع المتهمين بسيطة لكنها قاسية . وكان المتهم يقدم إلى المحكمة ويقسم
 يقول الحق . وكان الاتهام يتبع مع المتهم طرق التعذيب الجسدي بلوى الذراع أو الكس بالنار
 م القضاة حتى يعترف بالحقيقة ، ودلهم على شركائهم أو أماكن السرقات . وكانت العقوبة النفي
 النوبة أو التشويه أو وضع المتهم فوق خازوق أو التكيل بالقيود ويزج بعدها به في السجن .
 والملوك أيام حكم النولة القديمة كانوا يعتبرون آلهة لهم القدرة على الحياة والموت . وكانت
 بتهم هي القانون . وفي عهد الدولة الوسطى لقي الملوك معارضة قوية من الاقطاعيين . وحدوا
 سلطات وسلطان ملوكهم فأصبحوا ظللا لا تحكم مصر . وكان لظهور دعوة أخناتون أثره على
 انة المصرية القديمة وتجسيد لبشرية الملك .
 ومصر منذ قدما المصريين حتى يومنا هذا المتعرف الديموقراطية لكنها إبتليت

بأوتوقراطية حكماءها الذين سبوا سواها سوا التعذيب والقوا بها في مهاو من الفقر والجهل والبؤس .
دما وأد في المصريين روح التطور والتقدم والابداع . وكانت الحضارة المصرية القديمة فصلا ما برا
في التاريخ البشرى . وقامت على مفهوم دينى وليس على أساس قومى . فلما توارت هذه المفاهيم
تدهورت أحوال مصر من مصر إلى مصر . فمصر أم الدنيا أخذ يلاحقها هم الدنيا والشعب
المصرى لم يلبث يعيش في وهم الماضى السحيق يعنى حضارته التى خبرت وغربت عنه . حتى ينس
من هاضره التخلفى ومستقبله التشاؤمى . لأن إيقاع العاضرى ينسب بها فلاس في الغد . فبات
المصريون يجترون أحزانهم الدينية ويشعرون بالغيرة في بلادهم . وهذا الشعور لاولن يقيم حضارة
أويبنى أمة كانت أعظم الأمم فيما مضى منذ ٢٥ قرنا .

وقدماء المصريين كانوا يعتبرون البشر سواء أمام الخالق لكنهم كانوا محرومين من دخول
المعابد الكبرى التى كانت مقصورة على الكهنة . فكان المصريون يصلون أمام أبواب المعابد
الكبرى متوارين من الكهنة أو في المعابد الصغرى . فالتفرقة الطبقية كانت تمارس حتى في
الشعائر الدينية المقدسة . وتوارث هذه العادة حكام مصر فعندما يصلون في الأعياد يمنع الشعب
من دخول المسجد لتأدية الفريضة متناسيين أن الملك لله الواحد القاهر لكن كهنة الفراعنة لم
يكونوا يعرفون إلها غير فرعون مصر .

والمرأة كانت من الناحية القانونية الفرعونية متساوية مع الرجل . وحتى بعد الزواج كان لها
الحق في الاحتفاظ بأموالها وإدارتها مستقلة عن زوجها . كما كان لها الحق في الوصية توصى
فيها بتوزيع أموالها علي من تشاء من الأبناء . وكان مسعوحا للمرأة العمل في الوظائف العامة
وبواوين الدولة . لها حرية التجارة وممارسة الطب . وكانت (بيسيشت) أول طبيبة تمارس الطب
في مدينة منف . وكان الزوج يجلس في البيت ليفزل الكتان والمرأة تخرج للرزق . والزواج كان
يسجل في سجلات الدولة .

ومارس قدماء المصريين الرقص والغناء وعزف الموسيقى وهذا منون على جدران المعابد
الفرعونية وكانت هذه الفنون تمارس في المعابد أثناء تأدية الطقوس الدينية أو الجذائزية . كما
كانوا يقيمون الأفراح الغنائية والمآتم التى كانت تعزف فيها الموسيقى ويرتل فيها الغناء . وكان
الكهنة يتخلون من الموسيقى والغناء (الزار) لعلاج الأمراض النفسية والعقلية . وعرف المصري
القديم الدف والمزمار والنأى الذى كان يصنع من الغاب (البوص) بعد تهذيبه وتنقيبه بطريقة
خاصة لتتبعث منه الأنغام المميزة . وكان الغناء الكورالى يمارس في المعابد . وكان المنشودون من

الرجال والنساء . ولهذا صممت المعابد لتجسيم الأصوات الغنائية وتضخيمها . وكانت هياكل المعابد مصممة بطريقة فنية لتكبير صوت الملك أو الكاهن عندما يتحدث أو يرتل في الصلاة . والتعليم كان في المعابد وكان التلاميذ يتعلمون بها الأبجدية الهيروغليفية ومبادئ الحساب والهندسة والجغرافيا . وكانت الأمهات تذهبن إلى الكاهن المعلم وتقدمن له كل يوم الطعام كأجره . وكان الطالب بعد المرحلة الثانوية يمنح شهادة (كاتب المحبرة) وهذه الشهادة تلحقه بالعمل في دواوين ومخازن الدولة الفرعونية . وكان أبناء الكهنة ورجال البلاط وكبار القواد يلتحقون بعد حصولهم على شهادة (كاتب المحبرة) بالدراسات العليا بالمعبد الكبير ليتلقوا على أيدي كبار الكهنة علوم الهندسة المعمارية والفلك والطب والصيدلة والفلسفة المصريين وحكمهم وآدابهم . وكان هؤلاء يعينون بعد دراساتهم في الوظائف العليا كوزراء أو قواد أو كهنة ، كما كانوا بهذا يعتبرون طبقة الصفوة في المجتمع المصرى القديم هؤلاء كانوا قلة متميزة ومنتقاة .

والمصريون كما يقول (هيرودوت) : لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير لأن الآلهة (ست) لما قتل حورس ابن الآلهة إيزيس والآلهة أوزيريس كان متخفيا في هيئة خنزير أسود . ولم يكونوا يأكلون لحوم البقر ولا يذبحون البقرة حتى لا يسيئوا إلى الآلهة إيزيس التى كانوا يصورونها على هيئة بقرة . ولم يكونوا يأكلون طعاما صنعه إغريقى أيام حكم البطالسة ولا يتناولون لحوما لمسها أغريقى أو عجلا ذبحه أو ذبح بسكين لمسه . وكان محرما تقبيل أي شخص أو امرأة إغريقية . فالمصريون - كما يقول هيرودوت - ينظرون إلى الشعوب الأخرى بزاوية وإستعلاء . وكانوا يعتبرون الشعوب الأخرى نجسه وقذرة طالما هم بعيدين عن آلهتهم . وهذه العادات مازالت متوارثة في عادات ريف مصر حتى الآن .

الحالة السياسية

نجد أن الحالة السياسية لمصر الفرعونية قبل مصر الأسرات كانت دويلات صغيرة لكل دويلة مدينتها العاصمة . ولم تكن لمصر حكومة مركزية إلى أن توحدت إبان الأسرتين الأولى والثانية بعد نضال توحيدى امتد سنوات طويلة إلى عام ٣١٠٠ ق م عندما داهمت قوات مصر العليا الدلتا وأصبح الملك مينا موحد القطرين كما يلقب . وبهذا التوحيد أصبحت مصر أول دولة قومية كبرى في العالم القديم كما يقول (جون بينز) أستاذ المصريات بجامعة إكسفورد . وكان الملك يحكمها حكما مطلقا .

ومصر تنحدر من الجنوب إلى الشمال حيث ينساب النيل عبر الوادئ . وهذا ما جعل طيبة بجنوب مصر مقرا للوك قدماء المصريين . وهذه المدينة لما زارها هيرودوت أيام البطالسة وجدها مدينة خربة ورغم هذا الخراب مازالت حتى اليوم الأقصر بخرائبها التي وصفها هيرودوت . مدينة سياحية عالمية تبهر السياح من شتى أنحاء العالم بعظمة وروعة أثارها التي تعتبر كما يقول (هيجل) من أعجب آثار الدنيا .

وبنى الملك مينا مدينة منف (ممفيس) في المنطقة البينية بين شمال و جنوب مصر بالجيزة لتكون البوابة الفرعونية بين شطرى الوادئ . وأثناء حكم الملك (سنفر) أرسل حملاته الاستكشافية إلى ليبيا والنوبة وسيناء وأرسل إسطوله البحرى إلى سواحل لبنان (فنيقيا) لاحتضار خشب أشجار الأرز لبناء المعابد لرع إيان الأسرة التي بنت الأهرامات بالجيزة . إلا أن أحد ملوكها الملك (شيسكاف) حاول التخلص من نفوذ كهنة الإله رع . فنراه يبنى له حرما رابعا بعيدا عن منطقة الأهرامات فبناء كمقبرة له في سقارة وهو هرم صغير لهذا السبب . لكن كهنة هيليوبوليس (عين شمس) عارضوه وعزلوه واستولوا على الحكم منصبين كبيرهم (أوزركاف) ملكا عام ٢٤٠٠ ق م ليؤسس الأسرة الخامسة . التي حكمها كهنة الإله (رع) . وقام الكهنة بهذا الانقلاب الدينى باقرار عبادة الشمس (رع) ولهذا بنوا مقابرهم وقد ألقوا بها المعابد للإله رع . وهذا العهد الدينى جلب لمصر الأزمات الاقتصادية والإنحطاط السياسى إلا أنه جعل فن النحت يزدهر لأول مرة . وملوك هذه الأسرة أضافوا إلى ألقابهم الملكية لقب (ابن الإله رع) . لهذا حكموا مصر بإتوقراطية دينية متسلطة . ورغم القمع السياسى الذى مارسوه على أوسع نطاق إلا أن النبلاء حكام الأقاليم إزداد نفوذهم مما جعلهم يضعفون النفوذ السياسى والدينى لحكم الكهنة بمصر . ومما قوى هؤلاء النبلاء التشكيك الذى ظهر على الصعيد الدينى حول العقيدة الدينية والطبيعة الإلهية للملك . ولا سيما مقولة أنه ابن الإله رع . كما ساعد الفقر الذى ساد البلاد فجعل خزانها خاوية . لأن هؤلاء الملوك الكهان أنفقوا الأموال الطائلة . فأسرفوا فى بناء المقابر لهم ولكهنتهم وعاشوا عيشة إسطورىة تاركين الشعب يأكل الحصرم ولم يتقوا (رع) فيما أسرفوا أو أنفقوا . وتركوا أهل مصر يلاقون جياة الضرائب والنبلاء يلتهمون مواردهم وثرواتهم حتى إتخموا وكونوا لهم الحاشية والبلاط والجيش فى أقاليمهم المصرية . وهذا التفتت السياسى جعل هؤلاء النبلاء فى نهاية الأسرة السادسة يتمردون على الملك بيبى الثانى . وظل طوال حكمه الذى استمر ٩٣ سنة فى حرب ضد النبلاء . ولهذا عمت الفوضى البلاد التى تفسخت وحدتها

حتى حكم الأسرتين الأسرة السابعة والثامنة حيث ظلت البلاد في فوضى سياسية لكن ملوكهما إستطاعوا إستعادة نفوذهم على المناطق المتاخمة لمنف العاصمة . وهذه الفوضى السياسية جعلت القبائل الرعوية التي نزحت من أسيا إبان الأسرتين التاسعة والعاشرة تصل إلى شرق الدلتا واستولت على الأراضى الخصبة بها . مما جعل الملك خيتى الأول ينقل العاصمة من منف إلى مدينة هيركلوبوليس (إهناسيا) التي بناها على بعد ٨٠ ميلا جنوب منف ليكون بمنأى عن خطر هذه القبائل الآسيوية المحتلة لشرق الدلتا واستقرت بها . وفى العاصمة الجديدة أقام النظام والقانون وخلفه فيها ١٧ ملكا حتى نهاية الأسرة العاشرة . وكان الملك خيتى الثالث قد قام بطرد هذه القبائل الآسيوية إلا أن ثورة قام بها حاكم طيبة في الجنوب وهذه الثورة كانت في نهاية عهد خيتى الثالث عام ٢١٣٣ ق م . وامتدت شمالا حتى وصلت إلى أبيدوس . واستطاع الملك عقد معاهدة سلام مع الثائرين و المتمردين عليه . وكانت هذه المعاهدة بداية ظهور الدولة الوسطى (المملكة المتوسطة) التي حكمت منذ ٢١٣٣ ق م حتى ١٧٨٦ ق م حيث شهدت فيها مصر إزدهارا بعد قرون الإنحطاط التي سلفتها . فاهتم الحكام بالرى والزراعة والتجارة والصناعة اليدوية . وسادت البلاد خلال حكم الأسرتين الـ ١١ والـ ١٢ (١٩٩١ ق م - ١٧٨٦ ق م) حالة من الاستقرار والسلام الدائم . إلا أن ثمة ثورة شعبية قد نشبت خلال حكم الأسرة الـ ١١ قام بها الفلاحون والعبيد والحرفيون . مما أجبرت فرعون مصر على تنازله عن العرش بعدها داهم الثوار بيوت الاقطاعيين ونهبوا قصورهم والمقابر الملكية عابثين بالموميات للملوك الغابرين . وألقوا بها خارج المقابر والأهرامات . ونهبوا القصر الملكى والمخازن الملكية بحثا عن الخبز والفجل والطعام ووزعوا الغنائم من نقائس وأطعمة بالتساوى على أفراد الشعب الجائع . وأتلف الثوار سجلات الضرائب والجزية . وأخذ أفراد الشعب يسكنون بيوت النبلاء والاقطاعيين وأجبروهم على العمل في الأرض بدلا منهم بالسخرة لينوقوا ما كانوا يفعلون بهم . ولما تولى (أمنحتب) الثانى عام ٢٠٤٠ ق م وحد الدولة بعد تفتسخها . وجعل طيبة عاصمة له . وامتد حكمه لمصر لمدة ٥١ عاما أعاد فيها لمصر هيبتها الدولية واسترد حدود مصر الآسيوية والليبية . وازدهرت في عهده بناء العمائر وحفر التماثيل ونحتها ووصلت قواته جنوبا إلى الشلال الثانى مسيطرا على أهل النوبة . ومرورا بالأسرتين الـ ١١ والـ ١٢ نجد أن مصر شهدت فيهما الاستقرار السياسى إلا أن ملوك الأسرة الـ ١٢ تركوا طيبة العاصمة وتركوها لعبادة الإله آمون والآلهة (ست) . وبنوا لهم عاصمة (إشت) (Itj - Tawy) على بعد ٢٠ ميلا من جنوب منف . وكان الهدف من بناء

العاصمة الجديدة لتكون وسط البلاد وعلى مقربة من الدلتا لمراقبة ومنع تسلسل القبائل الببوية الآسيوية إليها . وملوك الأسرة الـ ١٢ تميزوا بالقوة والصلابة وكانوا نشطين داخليا وخارجيا . فأرسلوا الرحلات البحرية التجارية في البحر الأحمر إلى بلاد بنط (الصومال) وجلبوا منها البخور للمعابد والعاج والجلود والابنوس وقام الملوك باستصلاح الاراضى وتوسيع خزان الفيوم . وسيطروا بالكامل على الدولة وأقاموا حكومة مركزية من الاشراف والقواد لتحكم البلاد وتدير شئونها . واستطاعت هذه الأسرة إخماد معارضة الكهنة ومعهم قواد الجيش والأعيان مما قوى نفوذ ملوكها . وظلت الحكومة المركزية تحكم مصر طوال ٢٠٠ عام حتى ظهور الدولة الحديثة فتحوّلت الحكومة إلى البيروقراطية الحاكمة تتولاها شبكة متداخلة من الوزراء والكهنة والعمد والكتبة . وأصبحت سلطاتهم طاغية لما أصبحوا يتمتعون به من نفوذ سياسى وثروات ضخمة . وأصبح الكهنة يختارون فرعون مصر ويعينونه ملكا عليها . وبهذا إستقروا نفوذهم وتسلطهم على الحكم في البلاد .

أما الأسرة الـ ١٣ (١٧٨٦ ق م - ١٦٣٣ ق م) فلقد حكمها ٦٠ ملكا . والأسرة الـ ١٤ كانت تضم ٧٦ ملكا . وفي عهد هاتين الأسرتين غزا الهكسوس الدلتا بأسلحتهم ومعداتهم وعرباتهم العربية الشهيرة عام ١٧٢٠ ق م وحكموا الدلتا وعرف حكمهم بحكم الملوك الرعاة (أصلهم قبائل رعوية آسيوية) وظلوا يحكمون الدلتا قرنا ونصف حتى طردهم الملك أحمس إبان الأسرة الـ ١٦ . وبعد طرد الهكسوس أصبحت مصر أمة متحدة مما جعل المصريين يشعرون بقوتهم وسادتهم الروح العسكرية المحاربة لأول مرة . وخرجت مصر من عزلتها فسلحت جيشها بالخيول والعربات التى استولت عليها من الهكسوس .

وبهذا استطاع أحمس رد الهكسوس من مصر الوسطى وطرد ملكهم (تيتى) من مدينة أبيدوس عاصمتهم واتخذوا من (أفاريس) عاصمة جديدة لهم ... وأبان حكم الأسرة الـ ١٨ إستطاع الملك أموزيس مؤسسها محاصرة مدينة (أفاريس) العاصمة وطرد الهكسوس من الدلتا وطاردهم في فلسطين والشام بعد ما أسس المملكة الحديثة . التى كانت علامة بارزة فى التاريخ المصرى حيث خرجت مصر من عزلتها فشنت حملاتها على ليبيا والنوبة أيام حكم الملك تحتمس الثالث (١٥٢٥ ق م - ١٤٩١ ق م) الذى شيد أسطولا بحريا قويا إستولى به على سواحل شرق البحر الأبيض في الشام وفلسطين وتخوم آسيا الوسطى . وشن جيشه ١٧ حملة فى آسيا لاختضاع الشام وفلسطين . وهذه الحملات العسكرية جلبت الغنائم لمصر . وصور هذه المعارك

سجلها الملك تحتمس الثالث على معبد الكرنك وعلى جدران مقابر قواده . وكان قد وصل بقواته إلى تخوم نهر الفرات بعد معارك ضارية مع ملك قادش . ثم وصلت قواته إلى الشلال الرابع في جنوب مصر . ورغم صغر سن الملك الفرعوني إلا أنه حقق انتصارات باهرة تعتبر نقطة تحول كبرى في تاريخ العسكرية المصرية .

وملوك الأسرة الـ ١٨ عدلوا عن بناء الأهرامات كمقابر مكشوفة واستعاضوا عنها ببناء المقابر السرية في جوف تلال طيبة بوادي الملوك الذي كان يعتبر منطقة نائية ليسهل حراستها من لصومس المقابر . وهذه الجبانة الملكية عينوا لها عمدة منفصلا عن عمدة طيبة البلد بالضفة الشرقية للنيل . ورغم هذه الحراسات المشددة كانت هذه المقابر تنهب بضرارة بواسطة حراسها . والأسرة الـ ١٨ شهدت - أيضا - ملكين حظيا بشهرة عالمية وهما إخناتون وتوت عنخ آمون . وكان إخناتون (أمنحتب الرابع) (١٤٢٤ ق م - ١٣٨٠ ق م) قد قام بعدة إصلاحات دينية حيث وحد الآلهة المصرية المتعددة في إله واحد هو الاله آتون (إله الشمس) . وأمر ببناء المعابد باسم آتون في كل أنحاء البلاد ولقب أمنحتب الرابع نفسه بإخناتون (محبوب آتون) أو (الله راض) . وهذه الدعوة الدينية التوحيدية جلبت عليه ثورة كهنة آمون لكنه استطاع إخمادها . وانصرف الملك إلى دعوته الجديدة مما شغله عن المملكة التي فقدت ممتلكاتها في غرب آسيا . وبعد ٦ سنوات من حكمه أعلن دعوته ونقل العاصمة من طيبة إلى المدينة إخناتون (أي أفق آتون) وهي الآن مكان تل العمارنة . وطالبه قواده بإعادة إحياء ديانة آمون رع والبقاء على طيبة كعاصمة إلا أن محاولتهم لم يستجب إليها .

ظهور ديانة التوحيد :

كانت فترة حكم تل العمارنة تعتبر ثورة إجتماعية وسياسية معا كما يقول (سيريل الدين) في كتابه (إخناتون ... فرعون مصر) . وكانت نقطة تحول في التاريخ المصري القديم باستثناء حكم كليوباترا السابعة . فلم ينل حاكم مصرى من إهتمام المؤرخين كإخناتون زوج الملكة الجميلة نفرتيتي . وشهرته أنه أول ملك يعلن بشرية الملك وخلع على نفسه صفة الآلهية التي كانت تخصى على ملوك الفراعنة . وسجل إخناتون دعوته على جدران المقابر الصخرية في مصر الوسطى . وعبادة (آتون) لم تكن مجرد عبادة الشمس كما يقول (بريستيد) في كتابه (تاريخ مصر) لأن معنى كلمة آتون في فكر إخناتون لم تكن الكلمة مجردة فحسب بل كان يقصد بها القوة الإلهية

التي تتجلى في هذا النجم (يقصد الشمس) . وهذا يتضح في أناشيده كما يقول (إرمان) في كتابه (الديانة المصرية) حيث جاء في أناشيده (إنك الاله الأحد ولا إله غيرك) . ثم قام بعدها بمحو إسم آمون من المعابد والآثارو أغلق معابد الآلهة الأخرى في مصر لمنع إقامة أي طقوس أو شعائر دينية لها . كما حاصر ممتلكات هذه المعابد وضمها للدولة . وأمر بمحو النقوش التي يذكر بها إسم الآلهة بصيغة الجمع ولم يكن يسمح برسم أو تجسيد الاله أتون لأنه الاله الحق . وظلت هذه الديانة تصارع بشدة ويعنف من كهنة آمون حتى أصبحت مقصورة على حاشيته فقط . وبعد وفاته تولى توت عنخ أتون . لكن القواد والكهنة أجبروه على العودة إلى ديانة آمون رع . وبعد عام من توليه عاد إلى الديانة السابقة ولقب بتوت عنخ آمون . وأعاد طيبة كعاصمة له . ولقبت زوجته بلقب أخن آمون . وعندما ترك توت عنخ آمون مدينة إخناتون (أخن أتون) نزح معه كبار رجال الدولة والأثرياء الذين حملوا معهم ثرواتهم تاركين قصورهم المنيفة للنهب والسلب . وحمل الكتبة معهم أوراقهم ووثائقهم البردية . ودفنوا الرسائل الأجنبية التي إكتشفت فيما بعد بتل البعمارنة . ونقل الأهالى موتاهم الذين كانوا قد دفنوا في جبانته إلى أراضى نوبهم . ونقلت جثث الأسرة الملكية إلى جبانة طيبة . واعتبر الكهنة إخناتون مارقا بل ومجرما . أما الملك توت عنخ آمون فمقبرته الملكية كانت غنية بكنوزها التي إكتشفت عام ١٩٢٣ . بعدها نالت شهرة عالمية لروعة مقتنياتاتها . وبعد وفاته شن ملك الحيثيين هجوما على مصر وأسر المصريين مما جعل أرملة توت عنخ آمون بعد تخريبه البلاد وأسره للمصريين ترسل له رسالة تطلب فيها منه إرسال أحد أبنائه لتتزوج وتنصبه ملكا على مصر ، لأنها لم تنجب من الفرعون الراحل أبناء لهذا سينصب الفرعون الجديد . إلا أن ملك الحيثيين لم يستجب لرجائها ولم يتم هذا الزواج بالمراسلة .

والأسرة الـ ١٩ شهدت حكم الملك سيتي الأول (١٣١٨ ق م - ١٣٠٤ ق م) الذي شن حملاته في آسيا وأستعاد نفوذ مصر هناك بصعوبة ولا سيما وأن ملك قادش تصدى لفتوحاته . وهذه الأسرة حكمها الرعامسة وكان من بينهم رمسيس الثانى (١٣١٧ ق م - ١٢٥١ ق م) (يقال أنه فرعون موسى) وفى عهده بلغت مصر ذروة مجدها . وحاول الحيثيون الهجوم على الشام المصرية لكنه لاقاهم في قادش ووقع معهم معاهدة سلام . وفى أواخر عهده أخذ القراصنة الاغريق يصلون إلى الدلتا وليبيا وهؤلاء أتوا من جزر بحر إيجه . وحاولوا غزو مصر من الغرب بعدما جاءت قواتهم من ليبيا . لكن المصريين قاوموهم وأسروا منهم تسعة آلاف أسير . وهذه

المعارك جعلت لها هيبتها مما جعل الكثيرين يهجمون عن مهاجمتها . واستطاع رمسيس الثالث (١١٩٨ ق م - ١١٦٦ ق م) تحقيق إنتصارات بحرية على أسطول الفينيقيين . ويعتبر رمسيس الثالث آخر عمالقة الفراعنة رغم أن ثمانية ملوك من الرعامسة قد خلفوه . وكان آخرهم رمسيس الـ ١١ (١١١٣ ق م - ١٠٨٥ ق م) الذى عزله الكاهن الأكبر (هيرمور) كبير كهنة آمون بطيبة ونصب نفسه ملكا على مصر ليعود حكم الكهنة ثانية لها . إلا أن ثورة في الدلتا قامت ضده بزعامة (نزنديف) مؤسسا الأسرة الـ ٢١ وجعل عاصمتها تانيس .

والأسرتان الـ ٢٢ و ٢٣ كانتا عبارة عن مملكتين إحداهما في الدلتا وعاصمتها تانيس والأخرى في الصعيد وعاصمتها طيبة . وخلال حكمهما كان الليبيون مقيمين بالدلتا إبان نهاية المملكة الحديثة حيث منحهم ملوكها أراضى ليزرعوها . لكن شيشنق الليبى نصب نفسه ملكا على مصر خلال الأسرتين ٢٢ و ٢٣ مستغلا الانقسام بين الشمال والجنوب . واستولى على القدس (٩٣٠ ق م) كما استولى على كنوز الملك سليمان التى كانت في الهيكل . وهذه الغزوة الليبية سجلت على جدران معبد الكرك . إلا أن التوبيين (الأثيوبيين) إستولوا على مصر ما بين عامى (٧٥١ ق م - ٦٦٣ ق م) . وظلوا يحكمونها حتى الأسرة الـ ٢٥ . وأصبحت مصر تحكم من نباتة بالنوبة قرب الشلال الرابع . وكان الأثيوبيون (الكوشيون) الغزاة قد تمصروا قبل حكمهم الأخير لمصر . لأن نباتة بالذات كانت موثلا للكهنة المصريين التابعين لآمون . ودام الحكم الأثيوبى لمصر حتى مجيء الآشوريين عام ٦٧٠ ق م . ثم حكمها بسماتيك الأول عام (٦٦٣ ق م - ٥٢٥ ق م) مؤسسا الأسرة ٢٦ بعد ما طرد الآشوريين من الدلتا موحدًا مصر . بعده أتى قمبيز (فارس) عام ٥٢٥ ق م وظل الفرس يحكمون مصر حتى مجيء الإسكندر المقدونى عام (٣٣٢ ق م) . وكانوا يتخذون من سمنود عاصمة لهم .

العصر الإغريقي

يبدأ العصر الإغريقي بمصر مع مجيء الإسكندر الأكبر . وفي مصر قام الاسكندر بتقديم القرابين للآلهة المصرية في منف (ممفيس) . وزار معبد آمون بواحة سيوة ثم قام بتأسيس مدينة الإسكندرية بعدها رحل من مصر لملاحقة الفرس تاركاً حكومة أغريقية فيها . ولما مات عام ٣٢٣ ق م إستقل بطليموس الحاكم الإغريقي بأقليم مصر واتخذ لنفسه لقب الملك مؤسساً دولة البطالمة (البطالسة) . وأيام بطليموس الأول دار صراع بينه وبين حكام الشام ومقدونيا من الأغريق . وحد بأسطوله الجديد مجماتهم بل إستولى على جزر بحر إيجه باليونان وعلى جزيرة قبرص . وكان الأغريق لما إستولوا على مصر جعلوا الاسكندرية مدينتهم الحديثة عاصمة لهم كما جعلوها مركز العقيدة الفرعونية القديمة . ليس في مصر وحدها بل في العالم الإغريقي القديم . وهذه كانت بداية شهرة الاسكندرية كإشعاع حضارى وبنى بطليموس الأول معبد (سيرابيوم) ليعبد فيه الثلاثة آلهة المصرية وهى أوزيريس وإيزيس وحورس . وكان الأغريق قد أطلقوا على أوزيريس الاله المصرى سيرايس ومن هذه التسمية أطلق على المعبد (سيرابيوم) . الذى قام أيام بطليموس على أساس عقيدة التثليث من حيث النظرة الفرعونية التى كانت تنظر إلى الآلهة الثلاثة كإله واحد كما يقول هـ . ج . ويلز في كتابه مختصر تاريخ العالم . وانتقلت هذه العقيدة للأغريق . فأطلقوا على أوزيريس (زيوس) . وللرومان فأطلقوا عليه (جوبيتر) وللفرس فأطلقوا عليه (إله الشمس) . وانتقلت هذه الدعوة الفرعونية حتى وصلت إلى شمال الهند وغرب الصين مما أثر على عقائدهما . لهذا أطلق على أوزيريس إسم سيرايس أي أنه المنقذ للأرواح بعد الموت . أما الالهة إيزيس فكانت تماثيلها توضع في المعابد . وكانت تعتبر ملكة السماء . كما تصورها تماثيلها وهى حاملة ابنها حورس بين ذراعيها حيث كانت تضأ أمامها الشموع ويقدم إليها النذور والقرابين . وكان الكهنة العزاب يقيمون عند مذبحها للخدمة والسر .

وكان السرابيوم هو جبانة لدفن العجول المقدسة بمدينة منف . وهذه الجبانة (السرابيوم) كانت في سقارة في شمال غرب هرم سقارة . وكان العجل المقدس الذى يموت في منف ينقل للسرابيوم ليدفن في مقبرة خاصة وهذه العجول المقدسة . كان قدماء المصريين يحنطونها ويكننونها ويضعونها في توابيت خاصة بعد تأدية الصلوات الجنائزية لها . وهذه الاحتفالية الجنائزية لم تكن تقل روعة عما كان يقام لأعظم ملك لمصر بعد موته . وكانت تشيد فوق مقبرة

العجل المقدس مقصورة على سطح الأرض وتوضع مع العجل الأحجار الكريمة . والعجل كان مقدسا في منف ويسمى (حابى) لكن بطليموس الأول صوره في صورة آدمية سماها سراپيس وأقام له معبدا بالاسكندرية أطلق عليه السيراپيوم وجعله شكلا من أشكال أوزيريس وإيزيس . كما أقام له معبدا آخر فوق المقابر بسقارة وبنى له طريقا وضع على جانبيه تماثيل لأبى الهول وأصبح معبد سراپيوم سقارة من أشهر المعابد في العصرين البطليموسى والرومانى .

وعصر البطالمة تميز بالطبقية .. فالأغريق داخل المدن التى يعيشون فيها كان لهم قانونهم الذى يحظر عليهم الزواج من المصريين ولهم محاكمهم وللمصريين محاكمهم . وكانت التجارة والصناعة حكرا على الملك . ويطليموس الثانى قام بوضع النظم المالية الدقيقة للدولة . وأدخل الزراعة الحديثة وزراعة الزيتون لزيادة محصولية الأرض . وكانت أرض مصر كلها ملكا للملك في هذا العهد .

وأيام حكم بطليموس الرابع جهز جيشا من المصريين على الطريقة المقدونية العسكرية لمحاربة أنطيكىوس في الشام وانتصر عام ٢١٧ ق م في (رافيا) .

وانتصار الجيش المصرى أعطى ثقة للمصريين فهبوا بثورة في طيبة . واستقلوا عن الأغريق وأصبح لمصر حكمين مزدوجين . أحدهما في طيبة والآخر في الإسكندرية (البطالسة) . وكان الأغريق في مصر على علاقة وطيدة بروما إبان الدولة الرومانية ففى عام ١٧٠ ق م غزا انطيكىوس مصر وضمها إلى حكمه في الشام إلا أن الدولة الرومانية أجبرته على الانسحاب من مصر . وفي القرن الأول ميلادى كان البطالمة قد فقدوا أملاكهم الخارجية ولم يبق لهم سوى الدلتا والاسكندرية . لأن طيبة قد وطدت إستقلالها . وفي عام ٤٨ م . أمر يوليوس قيصر بومبى بالتوجه لمصر للاستيلاء عليها لكن كليوباترا السابعة تصدت له وأسرت في قصر بالاسكندرية . ويعتبر حكمها متسما بالنشاط العسكرى والسياسى وسعة الحيلة أمام الدولة الرومانية في روما . وهى في أوج مجدها . وأوقعت أنطونيوس القائد الرومانى في غرامها . وبهذا جعلت حكمها قويا مدعما عسكريا . وكانت أقوى من أجدادها البطالمة الأوائل فنراها تحارب بأسطولها القوى عام ٣١ ق م الرومان في موقعة اكتيوم . إلا أن المعركة بددت أحلامها بعد هزيمتها فانتحرت لتنتهى صفحة حكم البطالسة لمصر . ليبدأ حكم الرومان لها .

عصر الرومان

كان الرومان يعتبرون مصر سلة الخبز لهم في روما ، ولما ضمتها أوغسطس للدولة الرومانية جعل لها وضعاً خاصاً فلم يسمح لأي روماني بزيارتها إلا بأمر من الامبراطور في روما وجعل فرسان الدولة يحكمونها . وعين له نائباً عنه في الاسكندرية . وكان المصريون يعتبرون الامبراطور الروماني في روما هو الفرعون له نائبه بمصر . وطلب أهل الاسكندرية أن يكون لهم مجلس الشيوخ اسوة بما هو متبع في روما . لكن الامبراطور أوغسطس رفض ، إلا أنه ميز الاغريق الذين يسكنون مصر على المصريين بأن جعل لهم مجلساً شعبياً ، ويدفعون ضرائب أقل . وقام بفرض الجزية على أصحاب البيوت يدفعونها عن سكانها ، وقام بتسجيل الأراضي . لكن في عام ٢٩ م قامت ثورة شعبية في طيبة ضد الرومان أخذها جالوس فاستكان بعدها المصريون للرومان الذين فرضوا عليهم الضرائب الباهظة والمجحفة . واستنزفوا ثرواتهم وخيراتهم لدرجة كان الفلاحون يهجون من الأرض ويتركونها بلا زراعة .

وأحوال مصر في العصر الروماني الذي بدأ فيها بدخول القائد الروماني اكتافيوس إلي الاسكندرية عام ٣٠ ق . م . حيث عفا عن أهلها وكانوا جميعاً من الاغريق واليهود لأنها كانت تعتبر مدينة إغريقية يحرم على المصريين دخولها . وكانت الجاليات الاغريقية واليهودية منتشرة في كل الأقاليم المصرية أيضاً . وناصب الاغريق العداء للحكم الروماني الجديد . رغم أنه أبقى على امتيازاتهم الطبقية . لكن اليهود سرعان ما أعلنوا ولائهم التام له . وفرض إكتافيوس (الامبراطور أو جست فيما بعد) ضريبة الرأس على المصريين واليهود وأعفى الاغريق بالاسكندرية منها .

ولما دخل اكتافيوس الاسكندرية نقل الاشراف على المعابد المصرية إلي الدولة وصار أملاكها وعين أحد الموظفين في قصره أطلق عليه كاهن الاسكندرية ليشرف على الكهنة والمعابد . ورتب للكهنة مرتبات شهرية تصرف لهم من خزينة الدولة . وكان قد عين مفتشين للتفتيش على هذه المعابد ومراقبة العمل بها ومواظبة الكهنة على الحضور والانتصاف . ومن كان يخالف يقبض عليه ويرسل مقيداً إلي الاسكندرية ليعاقب أشد العقاب . وكان كاتب كل إقليم يرسل إلي الكاهن بالاسكندرية تقارير شهرية عن سير العمل بهذه المعابد . وكانت الدولة تعين الكهنة عن طريق طرح المناصب الكهنوتية الشاغرة في المزاد العلني ويحصل عليها من يدفع أكثر . وقد كانت

هذه المناصب من قبل بالوراثة والتعيين . ولما أنشئت المجالس بالمديريات أصبحت تشرف على المعابد بها . وبهذا الأسلوب ضمن الرومان الحد من نفوذ هؤلاء الكهنة أو تدخلهم في أمور البلاد . حتى لا يمثلوا معارضة لحكمهم عكس حكم البطالمة كان للكهنة نفوذهم السياسى والدينى والاجتماعى .

وفي عام ١٧٧ م . أيام حكم الامبراطور (ماركوس أوريلبيوس) قام الفلاحون بايعاز من أحد الكهنة بثورة عارمة في الدلتا تزعمها الكاهن (اينيرودوس) وهجم الثائرون على قائد الحامية الرومانية وذبحوه ومثلوا بجثته وقدموها قربانا للكهنة . وأتى القائد الروما (أقليدس) بقواته من سوريا لاضمار هذه الثورة إلا أن المصريين والاغريق أو عزوا له بالعصيان ضد الامبراطور . فأتى الامبراطور ماركوس بنفسه للقضاء على هذه الثورة وأخمدها . لكنه عفا عن الثائرين . ولما خلفه ابنه كمودس نكل بكبار رجال الاسكندرية مما جعل كبيرهم إبيانوس يقول له : أنت ظالم . وواجهه صراحة بظلم روما لمصر لأخذها القمح لتبيعه في أسواق الدولة الرومانية بأربعة أضعاف ثمنه .

وبعد مقتل كمودس دار الصراع بين القائدين نيجر وسيفيروس عام ١٩٣ م . حول تولى عرش روما فأتى سيفيروس على عجل إلى مصر للسيطرة على القمح حتى لا يستولى عليه غريمه بيجر ويجوع روما . وزار أقاليم مصر وعين بها المجالس التشريعية وحملها مسئولية جباية الضرائب وارسالها إلى روما . وأصدر قانون المواطنة بمصر . ألغى فيه الفوارق وسوى بين كل القاطنين بها من مصريين واغريق ويهود كما ألغى امتيازات الاغريق واعفاهم من ضريبة الروس . وفي عام ٢١٥ م . زار الامبراطور كاراكالا مصر . وقام أهالى الاسكندرية باستقباله بالسخرية فقتل شبابه وطرد كل المصريين منها . [وكان قانون المواطنة قد أعطاهم حق السكنى فيها] . وفى هذه الفترة وما بعدها ساءت أحوال مصر تماما ولم تعد سلة القمح التى كانت تطعم روما وبقيّة الامبراطورية الرومانية . وتولى حكم مصر حكام ضعاف وبلا شخصية . وأصبحت روما ترسل القمح إلى مصر من حصتها .

وفي عهد الامبراطور (ديقويس) (٢٤٩ م - ٢٥١ م) . أخذت المسيحية تنتشر في مصر إلا أن الامبراطور أجبر المسيحيين على تقديم القرابين باسمه في المعابد واحراق البخور . لأنه فوق مستوى البشر . وهذا يخالف التعاليم المسيحية . وعصاه المصريون . وحرضوا الحاكم الرومانى (أميليانوس) على التمرد والانفصال بمصر ونصبوه امبراطورا لمصر وما حولها من

الولايات الشرقية . فأرسل الامبراطور القائد الروماني تيودوس وهاجم الاسكندرية وأحرق مبانيها . لكن البلاد اجتاحتها وباء أودى بحياة المصريين ولم يبق بالاسكندرية سوى ثلث سكانها .

حكم زنوبيا

كان الحاكم الروماني جالينوس (٢٥٣ م - ٢٦٨ م) حاكما للاسكندرية منح المسيحيين لأول مرة حرية ممارسة شعائرتهم الدينية وسمح لهم أيام الأسقف ماكسيموس ببناء الكنائس ووقتها بنيت الكنيسة المعلقة في مصر القديمة . لكن الامبراطور دقلديانوس أجبرهم على التخلي عن ديانتهم وهدم كنائسهم . كما أجبرهم على تقديم القرابين في المعابد باسمه واطلاق البخور . ولاقى المسيحيون كل ألوان التعذيب والاضطهاد في عهده ولا سيما في عام ٢٨٤ م . الذي يعتبره المسيحيون عام شهداء المسيحية . وأيام هذا أرسل المصريون في خفية إلى الملكة زنوبيا ملكة مملكة تدمر (بالميرا) بالأردن لترسل ابنها (وهب اللات) وكانت ملكة عربية تعبد اللات والعزى . فأرسلته لتخليص مصر من نير الحكم الروماني واستقل ابنها بالاسكندرية إلا أن الامبراطور أورليان استردها بالمفاوضات . فهجر الفلاحون أراضيهم وتركوها بورا وكونوا عصابات لقطع الطرق والسطو . وفي عام ٢٦٧ م . حاول أحد الحكام الرومان الاستقلال بمصر وأعلن نفسه امبراطور الاسكندرية . وأتى الامبراطور من روما بنفسه وحاصر المدينة ثمانية شهور ، دمر معظمها . بعدها أصبحت مدينة هامشية لا وزن لها ضمن إطار الدولة الرومانية .

وتدهورت محاصيل مصر وقل القمح بها لدرجة أرسل لهم الامبراطور ديقليديانوس معونة قمح عاجلة من مخازن روما . ففرح بها المصريون ووفاء لهذا أقاموا باسمه عمود السواري (عمود بومبي) . وسبب هذه المجاعة وقلة المحاصيل أن الحكام الرومان كانوا يرفعون الضرائب يشتت الطرق لدرجة أن أحد الحكام ليرضى الامبراطور أرسل له ضعف خراج مصر من الضرائب فعزله قائلا: لقد أرسلتك لتجن صوف خرافي لا تسلخ جلودها . ولهذا كان الفلاحون يهجون من أراضيهم ويختفون عن السلطات . وأصبحت مصر منذ عهد الامبراطور كمودوس (قتل) عام ١٩٣ م . غير ملزمة بتوريد القمح لروما .

تاريخ الاسكندرية

كانت مدينة الاسكندرية كما خططها الاسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق . م . تعتبر نموذجاً معمارياً لكل المدن الاغريقية والرومانية التي شيدت بعدها على غرارها . فلقد شقت شوارعها لتكون عريضة . وكانت المدينة على شكل مستطيل على اللسان الذي حدده الاسكندر في جزيرة

فاروس القديمة . وأصبحت بعد قرن من بنائها أكبر مدينة في الدنيا وأجملها . بهرت الزوار بعظمتها واتساع هوارعها ومبانيها الرائعة التي كانت بمثابة تحف فنية ولا سيما قصورها المنيفة التي كانت تحتل ثلث مساحتها علاوة على المتحف الملكي الذي كان أكبر جامعة في العالم القديم وكان يضم مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي كان بها ٧٠٠ ألف كتاب . علاوة على الجمنيزيم (الاستاد الرياضي) الذي كان أكبر من استاد أثينا . وكان تمارس فيه الألعاب الاولمبية والمباريات الرياضية وكان يعتبر منظمة شبابية يتدرب فيها شباب الاغريق وقصره عليهم حتى ابان الحكم الروماني . وكان بالاسكندرية قصر المحكمة الكبرى والحدائق الواسعة في كل مكان والمسرح المدرج وأقواس النصر والبوابات الضخمة والفنار الذي كان أحد عجائب الدنيا السبع . والمعابد الاغريقية الكبيرة والمسلتان اللتان نقلتا إلي لندن ونيويورك . وكان بالاسكندرية جبلاية صناعية لها مدرج حلزوني يؤدي إلي ظهرها ليرى من فوقه الناظر المدينة كلها في كل اتجاه كسجادة جميلة موشاة ومزخرفة بألوان المدينة وحدائقها كأنها لوحة رسمها فنان وأبدع في رسمها ماماكان يلهب هذا المنظر وجدان الشعراء الاغريق الذين فتنتهم هذه المدينة بجمالها الخلاب .

وكان سكنى الاسكندرية أيام البطالمة والرومان من بعدهم قاصرة على من له حق المواطنة بها (الجنسية السكندرية) دون غيرها من المدن المصرية . وكان سكنها محروما على المصريين . فلهذا كان أهل مصرهم المصريين السكندريين وكانت هذه المواطنة السكندرية تعطى لأصحابها إمتيازات طبقية منها الاعفاء من الضرائب سواء إبان الحكم البطليموسى أو الحكم الرومانى . ولهذا كان سكنى الاسكندرية قاصرة على الاغريق وشاركهم الرومان عندما إحتلوا مصر . وكان الحصول على حق المواطنة في الاسكندرية قاصرا على الاغريق وخريجى الجمنيزيم من أبنائهم والرومان والعبيد الذين كانوا يعتقدون بأمر من الامبراطور في روما أو الذين يلتحقون بالخدمة في الحامية الرومانية العسكرية . وهؤلاء كانوا مجتمع الصفوة وبقية الشعب المصرى كانوا جماعة المصريين وكانوا يسمون بالفلاحين وكان عليهم دفع الضريبة كاملة وكانوا يعاقبون أيام البطالمة والرومان دون غيرهم .

والمصريون كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين بالإقامة فوق وطنهم ولهذا كانوا رعية كل حاكم لهم . فكانوا رعيا فرعون . ولما كان الامبراطور الذى يحكم بلادهم في روما كانوا يسمونه فرعون وكانوا يقدمون إليه القرايين في معابدهم ويطلقون فيها البخور تقديسا لى كانوا يسمون كل امبراطور أو ملك أجنبى حكمهم فرعون العظيم .

وكان عدد المصريين في القرن الأول حسب التعداد الرومانى حوالى سبعة ملايين ونصف . لكن الأويئة كانت تحصدهم . وكان المصريون يحددون نسلهم كرها في خريبة الروس التى كانوا يدفعونها على الأبناء والأطفال والنساء . لهذا كانوا يحددون الانجاب حتى لا تزيد عليهم الضرائب المجفة . وانتقلت عدوى عدم الانجاب من مصر إلى فلسطين وبرقة حيث تمثل اليهود هناك بهذه الفكرة المصرية . فكانوا لا يتجنبون الأبناء تهريا من خريبة اليهود التى فرضها الرومان عليهم وقتها . لهذا نجد المصريين أول من طبق فكرة تحديد النسل في العالم بتلقائية خرائبية ولهذا كان المصرى لا يعتبر الأبناء عزوة . وإذا كانوا يرسلونهم إلى الصفوة ليعملوا لديهم نظير لقماتهم فقط وحمايتهم من الظلم والبطش الذى يقع عليهم أيام الحكم الرومانى . لذا توارث المصريون المثل الشائع (إن فائك الميرى إتمرغ في ترابه) رغم أن العامل كان يعمل نظير الجراية وسخرة بلا أجر في الاقطاعات .

وكانت الرشاوى أيام قدماء المصريين والبطالة متفشية حتى الكهنة في المعابد لم يعتقوا الموتى وكانت عقيدة أوزيريس سائدة حتى أيام الرومان . وكان المصريون يعتقدون أنه رمز للعدالة وأنه سينزل أرواح كل المصريين بالريشة . ولهذا فميزان العدالة الذى يوضع فيه ريشة العدالة مأخوذ عن رمز العدالة لدى قدماء المصريين . ومفهوم العدل كان يتبلور في فكرة أن كفة روح أو قلب الميت تكون أخف من كفة الريشة التى توزن بها الأرواح بواسطة الاله أوزيريس . واستغل الكهنة هذا أيام العصرين البطليموس والرومانى . فروجوا فكرة بيع صكوك الميزان . فيدفع الميت إتاوة للكاهن ليجعل قلبه خفيفا في الميزان أو لتوضع له ريشة ثقيلة لترفع من كفته .

وكانت النولة الرومانية همزة الوصل بين مصر والعالم الغربى القديم . فانتقلت العقائد الدينية المصرية إلى أوروبا إبان العصر الرومانى . وانتشرت أسطورة أوزيريس وأناشيد الكهنة وفكرة حياة الخلود . وهذه العقائد إنتشرت لدرجة أنها وصلت إلى هولندا وإسكتلندا أيام الرومان واقتبس أباطرة روما من الفراعنة فكرة تأليه الملك . ففرضوها على الرومان حيث شيدت المعابد في روما للعبادة السياسية . فكان يذهب إليها الشخص ويقدم النذور ويحرق بها البخور لظهار ولأنه للإمبراطور الرومانى . وأقاموا المذابح فيها لهذا الغرض .

العصر البيزنطي

مع بداية القرن الرابع شهدت الامبراطورية الرومانية انحلالا قسمها إلى إمبراطوريتين هما الغربية في روما والشرقية في بيزنطة (القسطنطينية) . وكانت مصر قبل القرن الثالث تعاني القلق من الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين . ثم أخذت دولة الروم مع مطلع هذا القرن تتبع أسلوب تقييد الحريات للشعب المصري . ولا سيما عندما فرضت القسطنطينية عليه ما سمي بالاصلاح الديني . وكانت المسيحية قد بدأت تظهر في مصر وقتها . وفي عصر قسطنطين العظيم أصبحت مصر مسيحية ضمن الإطار العام للمسيحية في الدولة البيزنطية . وظل معظم المصريين على عقائدهم الفرعونية حتى القرن السادس كما يقول (أوليري) في كتابه (الفكر العربي ومكانته في التاريخ) حيث قال : أن المسيحية في روما وأفريقيا وبلاد الاغريق كانت أقلية محتقرة تتكون من الطبقة الأمية ولا سيما في الاسكندرية التي كانت فيما قبل مركزا للفلسفة الاغريقية القديمة التي كانت تتخذ من الفيثاغورثية أساسا لها .

ومنذ عهد البطالمة أصبحت اللغة الاغريقية هي اللغة الرسمية في مصر التي أصبحت فيما بعد اللغة الرسمية للدولة البيزنطية . أما اللغة المصرية القديمة فقد توارت طوال هذه القرون التي استعمرت فيها مصر .

والقبائل العربية طوال هذه الحقبة التاريخية كانت تنزح إلى مصر من شبه الجزيرة العربية والشام وفلسطين عبر سيناء . وكانت تنزل مصر أيام المواسم التي يشتد فيها القحط والجفاف سعيا وراء الماء والكلأ . وقد تصل هجراتها الموسمية إلى أقصى الصعيد أو إلى إقليم برقة بليبيا . وكانت هذه الهجرات الرعوية سائدة قبل الفتح الاسلامي وظلت بعده . وليس أصدق ما يقال تأكيدا لهذه الحقيقة التاريخية سوى تغريبة بنى هلال الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية بعد القحط . فسعوا وراء الماء والكلأ إلى أن وصلوا مارين بمصر حتى أقصى شمال أفريقيا . وكانت هذه الرحلة التغريبية رحلة قبيلة من كبريات القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية قد إجتاحتها القحط فهجت . ناهينا حول ما أضفى على هذه التغريبة من قصص أصبحت شبتا في تراثنا الشعبي تضاربت حولها السير والأقوال سواء في مصر أو شمال أفريقيا . لكن هذا التضارب لا يفقدنا القول بأن بنى هلال رحلوا ضمن ما ألفت عليه القبائل العربية الرحل . وهذه طبيعة المعيشة الرعوية لكل قبائل البدو سواء في شبه الجزيرة العربية أو أواسط آسيا . ولو طالعنا التاريخ

الفرعوني نجد أن سيدنا يوسف قد أتته قبائل الكنعانيين العرب ومن بينهم أبوه وإخوته عندما هبطوا مصر لما ألم بهم القحط واشتد . فاتوا ليحصلوا منها على مؤنهم .

وهذه الهجرات العربية أثرت على اللغة المصرية القديمة حتى أصبحت اللغة فرعونية مع خليط من العربية . ومن ثم ... نرى أن مصر قد أصبحت فرعونية عربية قبل مجيء الاسلام وشعبها - كما أجمع علماء الأجناس - هو خليط من الجنس السامي العربي والحامى الأفريقى . لهذا لما فتح العرب مصر وجدوا فيها عربا مصريين رحبوا بهم على عكس الفرس أو البيزنطيين أو اليونانيين الغزاة الذين لم تجمعهم بالمصريين هذه الخلفية العرقية أو الصلات التاريخية . ولهذا نرى مؤرخى الدولة البيزنطية يطلقون إسم (العرب البائدة) أو المعالقة على القبائل في مصر والحجاز والعراق منذ ١٥٠٠ ق م . وهذا المصطلح ما زال مؤرخو الغرب يطلقونه . وهذه القبائل العربية هى من أقدم القبائل . لهذا نجد (شارب) في كتابه (مصر تحت الحكم الرومانى) يؤكد هذه الحقيقة التاريخية بقوله عند وصفه للفتح الاسلامى بأن الأقباط المصريين وجدوا أملا في إخوتهم العرب المسلمين الذين هزموا الفرس والروم معا في فتوحاتهم . ويؤكد (شارب) على أن عرب شبه الجزيرة والشام وفلسطين والأردن ومصر كانت تربطهم روابط وجدانية . فلهذا تطلعوا إلى جيوش العرب على أنها جيوش الخلاص لهم من الحكم البيزنطى الجائر .

ومصر في القرن السابع (في عصر الفتح) كما يقول (بتر) ... كانت من أشقى بلدان الدولة الرومانية البيزنطية حيث انتشر بها قطاع الطرق والعصابات في الصعيد . وأصبحت البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب السياسى والأمنى . وهذا جعل المصريين تواقبن إلى ثورة على الحكم الذى فرض عليهم مذهبه الملكانى المسيحى عنوة . وكان المصريون أغلبهم من اليعاقبة . رغم أن المذهبين فى الأصل يتبعان المذهب الأورثوذكسى . لهذا ساد القبط الشعور بالكره للحكم البيزنطى ... فأصبحوا متحفزين ضده .

وكان الحاكم البيزنطى لمصر مقره بالاسكندرية ويتبع القسطنطينية . وكان يلقب بنائب الملك أو الامبراطور . وكانت وظيفته الأساسية هى إحكام السيطرة على مصر وجمع الضرائب بالارهاب والسخرة والجلد . وهذه الضرائب كان يتفق منها على الحملة البيزنطية في مصر وما تبقى يرسل إلى القسطنطينية ولا يتفق منها شيء على البلاد . ولهذا تدهورت أحوال مصر تماما . والبيزنطيون كانوا متعصبين لمذهبهم لهذا نجدهم شردوا الأقباط ومذبذبوهم وقتلوهم وسجنوا الالاف منهم حتى نجد شهداء الكنيسة القبطية كلهم شهداء الحكم البيزنطى المسيحى

والامبراطور حرم عليهم بنا مكنائس خاصة بهم وهدم معظمها ، والأديرة أصبحت مهجورة . كما منع أقباط مصر من الكتابة باللغة القبطية أو الصلاة بها لأنها ترمز إلي اليعاقبة .

وهناك خلط بين بيزنطة والقسطنطينية ولهذا وجب هنا التوضيح ولا سيما وأنه سيفيدنا فيما بعد عند حديثنا عن الدولة العثمانية . فبيزنطة كانت في الأصل ميناء أنشئ عام ٣٦٥٧ ق م ثم أقام على أطلالها الملك قسطنطين عام ٣٢٨ م . مدينته التي أطلق عليها القسطنطينية أو روما الجديدة . وأيام العثمانيين أطلق عليها الأستانة بعدما التهمت بالجزء الآسيوي . واتصلت بمدينة خلقونية . إلا أن أتاتورك أطلق عليها إستانبول بعدما جعل انقرة العاصمة لتركيا .

والقسطنطينية .. لم تكن تالوا جهدا في شن حملاتها التعسفية ضد الأقباط في مصر . فكانت تطلق جنودها عليهم وكان المصريون يلاقون هذا الاضطهاد المتلاحق والموسع بسلبيات وتقية فكان الأقباط يفرون إلي الصعيد ليختفوا فيه بعيدا عن الحكومة المركزية بالاسكندرية أو يعموا حرم الأقاليم . أو يختفون في القرى لهذا السبب . ورغم هذا كان الجنود يلحقون بهم ويلحقونهم بالتعذيب والتنكيل . وهذا ما جعل الأغلبية العظمى من القبط يتحولون إلي المذهب المملكانى الحاكم إثناء لشده .

حكم الفرس :

أرسل كسرى أنوشروان أيام حكم (هرقل) للقسطنطينية ... جيشه لغزو مصر والشام وفلسطين . وسانده اليهود هناك . وساعده على الاستيلاء على بيت المقدس . وذبح اليهود الآلاف من المسيحيين . وأسروا البطريرك زكريا بطريرك القدس وسلموه إلي الفرس . واشترى اليهود الآلاف من الأسرى المسيحيين ليتعمعوا بتعذيبهم وذبحهم وهتك أعراضهم . فهج الشوام والفلسطينيون إلي مصر لاقذين بها من هذا الهول الفارسي اليهودي . وفي عام ٦١٧ م . إستولى (شاه روز) على الاسكندرية وهدم الكنائس والأديرة والصوامع وهو في الطريق إليها . ولما دخل الفرس الاسكندرية وجدوها خاوية من البيزنطيين الذين فروا بحرا . إلا أن الفرس ذبحوا الأقباط وفيهم الرهبان الذين كانوا في صوامعهم يتعبون . ولم ينج سوى دير وادى التطرون لأنه لم يكن في طريق الغزو . كما قتلوا الأساقفة الذين كانوا في أديرتهم يعيشون وهذا ما أكدته (ملن) في كتابه (مصر تحت الحكم الرومانى) . حيث بين ما لاقاه البطريرك (أندرونيكوس) القبطى من أهوال الفرس بالاسكندرية . ولما هدم الفرس الكنائس والأديرة أرسل المصريون مفاتيحها إلي كسرى عام ٦١٨ م ورغم هذا سبى الفرس الآلاف منهم بمساعدة يهود مصر .

وحتى لا تخط الأمور ... نجد أن البيزنطيين الملكانيين كان لهم بطريك . والاقباط كان لهم بطريك . وكلا منهما كان مقره بالاسكندرية . إلا أن البطريك الملكاني فرقل دخول الفرس للاسكندرية . والمقرينى نجده يصف لنا دخول الفرس مصر بقوله : وأتوا إلي مصر (٦١٦ م - ٦٢٧ م) في طلبهم . فقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبباً لا يدخل تحت حصر . وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم . ولقد ذكر (أميلينو) في دراسته عن المسيحية بمصر بأن البطريك أرسل للكنائس الأبرشيات يقول لها : لقد تخلى الله عنا لذنوبنا . فأرسل لنا من الشعوب من لا يرحمنا . فنرى الفرس قد أقاموا عبادة النيران في مصر والشام وفلسطين . ولهذا أقاموا حصن بابليون (حصن الشمع) كمعبد للنار حتى يعد جلائهم ظل المصريون يوقنون به الشموع في قصره لهذا الغرض .

والفرس في غزوتهم هذه كانوا يدعون فيها إلي عبادة النار . وهذا يتضح لنا من رد كسرى على رسالة هيرقل إمبراطور الروم بقوله : قل لمولوك إن أرض الروم أرضى وما هو (يقصد هيرقل) الإعاصى ثائر وعبد أبلق . وإن يمنح السلام إلا بعد أن يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس . وهنا تيقن هرقل أن كسرى لم يأت طمعاً في جاء أو سلطان لكنه أتى ليفرض عقيدته المجوسية بالسيف الفارسي . ولهذا نراه يستعد لغزو روما للاستيلاء على كرسى البابوية هناك ليحطم كنائسها . إلا أن أسطوله أحرق . ولولا هذا لسطعت شمس المجوسية (شعار الفرس) فوق كنائس روما . ولهذا نجد الفرس يفرضون عقيدتهم على المصريين فيهرعون بوضع الشمس فوق واجهات الكنائس تقرباً إليهم .

وفي عام الهجرة النبوة الشريفة إستطاع الروم البيزنطيون إجلاء الفرس عام ٦٢٢ م . عن مصر والشام وبرقة وفلسطين . وغربت شمس المجوسية من مصر عام ٦٢٧ م . بعدها سطعت شمس الاسلام فوقها .

*

مصر الإسلامية

بعد جلاء الفرس عن مصر .. عاد قيرس (المقوقس) كنائب للإمبراطور البيزنطى ويطيريك للكنيسة الملكانية بالأسكندرية . وقد أتى بمذهب جديد معه بعد إنتصار هرقل على الفرس . فأخذ قيرس (المقوقس) يفرض مذهب هرقل الجديد على المصريين ملكانيين ووعاقبة . وكان شعاره إما مذهب الامبراطور الجديد أو الجلد حتى الموت . وأحس المصريون أنهم أمام خطر جديد فعارضوه . لكن هذه الفترة إتسمت بالقمع للأقباط حتى أطلقوا عليها (الاضطهاد العظيم) . وأخذوا يسبون (قيرس) وزيانته وقاوموا المذهب الجديد . ولما لاح الاسلام لهم تطلعوا إلي حكمه صابرين ولا سيما وأن الرسول قد أرسل رسالته التاريخية إلي (قيرس) (المقوقس) ما بين عامي (٦٢٧ / ٦٢٨ م) . ورد المقوقس على الرسالة ردا جميلا . وكانت مصر تنتظر موعدا مع الفتح الاسلامى

لقد كان تاريخ الفتح الاسلامى لغزا عمى على الكثيرين من الكتاب . والعق يقال أن أكبر إنصاف للمسلمين والفتح ما كتبه (بتر) في كتابه (فتح العرب لمصر) ترجمة محمد فريد أبو حديد وهذا الكتاب أنصف المصريين من مقولة أنهم كانوا يرحبون بالغزاة ولاسيما الفرس والرومان والافريق ، فنراه يؤكد أن الأقباط كانوا أمة متمسكة بدينها لهذا كانت تقف في مكانها على مذهبها اليعوقربى تاركة الصراع السياسى يدور من حولها في حلبة المتنافسين . لأنهم تعبدوا كلما تخلصوا من نير غاز - كما يقول أبو حديد - يوضع نير آخر على رقابهم . وأصدق وصف لتاريخ مصر ما قاله (بروكس) في كتابه بالامانية (العوايات البيزنطية) حيث قال : كان تاريخ مصر طوال عصورها أشد ظلمة وسوادا . لكن الكتاب الغربيين قالوا عن الشعب المصرى أنهم أمة تفتح ذراعيها لكل سيد وافد . ويقصون بهذا الفتح الاسلامى . وهذه المقولة خاطئة بل تشويه للحقيقة . لأن الأقباط لما رحبوا بالفتح - كما سبق أن قلت - إنما رحبوا به لأنهم وجدوا في العرب الفاتحين أخوة لهم . عايشوهم وعاشروهم وتبادلوا معهم تجارتهم . فعثمان وعمر بن العاص وغيرهما زاروا مصر وجابوا فيها أثناء قوافلهم في الصيف والشتاء . وهذه القوافل كانت تجارية . فالعرب أولاد عم المصريين وما حدث من حرارة إستقبالهم لهم هو نفسه ما حدث من عرب فلسطين والشام والأردن والحيرة بالعراق وليس هنا المجال للدفاع عن أقباط مصر أو المسلمين بقدر أن الحقيقة لا تنه . وما هو أت في هذا الكتاب أقوى وأبلغ . فالمطالع عن الحروب

الصليبية - فيما بعد - سيطالع أن الأقباط في مصر والشام وفلسطين ذاقوا الأمرين من هؤلاء الصليبيين الغزاة الذين أتوا وصلبانهم وشمّت على صدورهم وراقعين الصلبان بأيديهم . ورغم هذا شربوا مسيحي الشام وفلسطين ، وذبّحوا منهم المئات لدرجة أنهم هجوا ولاتوا بمصر فرارا من الجحيم الصليبي . ولهذا تراهم يحاربون متطوعين في الجيش الاسلامي لرد هؤلاء الغزاة وإجلالهم . والأقباط لا ينسون أن هؤلاء المسيحيين (اللاتين) رموهم بالكفر وهدموا كنائسهم وأديرتهم . وحرّموا عليهم دخول هذه الكنائس . كما منعهم من الدخول لبيت المقدس ليحجوا خشية أن ينجسوه ... هكذا إدعوا . وتتأسى مؤرخو الغرب ما كيلوه للأقباط أيام الحملات الصليبية ثم يتباكون عليهم في كتاباتهم عن الحكم الاسلامي لهم . وهذا اللبس في أقوالهم المفرضة والأراجيف التي يتقولون بها . جعلنى ألجأ إلي كتاباتهم لرد المطاعن ، ولم أستعن بما كتبه المؤرخون المسلمون ليس لعدم ثقة فيهم . لكنهم عندما أرخوا عصر الفتوحات الاسلامية إستقوا معلوماتهم مما كتبه مؤرخو القبط . لأن أول كتابة عن الفتوحات الاسلامية كانت للواقدي الذي ولد بعد قرن من هذه الفتوحات الاسلامية . ولم يبق مما كتبه إلا القليل . وبقية ما كتبه المؤرخون المسلمون عن هذه الفتوحات ظهرت بعد قرنين من الهجرة في القرن التاسع . وهي كتابات ابن قتيبة والبالاذري وإبن عبد ربه وإبن الحكم وغيرهم . ومعظم كتاباتهم عنها إما نقلا عن المصادر القبطية أو ثبّتا لروايات شفوية . حتى نجد أن البغدادى والمقرئى وإبن زولاق وغيرهم قد نقلوا عنهم فيما بعد لكن المعاصرين للأحداث والذين أرخوا لها كانوا مؤرخين من الأقباط أو البيزنطيين وكانت كتاباتهم بالقبطية أو الاغريقية . ومعظمهم متعصبون في كتاباتهم ضد الاسلام ورغم هذا نقلت عنهم حتى لا يكون هناك حجة بعد أقوالهم أو رجعة لانكارها . وليس هذا القول تعميما على كل ما كتبه المؤرخون المسلمون من أن كتاباتهم ليست موثقة أو محققة . فإذا كان فيها تضارب حول فترة الفتح الاسلامي لمصر لأنها - كما سبق وأن قلت - كتبت عن روايات مروية لم يعاصروها حتى يسجلوها . لكنهم عندما أرخوا عن عصرهم أرخوا بعنتهى الدقة التي عهدناها فيهم وعاهدتهم المستشرقون أيضا . فما كتبوه يعتبر عمدة التواريخ لأنهم عاصروا الحضارة الاسلامية فنونها في كتاباتهم . وإذا كان التاريخ له أنياب وأظافر كما يقول انيس منصور ... فالتاريخ - أيضا - قضاته وهم قضاة عدل لا يجنحون في أحكامهم ولا يسيرون مع الهوى وإلا فقدوا مصداقيتهم .

والمطالع لسير الأحداث التاريخية يجد أن أقباط فلسطين والشام قد هجوا أيام الفرس

وأيام الروم لمصر وإلى القبائل العربية في شمال الجزيرة وجنوب مصر في الصعيد . لكن لما دخل العرب هناك لم يهج اليهود والنصارى وظلوا بديارهم آمنين مطمئنين .

فتح مصر

تبدأ قصة فتح مصر عام ٦٣٩ م . عندما طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب أن يأذن له بفتح مصر بعد فتح الشام . وعمرو بن العاص كان قد زار مصر أثناء الجاهلية . وزار بالاسكندرية الملعب الكبير حيث كان الروم يلعبون به لعبة الكرة الذهبية . فمن كان يلقي الكرة بكفه قالوا أنه سيحكم مصر . فتلقفها عمرو بكفه واندحش الحاضرون وكذبوا النبوة والكرة . لأنهم لم يتصوروا أن هذا التاجر العربي الذي ولد إليهم من شبه الجزيرة سيحكم مصر في يوم من الأيام . وقالوا أن كرتهم هذه المرة قد كذبت عليهم . لكن مصر فعلا .. كانت على موعد مع عمرو بن العاص . ولهذا كان حرصه على السير إلى مصر أكثر من حرصه على نفسه . فسار غير أواب أو هياب . وتشاء الأقدار أن يحكم عمرو مصر مرتين .. مرة أيام الخليفة عمر حتى عزله عثمان عام ٢٧ هـ . والثانية أيام معاوية عام ٤١ هـ . وظل بها حتى مات عام ٤٣ هـ / ٦٦٢ م ودفن بالمقطم .

ولما فتح المسلمون (حصن بابليون) وجدوا الروم قد ذبحوا الأقباط فيه وقطعوا أيديهم وكان يوم الفتح يتوافق مع عيد الفصح . والمطالع لما كتبه المؤرخون الأقباط من هذه المذبحة يجدهم يقولون بأن (انتصار المسلمين كان عقابا من الله لما فعله الروم بالقبط في مصر) . ولا يهمنا من فتح الحصن سوى مقابلة عبادة الصامت الذي أرسله ابن العاص ليتفاوض مع قيرس (القوقس) . فسمع الحاضرون من الروم الأقباط مقالة عبادة من أن دينه يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما للمسلمين . وأشيع قول عبادة بين المصريين فعرفوا ما هو الاسلام . إلا أن البيزنطيين روجوا الشائعات عن المسلمين وأدعوا بأنهم يهدمون الكنائس والأديرة والببيع والصوامع ويقتلون النساء والأطفال والشيوخ . وتناسوا عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس الذي أمنهم فيه على كنانتهم وصلواتهم وأديرتهم وهذا العهد كفل فيه ابن الخطاب الحقوق للنصارى واليهود وأصبحت أصداءه تدوى في مصر .. وهذا أيضا .. ما سمعوه من عبادة .

وتوجه قيرس إلى القسطنطينية ليحصل على موافقة الامبراطور علي صلح الحصن إلا أنه عاد ومعه جيش كبير . وصلى يوم وصوله بالبطريركية الملكانية بالاسكندرية مدعيا أنه سيحارب المسلمين ويردهم . ووعد الجماهير المحتشدة من الروم بأنه سيحقق النصر . وفي اليوم التالي

توجه إلى حصن بابلليون (بمصر القديمة) سرا ووقع الاتفاقية بتسليم الحصن للمسلمين مع عمرو بن العاص عام ٦٤١ م وبعدها سلم مصر كلها لهم . وأعتبر ابن العاص أن فتحه لمصر كان صالحا وليس قتالا . وعلى هذا لا تعتبر غنيمة حرب . ولهذا فرض الجزية والخراج على أهلها .

عمرو يحكم مصر

يؤكد (بتر) أن (قيرس) قد أسلم كما أسلم معه قواده إلا أن عمرا خيرهم بأن يظلوا على دينهم بمصر ولهم الأمان أو يرحلوا إلى ديارهم أو يبقوا بمصر وهم مسلمون . فأتوا البقاء مسلمين . أما الأقباط فقد فرحوا بالصلح لأنه خلصهم من الكابوس البيزنطي الذي كان يطاردهم ويلاحقهم . وكان أملهم في أن الجزية والخراج في الاسلام أقل وطأة من ضرائب الروم . والمصريون عامة كما يقول (بتر) لم يكونوا مهتمين بمن سيحكمهم بقدر ما كان يهمهم ألا تمس أموالهم . وما هو ابن العاص يؤمنهم عليها وعلى كنائسهم وديارهم وحرمااتهم وأنفسهم .. وكان صادقاً معهم . وهذا الأسلوب كان جديداً عليهم فلم يعهده في السلف الحاكمين . وكقاعدة عامة أوردتها (تريتون) في كتابه (أهل الذمة في الاسلام) ترجمة حسن حبشي .. حيث بين أن النصارى في مصر والشام وفلسطين كانوا يفضلون العيش في ظل الحكم الاسلامي عن الحكم البيزنطي المسيحي . لأنه أكثر رحمة وعدلاً بهم .

وما يقال من أن ابن العاص قد أساء معاملة القبط في مصر يتنافى مع ما كتبه المستشرقون من أن الأقباط قد عاونوا العرب على فتح مصر وحاربوا معهم ولا سيما وأن ابن العاص في أول خطبة له بالفسطاط قال كما قال الرسول : سيفتح الله عليكم بعدى مصر فاستوصوا بأهلها خيراً . فان لكم منهم صهرا وذمة) . وقال - أيضا - : واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً . وهذا القول يؤكد أن الاسلام أتى مصر هاديا وليس جابيا ومعلما وليس مفسدا . وما هو عمرو بن العاص الفاتح يكتب للأقباط عهد أمان يطلق عليه في تاريخ الكنيسة القبطية (مهادنيا مين) إشارة إلى البطريرك مهادنيا مين القبطي الذي ظل متواريا ومشتتا ومختفيا عن أمين البيزنطيين حوالي ١٢ عاما ظلوا فيها يطاردونه من دير إلى دير للتثكيل به . فما هو ابن العاص يؤمنه علانية قائله : أينما كان بطريق القبط بونيا مين تعدد الحماية والأمان . ثم جاء بالعهد : خليات الشيخ البطريرق أمنا على نفسه وعلى القبط الذين بارخص مصر والذين في مساها . لا يتألم أذى ولا تخفر لهم ذمة . هذا هو الاسلام الذي حوله تافكون . وبعد هذا العهد خرج الرهبان من مخابئهم وخرج معهم الأساقفة للقائه عمرو بن العاص وتقديم الشكر له . وظهر

البطريق ليتولى البطريكية اليقونية (القيبطية) بالاسكندرية حتى أصبح بعد هذا العهد التاريخي الاقباط اخطبة الشعب المصري لأول مرة في تاريخهم . لان الكثيرين كانوا قد أعلنوا ملكايتهم خوفا من بطش السلطة الحاكمة . فلما أمدهم عمرو ارتدوا إلى قبطيتهم ، وأخذت الكنيسة القبطية تجدد كنائسها وأديرتها التي هدمها الفرس والروم . وما زال حتى اليوم على جذران الكنيسة المعلقة بمصر القديمة لوحة عليها عهد ابن العاص ويخطيه يتعهد فيها بحماية الكنيسة ولعن أي مسلم يمنع القبط منها .

وظل عهدا عمر بن الخطاب لأهل القدس وعمرو لأهل مصر وثيقتين يشهر بهما النصراني طوال ١٤ قرنا في وجه أي حاكم مسلم ، وهما بمثابة حقوق أعطيت لهم ولأول مرة في التاريخ الانساني كله يكتب فاتح على نفسه وثيقة للمفلولين يحافظ لهم فيها على حقوق منحها إليهم وهم صاغرون له . لكنه الاسلام الذي وصانا خيرا بأهل الكتاب . أبعد كل هذا يؤفك عن المسلمين والاسلام البهتان .

وعمر - كما يقول - فانز ليب في كتابه بالفرنسية (الرابطة الجديدة في رحلتى مصر) قال عنه بأنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب أو السلب . بل حمى الكنائس وحفظها حتى آخر يوم في حياته . أبعد كل هذا يقال أن المسلمين هدموا وأحرقوا وقتلوا وبددوا . ولم يبق لدى المستشرقين نقيسة إلا ألصقوها بالعرب عند فتحهم لمصر . ولو كان هكذا كما أشاعوا لما بقى أثر في مصر والشام وفارس والهند . لكن هذه الآثار التي أتخمت الآن متاحف الدنيا شاهدة على أن المسلمين كان مفهومهم واضحا ، وهو أن هناك فرقا بين صنم يعبد وصنم يقتنى ليحفظ . وأبو الهول قرينة تبدد كل ما قيل . وما هو (حنا النيقوني) بعد نصف قرن من الفتح الاسلامي ورغم تعصبه ضد الاسلام وهجومه عليه في كل كتاباته إلا أنه أكد حقيقة واحدة وهي أن المسلمين لم يفتصبوا أو ينهبوا أو يحطموا كنيسة واحدة قبل حانوا الكنائس وحموها . وهذه الحقائق أضعها أمام أجيالنا لتكون على بينة وحتى تزيل ما ران في الأذهان من أراجيف ملفقة .

أما فرية إحراق المسلمين لمكتبة الاسكندرية فما هو (ماتيه) في بحثه بالفرنسية وغيره من المؤرخين الثقات يجمعون بل يؤكدون أن المكتبة والمتحف الذي كان يضمها لم يكن لهما أثر حتى القرن الخامس بينما كان الفتح في القرن السابع . وما قيل عن مكتبة الاسكندرية قالوه عن مكتبات فارس وأدعى البعض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراقها لأن كتبها ليس بها إسم الله . وهذه كلها مفتريات لانعول عليها لأن التراث الفارسي والهندي ترجم بالكامل في العصر العباسي إلى العربية . ولولا هذه الترجمات لضاع التراث الهيليني والفارسي والسرياني رغم ما ينضح به من الكفر . فمن أين توارد إلينا التراث الذي ترجم معظمه للاتينية ؟ . لكن للمؤرخين المفرضين فيما يقولونه مطاعن .

مصر... ولاية عربية

لقد ظلت مصر ولاية إسلامية عربية منذ الفتح تابعة للمدينة أيام الخلفاء الراشدين ثم للكوفة أيام علي بن أبي طالب ثم لدمشق أيام العصر الأموي ثم لمكة أيام الخلافة الزبيرية ثم لدمشق ثانية ثم للكوفة وبغداد وسامراء أيام العباسيين . لكن منذ العصر الطولوني أصبحت إمارة مستقلة إداريا عن الدولة العباسية . وخاضعة لها دينيا وسياسيا حتى ظهور الخلافة الفاطمية ، فانفصلت مصر واستقلت تماما .

ومصر في عهد الولاة العرب كانت بعيدة عن الصراع الهرطقي المسيحي والخلافات المذهبية التي ظهرت في صدر الاسلام . ولم تدخل ضمن إطار الشعوبية الفارسية . وكانت موجات الخوارج أو الشيعة أو محنة خلق القرآن أيام المعتزلة ... تصل إلي مصر ضعيفة بلا تأثير واضح على المصريين . فكانت بمنأى عن هذا كله حتى وفد الفاطميون وأعلنوا شيعتهم . فأسسوا خلافة شيعية إسماعيلية بها . ولقد كان الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بمصر حريصين على الحفاظ على الكنيسة القبطية من التفسخ أو الإنقسام حيث كانوا يساندونهم في كل أزماتها . وهذا ساويرس في مجلداته (سير البطاقة) يؤكد هذه الحقيقة التاريخية ، فنراه يبين أن المسلمين والأقباط كانوا يقفون معا للصلاة والدعاء في أيام الشدة لازاحة الغمة عن البلاد . والمطالع لكتاب الكندي (الولاة والقضاة) سيجد أكثر من هذا . فما شكا بطريرك إلي وال شكوى إلا أنصفه فيها وحقق له مطالبه وأزره . وهذا الأسلوب كان متبعاً في عصر الولاة الذين كانوا يحاسبون المسلمين والأقباط لو أخطئوا . إلا إن مؤرخي الكنيسة القبطية وبعض المؤرخين المسلمين الذين نقلوا عنهم قالوا عن إحتكاك الولاة بالأقباط الفلاحين ، وتناسوا أنهم كانوا الأغلبية وقتها . وكانت شكواهم تنحصر في الجزية والخراج . كما نسوا جميعاً حقيقة وهي أن الدواوين ظلت لمدة قرنين من الفتح يتولاها بالكامل كتبة من الأقباط الذين كانوا يقدرّون الضرائب على المصريين . لأن العرب لم يكن تشغلهم أمور المحاسبة لأنهم بدو ليس لهم دراية بالشئون الادارية أو المكتبية . ولا سيما وأن لغة الدواوين كانت بالقبطية والاعريقية ولم يكونوا على علم بها . وها هو ساويرس نفسه يبين أن والي عبد الملك بن رفاعة (٩٦ هـ - ٩٩ هـ) لما تولى إكتشف أن الجباة الأقباط قد زوروا في حسابات الكنائس وتغاضوا عن محاسبتها سنين طويلة بل تساهلوا مع القساوسة وجابوهم . فالأقباط ظلموا أنفسهم . لأن الجباة كانوا يغالون في محاسبتهم ضرائبيا لتعويض

نقص فيما أخفوه من حسابات الكنائس والقساوسة وما كانوا يتهبونه لأنفسهم من أموال
لخراج بالذات لأن الجزية كانت مقدرة .

وفي عصر الولاة .. كانت الفسطاط حاضرة الولاية المصرية لكن البطريق ظل مقره بالاسكندرية
حتى بناء القاهرة عام ٩٦٩ م . حيث إنتقلت البطيركية أيام المعز لدين الله الفاطمي إليها .

والمصريون بعد الفتح تأكلوا مع العرب وساعدوهم في إنشاء دار الصناعة في الروضة
بذو الدار كانت ترسانة بحرية صنعوا فيها أول إسطول إسلامي حاربوا به البيزنطيين في خليج
عر إيجة باليونان . وانتصروا به في موقعة (ذات الصواري) على الاسطول البيزنطي الذي لم
ين يشرق له ماء . وحققوا أول إنتصار بحري للمسلمين في خلافة عثمان . وأحيا وال مصر عبد
له بن إيسى سرح صناعة السفن بمصر . وكون لمعاوية بدمشق إسطولا ثانيا كما أسس دار
صناعة بعكا بالشام .

والحقيقة يقال أن المصريين علموا العرب فن القتال البحري الذي لم يعرفوه في شبه
جزيرة العربية . لأن العرب محاربون في البر . وكانت صناعة السفن من الصناعات التي برع
بها المصريون . وكان الولاة كما قال (تريتون) ... يدفعون للعمال أجورهم في دار الصناعة ولم
يكونوا يعملون بالسخرة كما كانوا أيام البيزنطيين . وفي البرديات القبطية وجدت كشوفات فيها
سابات الأجور الشهرية والسنوية لعمال دار الصناعة التي كان الولاة العرب يدفعونها لهم
تنظام . وأكد حنا النيقوني في المجلة الفرنسية الآسيوية أن الجنود المصريين الذين حاربوا مع
مرو بن العاص في برقة قد أجزل لهم العطاء وأعفاهم من الجزية . والمطالع للبرديات اليونانية
لمتحف البريطاني يجد فيها كشوفات مدونة بها أسماء الجند الأقباط . هؤلاء كما يقول
أويرس قد إنخرطوا في الجندية إلا أنهم أسلموا . والمطالع إلي مجموعات البرديات القبطية
نصد بالقبطية أنها كتبت باللغة القبطية التي كانت اللغة الرسمية في مصر إبان عصر الولاة)
جد بها أن معظم أسماء الجنود المصرية كانت أسماءهم قبطية . فلر كانوا قد أسلموا فيما بعد
لهذه مسألة أخرى . لأن الانخراط في الجندية العربية كان تطوعا وليس إلزاميا . ولم تصبح
إامية للعرب إلا في عهد عبد الملك بن مروان الأموي .

وفي عصر الولاة لم تكن مصر بمعزل عن العالم العربي ولا سيما وأن التجار العرب
سعت تجارتهم مع المصريين . وكانت قوافلهم تصل إلي صعيد مصر ولا سيما في بلدة قفط
و كانت مركزا تجاريا . وكان يقطنها قبائل عربية نزحت إليها قبل الفتح الاسلامي .

والولاة في مصر كانت مهمتهم الأساسية الصلاة بالمسلمين جماعة والحفاظ على الأمر وتطبيق الشريعة وجمع الجزية والخراج . كما أنهم منعوا صناعة الخمر والجمعة في مصر . وظل هذه الصناعة محرمة في مصر حتى عصر المماليك .

مفهوم الجزية والخراج :

الجزية لا بد أن أتعرض إليها بالتفصيل لأنها أحد المطاعن الاستشراقية ضد الاسلام فالجزية هي ضريبة شخصية على كل رأس من بعض الذميين . أما الخراج فهو ضريبة مما تنتج الأرض . فكانت تحصل من المسلمين والأقباط على حد سواء . وكان المسلمون يدفعون علاوة على الخراج الزكاة والصدقة لبيت المال . وهما شرعا واجبتا الدفع .

والخراج كان يقدر حسب إنتاجية الأرض ومما تغله . عكس نظام الضرائب أيام البيزنطيين الذي كان يفرض أموالا على كل الأرض حتى الأراضى البوار . والضرائب في الإسلام أوجزها عمرو بن العاص عندما سأل صاحب ناحية إخوان عنها . فأجابهم عمرو بقوله : إنما أنتم خزائن لنا . إن كثر علينا كثرنا عليكم . وإن خففنا خففنا عنكم . وبهذا بين ابن العاص أن الضرائب مرهونة بالحالة السياسية والاقتصادية للبلاد . فلو واجهت حربا أو كوارث فوق طاقة بيت المال زادت الضرائب ولا ملجأ للوالى سوى الشعب ليعينه على تخطي الأزمة . وهذا أسلوب منطقي ومتبع في كل الدول . وهذا المعنى أورده المقرئى بقوله : إذا عمرت القرية وزاد أهلها زيد عليهم . وإذا خربت نقصت الجباية . ولهذا كانت المهمة الأساسية للجباة تقدير الزيادة أو النقص في الخراج . حسب ما كانوا يرونه على الواقع وحسب ما كانوا يقدرونه من محاصيل . فكان الخراج يزيد أو ينقص كل عام لهذا السبب . والولاة دائما ما كانوا يعفون الأقباط من جزء كبير من الخراج نظير الاتفاق منه على الكنائس وترميمها . وللانفاق على الحامات العامترصياتنها . وعلى المعديات وتشغيلها وبنائها . كما كان يخصم منه تكاليف الجنود في الاقليم . وهما هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى يأمر واليه في مصر بأن يوزع ما قاض من أموال في بيت المال على المصريين .

وهذا النظام الضرائبى الاسلامى كان أكثر واقعية ورأفة بالأقباط . حيث مكن المصريين [من رفع إنتاجية الأرض عكس نظام الضرائب البيزنطية التى كان يرسل معظمها إلى القسطنطينية] وما تبقى كان ينفق على الحامية العسكرية في مصر . ولم ينفق منها على شئون البلاد . فسأت أحوالها . لكن الخراج كان الولاة ينفقون منه عن سعة للإصلاحات والانشاءات بها . وما تبقى كان يرسل إلى بيت المال في عاصمة الخلافة . وكان الخراج يجمع مقسما عكس

الجزية . كانت تجمع مرة واحدة في العام قبل موعد الخراج .

وإذا كان المستشرقون يهاجمون نظام الجزية في الإسلام فنراها حسب الشريعة تفرض على الرجال الأحرار القادرين على العمل والتكسب . فأعلى منها العبيد حتى لا يكونوا عبثاً على مواليهم . والولاة في مصر تراهم قد أمفوا من الجزية النساء والأطفال والعبيد والمرضى والمقعدين والعميان والشيوخ والرهبان في أديرتهم . لأن هؤلاء جميعاً غير قادرين على العمل أو الإنتاج أو الكسب . وهذا النظام يخالف ما كان متبعاً أيام البيزنطيين الذين أجبروا الأقباط على ترك أراضيهم التي أصبحت كلها إقطاعيات للطبقة الحاكمة يعمل فيها كل المصريين الأقباط بالسخرة في مقابل تأمينهم وحمايتهم من التنكيل بهم أو التعذيب الذي كانوا يلاقونه من الجنود البيزنطيين فكانوا يعملون بهذه الإقطاعيات بلا أجر ليتفادوا هذا كله .

أما الجزية فكانت غير موحدة لأن الأغنياء كانوا يدفعون أكثر من متوسط الحال والذميون الفقراء كانوا - كما قلت - معفيين منها . والخلفاء قد تركوا مسألة تقديرها للولاة . والجزية كما قال المقرئ قد قلت كثيراً أيام الولاة لأن معظم الأقباط قد أسلموا . وكان تبعاً لهذا يرفع الخراج لتعويض النقص في الجزية . والعبيد كانوا معفيين منها ليقتلوا أنفسهم ويحرروا . وهذا شجعهم على العمل ليفكوا رقابهم دون أى معارضة من معتقيهم . فتمرر منهم الكثيرون لهذا السبب . ونرى الامام الشافعى في كتابه (الأم) قد أفتى قائلًا : إذا أخذت الجزية من ذمى إفتقر . كان الامام (الوالى) من القرماء . وأى عدل بعد هذا ؟ ؟ عندما أجمع الفقهاء على إسقاط الجزية عن الذمى الذى يتوفى ولا تحصل من ورثته أو من تركته حتى ولو كان غنيا . عكس الضرائب حالياً فتعتبر ديناً ممتازاً يحصل من التركة قبل توزيعها حتى لو إلتهمتها كلها . ولم يبق منها شيئاً للورثة ليقتاتوا منه .

والخراج كان ضريبة عينية مما تغله الأرض سواء أكان صاحبها مسلماً أم قبطياً . عكس الجزية التى كانت تدفع نقدياً ، كما كانت تدفع الزكاة والصدقة . وكان الدافع يحصل على منك ببراعة ذمته منها كل عام .

والمصدر الثالث من الضرائب كان المكوس .. وهى رسوم كان الولاة يحصلونها من التجار والصناع والباعة بالأسواق . وكانت تحصل من القوافل التجارية على الطرق .

وأصدق قول من الضرائب ما قاله (تريتون) في كتابه (أهل النمة في الإسلام) من أن لجباية للضرائب أيام عصر الولاة لم تكن بالقسوة التى تتصورها أو تصورها . لأن المصريين

كانوا في النظام الاسلامى العادل يجنون مخرجا للتهرب منها عند دفعها . فمن عادة المصريين كما يقول تريتون - التأخير والتراخى في دفعها والتحايل عليها بشتى الوسائل كما هو ثابت في أوراق البرديات القبطية . ولهذا نرى الفلاحين دائمي الشكوى منها . لانهم كما يقول (بلنت) في كتابه (الاحتلال السرى لانجلترا لمصر) يحبون إقتناء الأموال ويكرهون الانفاق منها . وأموال تؤخذ منهم تجعلهم يجأرون بالشكوى . ومعظم الفلاحين في عصر الولاة كانوا من الأقباء وقتها . عكس المسلمين الذين كانوا يدفعون الزكاة والصدقة وهم صاغرون . لانهم فرخ دينر وكانوا لهذا - أيضا - يقدمون الخراج لبيت المال وهم طائعون .

وفي أواخر عصر الولاة (٦٤١م - ٨٦٨م) أصبح الخراج والمكوس والجزية تخضع لعمليات تزوير وتلفيق في الحسابات قام بها الجباة القبط حتى أصبحت تخضع لعملية مساومات لانهم كانوا ينهبون ويحصلون منها على أجورهم . وهذا ما تنبه إليه أحمد بن طولون فتولى الاشراف على حسابات بيت المال بنفسه رغم أن عامل الخراج كان لا يتبع الوالى . ولكن تعيينه وتبعيته كانت للخلافة في المدينة أود مشق أو بغداد . وابن طولون في عهده إنتظمت الحسابات وخفضت الضرائب . وهذا ما سنتناوله فيما بعد . فنظام الضرائب في الاسلام لم يكن به عيب سوى قلة ذمة الجباة وعمال الخراج الذين كانوا ينهبونه ويسرقون منه . وليعوضوا ما نهبوه كانوا يغالون في تقديراتهم الجرافية على الفلاحين والتجار . وهذا ما تنبه إليه نابليون وكرومر وهما في مصر فضبطا المسألة . لهذا أصبح عهد ابن طولون وبعده بعدة قرون عهد كرومر في القرن الـ ١٩ عهدهى العصر الذهبى للفلاح المصرى حيث عم الرخاء البلاد .

وأنشأ عمرو بن العاص ديوان الجند في المدينة القسطنط . فسجل به أسماء كل جنوده وكان يقدم لهم العطايا (مرتبات) . وكان يصرف معاشات لأسر الشهداء منهم إبان الفتح لمصر . والولاة في مصر كما هو ثابت ... كانوا يتساهلون مع المصريين في تطبيق الشرع على المخالفين والعصاة . وكانوا يترأفون مع الأقباط بالذات حتى لا يضايقوهم . وكل المطاعن ضد الاسلام أو حكم الولاة أو الخلفاء ظهرت في القرن الثانى الهجرى . وهذا يدعونا إلى الشك في صحتها لأنها ظهرت كلها ضمن إطار المخطط الشيعى ضد الاسلام أيام الخلافة العباسية في بغداد . وليس صحيحا ما قيل أن الولاة وذهوا كل أراضى مصر على العرب الفاتحين . لأنه من الثابت أن كل ذى حق أخذه بلا نقصان . ولا سيما الأراضى التى إغتصبها البيزنطيون من الأقباط . والثابت أن أراضى الكنيسة القبطية والديرية قد ردت إليها بالكامل حتى نجد في حسابات الخراج التى دونها الكتبة الإقباط في عصر الولاة أنها تضم أراضى قبطية . والأراضى التى وُزمتها الولاة على العرب كانت لأراضى التى تمتلكها الدولة البيزنطية التى ظلت

لسنوات لا تفلح لأنها بلا صاحب، فلما اندمج العرب بالمصريين نزلت عليهم هذه الأراضي ليوزعوها ويمسروها بعدما اندمجوا مع المصريين وتزوجوا منهم، وهذه الأراضي كان عامل الخراج مسئولاً عن تأجيرها لهم لحساب بيت المال . والمطالع لما كتبه مؤرخو الأقباط يجد أن الأديرة عمرت وتضاعف دخلها مما تغله الأراضي التابعة لها . وهذا الرخاء لم تشهده من قبل . لكن الأقباط كانوا دائمي الشكوى كطبيعة المصريين . (وتريتون) نقلاً عن المؤرخين الأقباط تحدث في كتابه (أهل الذمة في الإسلام) عن ثورات الأقباط في سنوات ١٢١ هـ و ١٣٠ هـ و ١٣٢ هـ و ١٣٥ هـ و ١٥٦ هـ و ٢١١ هـ وأطلق عليها (سنوات الثورات القبطية) وبين أنها حدثت في بعض القرى الصغيرة بالصعيد والوجه البحري . وقام بها كما قال الفلاحون الأقباط احتجاجاً على المغالة في الضرائب والمطالع لهذه التواريخ يجد أن أغلبية الفلاحين كانوا من المسلمين سواء أكانوا هرباً أو أقباطاً قد أسلموا . وقد نقل (تريتون) هذه التواريخ من البرديات القبطية في المتحف البريطاني . فلكون أنها كتبت بالقبطية فهذا لا يضمن عليها أنها ثورات قبطية . لأن اللغة التي كانت سائدة وقتها هي اللغة القبطية . كما أن هذه الثورات كانت محصورة في عدة قرى صغيرة كما يتضح من أسمائها وهذا يدل على أنها حوادث محدودة ضد الجباة القبط الذين لم يتقوا الله فيهم . وقد خربت نهمهم كما أسلفت وقلت . وإذا كان ساويرس قد بين أن الوالي ما بين ٨١/ ٨٦ هـ . جمع من كل إقليم كل شخص لم تتجاوز مدة إقامته عشرين عاماً ورحله إلى موطنه الأصلي فكان سبب هذا أن مصر كانت وقتها ملزمة بتعمير بيت المقدس وبعض بلدان الشام وإنشاء إسطول بحري وكانت ملزمة - أيضاً - بدفع هذه النفقات بالكامل . مما جعلها تعاني من التضخم المالي الذي ألجأ الوالي إلى الضغط لزراعة الأراضي التي تركها العمال ورحلوا عنها . كما أن الجباة الأقباط استغلوا هذا الضغط على المصريين لتعويض ما ينهبونه منهم بمضاعفة الخراج . فزودوا في الدفاتر مستغلين جهل الولاة وعمال الخراج بلغاتهم . وعلى هذا لم يستطيعوا التزوير أو المغالة في الزكاة أو الصدقة لأنهما مقدرتان شرعاً فلم ترتفع على المسلمين ليس لمحاباتهم ولكن لصعوبة التلاعب فيها . أما الخراج فهو متغير وتقديره كان جزافياً للمسلمين والأقباط معا .

*

مصر المستقلة

ظهرت الدولة الأموية كخليفة عربية ما بين عامي ٦٦١ م و ٧٥٠ م في دمشق . وكانت تحتقر الموالي بما فيهم المصريين . ولهذا لم تكن تعتمد عليهم في إدارة شئون الولاية ولم تسند إليهم أى مناصب سوى شئون الكتابة في الدواوين والجباية . وكان لشدة تعصب الأمويين للعنصر العربى أنهم كانوا يعينون أئمة المساجد والقضاة من بين العرب ولم يولوا إمرة مصر لأموى مولى أو لمصرى مسلم . لكن الإمارة كانت قاصرة هي وإمرة الجيش بمصر على العرب الخالص ولم يلحقوا المصريين بالجيش الذى قصره على البدو الذين كانوا يرسلونهم . كما حرموا زواج أى مصرى مسلم من بنات البدو . لأن العرب في نظرهم خير شعوب أهل الأرض . لهذا جعلوا تجنيد البدو في جيوشهم إجباريا . بعدما كان التجنيد أيام الخلافة الراشدية إختياريا لأى مسلم يتطوع له .

وفي خلافة يزيد بن معاوية أعلن عبد الله بن الزبير عام ٦١ هـ . الخلافة الزبيرية في الحجاز وتبعته مصر وأجزاء من الشام . وكان الخوارج قد ساعدوه في إخضاع مصر لنفوذه . حيث تولى ولاية مصر الزبيرية عبد الله بن جحدم (من الخوارج) عام ٦٤ هـ . تابعا لخلافة ابن الزبير في مكة . ولما تولى الخليفة الأموى مروان بن الحكم (٦٤ هـ - ٦٦ هـ) أرسل ابنه عبد العزيز على رأس جيش وإسطول إلى مصر لاستعادة مصر من الخوارج وفصلها عن الخلافة في مكة . إلا أن الأمويين واجهوا مقاومة عنيفة من المصريين . وهذا ما جعل الخليفة مروان يأتى إليها بنفسه . ويتصالح معهم بعدما ذبح أنصار الزبيريين . وبعد ربع قرن ثار المصريون ثانية ضد الأمويين إبان ولاية قرة بن شريك (٩٠ هـ - ٩٦ هـ) . وكان معهم الخوارج إلا أن هذه الثورة أخمدت . وكانت نهاية الدولة الأموية على أيدي المصريين عندما لجأ إليهم الخليفة الأموى مروان الثانى عام ١٣٢ هـ . بعدما فر من العباسيين فوصل إلى مصر لائذا بها . لكن المصريين كانوا قد ضاقوا بالحكم الأموى الذى كان يرهقهم بالضرائب . لهذا انفضوا من حول مروان . وتطلعوا إلى العباسيين على أمل أنهم سيخلصونهم منها . وسيخففونها عليهم . ولا سيما وأن الصعيد والاسكندرية قد أعلنوا العصيان والتمرد ضد الأمويين . لهذا السبب قتل مروان في الصعيد . وأرسلت رأسه إلى العباسيين في الكوفة عاصمتهم الجديدة . وانتهت الدولة الأموية على أرض مصر .

وأيام الخلافة العباسية كان آخر وال عربي يحكمها هو عنيسة بن إسحق (٢٣٨ هـ - ٢٤٢ هـ) ، وفي خلافة المهدي العباسي (١٥٩ هـ - ١٦٩ هـ) انفصل الصعيد عن الخلافة العباسية حيث تحالف مع دحية بن مصعب (حفيد مروان الثاني) وكان الشيعة يساندونه للاستقلال بمصر . وقد كان إبن النفس الزكية قد أتى لمصر عام ١٤٥ هـ . أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٢٦ هـ - ١٥٨ هـ) . وقام بحركة في مصر إستهدفت ضمها لخلافة النفس الزكية بالحجاز وهي خلافة شيعية ، إلا أن أبا جعفر أخمدما وقتها . ولهذا نجد أن مصر لبعدا عن الخلافة في بغداد كانت موئلا خصبا لقلول الأمويين والشيعة الذين تحالفوا معا لضرب الخلافة العباسية فيها . وركزوا نشاطهم في الصعيد . فنجدهم يظهرين بثورتهم أيام حكم أحمد بن طولون عام ٢٥٤ هـ . مستغلين تمرد الجنود الأتراك ضد الخليفة العباسي المعتز . وأعلنوا تنظيمااتهم السرية هناك .

وفي عام ١٩٨ هـ . طرد الحكم بن هشام الأموي ١٥ ألف أندلسي من قرطبة لأنهم تمرروا عليه وثاروا ضده ، فوصلوا إلي الاسكندرية بنسائهم وأطفالهم ، واحتلوها وأعلنوا بها الولاية الأندلسية المستقلة عن الخلافة العباسية مستغلين الفتنة بين الأمين والمأمون في بغداد ، وأصبح الكنانى واليا لها عام ٢٠٠ هـ . وكانت مصر منقسمة إلي عدة أحزاب ضد المأمون . حيث كان المصريون يؤيدون الأمين . فاتاهم عبد الله بن طاهر قائد المأمون ومعه جيشه الذى جلا الأندلسيين إلي جزيرة كريت عام ٢١٢ هـ . وأخضع مصر لنفوذ المأمون . وفي عام ٢١٦ هـ . ثار الوجه البحرى وطرد عمال والى العباسى . وهذا جعل الأفشين يقد بقواته من ولاية برقة لآخمد الفتنة . لكنه لم يقو فاستنجد بالخليفة العباسي المأمون الذى جاء بنفسه على رأس جيش وظل عام ٢١٧ هـ بمصر ثلاثة شهور أخمد خلالها الثورة التى كانت بسبب الضرائب الفاحشة . ومنذ هذا التاريخ أصبحت مصر لأول مرة أغلبية مسلمة لأن كثيرا من الأقباط أسلموا . واختلط العرب بالمصريين ، وأخذوا يفلحون الأرض واندمجوا مع المصريين وتزوجوا بهم .

مسألة خلق القرآن

ظهرت فتنة مسألة (خلق القرآن) في بغداد أيام المأمون الخليفة العباسي التي أثارها المعتزلة في بغداد واحتدمت هناك . لكنها لم تظهر في مصر إلا مؤخرا في عهد المعتصم بالعباسي ، عندما أرسل كتابا إلي واليها كيدر بن نصر عام ٢١٨ هـ . حيث طلب منه أن يمتحن القاضي والفقهاء فيها في مسألة خلق القرآن وأقروا بها تعاويا للتنكيل بهم كما حدث لعلماء

بفداد . ولما تولى الواثق العباسي أمروا اليه بمصر كتابة عبارة (لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق) على واجهات المساجد . كما أمره بالتشدد مع المصريين في هذه المسألة . بعدها زج بالمصريين المعارضين في السجون . ولما أبطل المتوكل العباسي هذه البدعة قال المصريون : (الخلفاء ثلاثة . أبو بكر الصديق يوم الردة . وعمر بن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية (ضد الشيعة) . والمتوكل في إحيائه للسنة) .

وكانت سياسة العباسيين هي إقطاع الولايات الإسلامية لكبار القواد في نظير دفعهم الضرائب والخراج للخلافة . فالت ولاية مصر كإقطاعية ليارجوخ رئيس الجند في الخلافة أيام حكم المهتدي ، فعين زوج إبنته أحمد بن طولون نائبا له فيها ومنحه سلطانا كاملا عليها . وضم له ولاية الاسكندرية عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ هـ . وأصبحت القسطنطينية عاصمة لها . إلا أن ابن طولون أنشأ مدينة القطائع بقربها وجعلها العاصمة الجديدة .

جعفر أحمد بن طولون

كان أحمد بن طولون من أقوى الشخصيات السياسية التي حكمت مصر منذ عصر الولاة . لهذا نجده يتطلع إلي إنشاء جيش قوى له . فاستغل تمرد أحمد بن عيسى الشيباني حاكم ولاية فلسطين ضد الخلافة العباسية . حيث أنشق عن طاعة الخليفة المعتمد ولم يبايعه . فطلب ابن طولون من الخليفة السماح له بشراء العبيد من الأتراك والأحباش والسودانيين لتكوين جيش . لتأديب ابن الشيباني . فوافقه ولا سيما وأن الخلافة كانت قد ضعفت قوتها ، وفي تكوين ابن طولون لجيش قوى سيكون سنداً له . ولا سيما وأن الدولة البيزنطية باتت تهدد حدود الخلافة الشمالية . وحمله ابن طولون ضد الشيباني لم تتم لكن بقي لابن طولون جيش قوى دربه على طاعته والولاء له . ولما مات يارجوخ آلت مصر والاسكندرية وبرقة إلي جعفر العباسي . وأصبح ابن طولون نائبا عنه فيهم . وكان الخليفة المعتمد قد قسم إقطاعيات الخلافة على أخويه الموفق وجعفر الذي كان صغيرا تحت الوصاية . والموفق كان قائدا للجيش العباسي الذي قضى على ثورة الزنج هناك . بعدها أصبح أقوى شخصية في الخلافة ، ولا سيما أنه كان ولي العهد بها . وكان ابن طولون على بينة بشخصية الموفق . وكان الموفق على بينة بشخصية ابن طولون . لهذا دب بينهما الصراع فيما بعد .

ومصر إزدهرت في عهد أحمد بن طولون لأنه منع السلب والنهب من الخراج ، ولا سيما بعدما أخضع له عامل الخراج وكان يتبع الخلافة رأسا . ولم يكن للوالي سلطان عليه لأن مهمة

الولاية كانت تنحصر في إمامة الوالى للصلاة بالناس وحفظ الأمن بالبلاد . وكان الجند تابعاً له .
فلهذا كان عامل الخراج أقوى من الوالى . لأنه كان يعين من دار الخلافة . وكان هذا النظام متبعاً
منذ الفتح الاسلامى وهذا الأسلوب كان سبباً في تذمر المصريين من الخراج والمكوس .

وكان لمراقبة إبن طولون لمسألة الضرائب - كما يقول " كرونهام " في مجلداته (البرديات
العربية) - أكبر الأثر في مضاعفته حيث كان الخراج قبل حكم إبن طولون لا يتعدى ٨٠٠ ألف
دينار ، وفي عهده بلغ ٤ مليون و ٤٠٠ ألف دينار سنوياً . لأن سياسة إبن طولون كانت إستماعه
للمعظالم والبت فيها بالعدل . وحمل الفلاحين من ظلم الجباة الأقباط واستغلالهم وتزويرهم في
حساباتهم كما يقول (كرونهام) . وكان يقدم البذور للفلاحين ليزرعوها . فأصبح عهده بحق
عصراً ذهبياً للفلاح المصرى . وشهدت البلاد رخاء كبيراً لأن الفلاحين شعروا بالأمن والأمان
فضاعفوا من محاصيلهم . وساعدتهم أن البلاد لم تمر بها أزمات كالأربطة أو إنخفاض النيل إلا
في بعض السنوات ، ولم تتأثر فيها البلاد لاستقرار إقتصادها . كما كان للاستقرار السياسى
في الدولة الطولونية واهتمامها بالزراعة وتخفيضها للضرائب بدرجة ملحوظة قد جعل الخراج
يتضاعف كثيراً لقلة الأرض ووفرة محاصيلها . فكان المصريون يدفعون الضرائب عن طيب
خاطر . وهذا جعل الطولونيين يعمرون البلاد وينهضون بمرافقها . وإبن طولون علاوة على جيشه
القوى كون له أسطولاً بحرياً لحراسة الشواطئ المصرية والشامية ضد الهجمات البيزنطية على
الثغور . كما كان يؤدب به المدن الساحلية هناك وبهذا حقق الاستقرار السياسى ، ولا سيما
بعدما أخذ الثورات ضده التى قام بها الشيعة في الصعيد ، وقضى على هجمات مملكة النوبة
المسيحية في الجنوب .

وتطلع إبن طولون إلى ضم الشام إليه . فأعلن أنه سيحارب الدولة البيزنطية التى تهدد
حدود الخلافة العباسية عند أطراف الشام الشمالية ، وبهذا جعل الخليفة العباسى يوافقه .

ولا سيما أنه سيظهره أمام البيزنطيين كقوة رادعة لطماعهم ، ويتخلص من جيش إبن طولون
فى الوقت نفسه . وفي عام ٢٦٥ هـ . توجه إلى الشام ووصل إلى طرسوس على مشارف حدود
الدولة البيزنطية ، وكان قد خلف إبنه العباس نائباً عنه في مصر . إلا أن العباس تمرد على أبيه ،
فعاد أحمد بن طولون على مجل إلى مصر . وخلف إبن لؤلؤ نائباً له في الشام وحلب ، بعدها
هرب العباس إلى إقليم برقة بعدما نهب أموال بيت المال وقبض الجيش عليه وزج به في السجن
بعد جلده . وانشق إبن لؤلؤ على إبن طولون ومنع إرسال الخراج لمصر متحالفاً مع الموفق

العباسي ولي العهد . وهذا ما جعل ابن طولون يعود ثانية إلى الشام لاستعراض قوته أمام الخليفة المعتمد العباسي ، ويظهر له أنه حام للخلافة في مصر والشام وبرقة . وكان الخليفة يواجه قلقا في العاصمة سامراء فطلب منه ابن طولون الحضور إلى مصر قائلا له : إن خوفه على أمير المؤمنين منعه من الأكل والشراب والنوم . وطلب منه المجيء إلى مصر ليسترد عن الخلافة بعد إمتنانها ، ففيها ملاذه حيث لا يخشى شيئا . وحاول الخليفة الخروج لاجئا لمصر إلا أن قوات الموفق قبضت عليه عند حدود العراق . وأعيد إلى سامراء عام ٢٦٩ هـ . وحددت إقامته هناك . بعدها حاول الموفق عزل ابن طولون ، لكنه كان أقوى من الخلافة والخليفة معا . وفي دمشق بعدما جمع علماء مصر والشام الذين أفتوه ... أعلن فتواهم بعصيان الموفق وتمرده على الخليفة الذي بايعه على العهد والولاء له . وكتب القضاة كتابا كما يقول الكندي : في كتابه (الولاة والقضاة) قالوا فيه : أن أبا أحمد (الموفق) خلع الطاعة وبرىء من الذمة . فوجب جهاده على الأمة . وأخذ ابن طولون يشهر بالموفق بنشره هذه الوثيقة . فلما بلغ الموفق هذا أمر بلعن ابن طولون من فوق منابر العراق . إلا أن هذه الحملة الكلامية إنتهت بالصلح وفك أسر الخليفة . بعدها مات ابن طولون بالشام وخلفه خمارويه الذي زوج إبنته للخليفة العباسي المعتضد . وكان عرسها من أشهر عروس التاريخ . فلقد جهز خمارويه إبنته قطر الندى وسارت بموكبها إلى بغداد ومعا جهازها الذي كان تحفة صنعتها عمال مصر . ووصل موكب عرسها إلى بغداد بعد ستين يوما . بعدها أصبح العباسيون في وفاق وقوة بالطولونيين .

ويقال الحكم الطولوني بمدى إنجازاته . فأحمد ابن طولون أصله من الأتراك وكانت طموحاته كبيرة . فبنى مدينة القطائع بجوار القسطنطينية على غرار مدينة سامراء التي تبنى وعاش فيها . وكانت العاصمة للدولة العباسية . حتى جامع بني على غرار جامع سامراء بالفخار والمتنوعة الملوية (الملوية) .

الإخشيديون :

بعد الطولونيين حكم الأخشيديون مصر عام ٩٣٥ م . والأخشيد كان لقباً يتلقب به ملوك فرغانة بأقليم تركستان . وهذا اللقب خلعه عليه الخليفة أيام إنتصاراته ضمن جيش تكين الذي إنتصر على جيش عبيد الله الفاطمي قائد المهدي بشمال أفريقيا . ولما مات (علي بن أبي بكر محمد بن طنج) الملقب بالأخشيد أصبح العبد كافر وصيا على ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن على اللذين توليا ولاية مصر والشام من بعده . ثم تولى من بعدهما كافر الولاية ،

وسيرته مع المتنبي معروفة . وحاول الحمدانيون في حلب الاستيلاء على مصر لكن كافور ردهم .
كما حاول الفاطميون في شمال أفريقيا ، فلم يستطيعوا الاستيلاء على مصر إلا بعد وفاته ،
فقضوا على الدولة الاخشيدية عام ٩٦٩ م . لتصبح خلافة فاطمية لا تتبع الخلافة العباسية في
بغداد .

*

مصر خلافة شيعية

كان الشيعة يرصدون الضعف السياسى للدولة العباسية . فوجدوا فيه فرصتهم لاقامة خلافة شيعية بعيدا عن مناطق النفوذ والصراع التركى والفارسى . فاتجهوا بدعاتهم إلى شمال أفريقيا ليقيموا دولتهم العبيدية هناك . حيث أعلن أبو عبد الله المهدي الخلافة في أرض كتامة بالجزائر ولقب نفسه بالمهدي إشارة إلى ظهور المهدي المنتظر لدى الشيعة بعدها أطلق على دولته الدولة الفاطمية . وقد حاول المهدي غزو مصر عام ٩١٤ م . حيث إستولت قواته على الاسكندرية والفيوم . ثم حاول أبو القاسم الفاطمى الاستيلاء على الصعيد عام ٩٢١ م لكنه هزم . وفي عام ٩٦٩ م . وأرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلى لفتح مصر والقضاء على الدولة الاخشيدية بعد موت حاكمها كافور . واستولى عليها . ولما دخلها قام بإنشاء مدينة القاهرة وقطع الخطبة باسم الخليفة العباسى وبدا الخطباء للمعز من فوق المنابر . ومنع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين وضرب النقود باسم المعز . وأسقط من الأذان عبارة (حى على الفلاح) واستبدلها بالعبارة الشيعية (حى على خير العمل) . وأصبح الأذان شيعيا لأول مرة في مصر . وقام بإنشاء الجامع الأزهر ليكون مقرا لتدريس الدعوة الفاطمية الباطنية . كل هذا تم ما بين عامى (٩٦٩ م و ٩٧٠ م) . وأخذ الخطباء يسبون الصحابة من فوق المنابر أثناء خطبة الجمعة كما يقول ابن إياس . واستغل القرامطة التفسخ الذى آلت إليه الخلافة العباسية ولاسيما وأن الفاطميين قد أسقطوا دولة الأغالبة في شمال أفريقيا واستولوا على القيروان حاضرتها عام ٩٠٩ م . فنراهم يدهمون مصر عام ٩٧١ م . ويصلون إلى منطقة عين شمس ودارت بينهم وبين الفاطميين معركة . وكان قد إتضم إليهم قلول الأتراك الاخشيديين ومعهم بعض المصريين الذين ضاقوا ذراعا بأفعال الشيعة الفاطميين وساندتهم البدو بمصر كقبائل بنى عقيل وبنى طى . إلا أن جوهر غمرهم بذهب المعز فانفضوا عن القرامطة . فهزمهم وردهم . بعدها أعلن جوهر جائزة من الذهب لمن يأتية برأس الأعسم القرمطى زعيم الغزو . كل هذا حدث والمعز لم يكن قد وصل إلى الديار المصرية بعد . ولما وصل إلى القاهرة عام ٩٧١ م . أتاه القرامطة ومعهم قوات حسام بن الجراح صاحب الشام . وقد جاء طمعا في ذهب المعز الذى وعده به لو تخاذل عن القرامطة . وسلمه المعز أكياسا ملئت من أسفل بنحاس مذهب ومن فوقه بعض القطع الذهبية . وخالت خدعة المعز عليه . فانسحب بقواته أثناء المعركة تاركا القرامطة بنهزمون أمام الفاطميين ويفرون من مصر .

الخلافة الفاطمية بمصر

بعد إعلان الخلافة الفاطمية في مصر ... أصبح العالم الاسلامى يضم خلافة عباسية في بغداد وخلافة أموية في قرطبة بالأندلس وخلافة فاطمية في القاهرة . وبهذا إنقطعت روابط مصر بالخلافة العباسية ، وأصبحت خلافة مستقلة لها وزير يدير شئون البلاد (أول وزير كان يعقوب بن كلس وهو يهودى) . وحلت الضرائب محل الجزية والخراج ، واستعان المعز بالأقباط واليهود في جمعها .

والقاهرة المدينة الجديدة أطلق عليها المصريون أيام المعز إسم القلعة أو الطابية أو الحصن . واشتهرت فيما بعد باسم مصر المحروسة ، وأطلقوا على البلاد ديار مصر . وفي قاهرة المعز كان كل شيء ملكا للخليفة الفاطمى حتى الدكاكين والحمامات التى كانت تؤجر إيجارا شهريا . وبهذا حرم الفاطميون تملك المصريين لأي مبان في المدينة التى جعلوا بها قصورهم ودواوينهم وسكنها . كان قاصرا عليهم .

ومصر خلال العصر الفاطمى كانت مشتهرة بمنسوجاتها من الكتان واليااف النخيل والصوف . واشتهرت بالقباطى وهو نوع من النسيج المزخرف وكان هذا النوع من النسيج المزخرف تصنع منه كسوة الكعبة . وكانت مدن صناعة النسيج بمصر هي دمياط وتانيس وشطا واشتهرت هذه المدن الصناعية بالمنسوجات الكتانية والمقصية . وكان الصناع يصنعون قماش البلقمون المتغير الألوان مع تغير ضوء النهار . واشتهرت في العصر الفاطمى بالمنسوجات المطرزة التى كانت تصنع في دار الطرز الفاطمية حيث يصنع بها منسوجات الخليفة وحاشيته . من الصوف والحريز الذى كان يجلب لها من الهند والصين لتطريزه وتفصيله . وكانت هذه المنسوجات تزخرف بالأشرطة الزخرفية أو الكتانية . وكانت رمزا لشارة الخلافة الفاطمية أو الأيوبية أو المملوكية . وكانت مصر تستورد المنسوجات القطنية من الهند والصين لأن القطن وقتها كان لا يزرع في بر مصر .

فأيام الفاطميين كانت مجالس الشراب من المظاهر المألوفة في بلاط الدولة والقصور الفاطمية حيث كان الخلفاء الفاطميون يعقدونها ، وكانت الجوارى يغنين بها . وأول من اتبع هذا المعز لدين الله نفسه . وكان الحاكم بأمر الله يقيمها ثم حرمها بعد ذلك وأهدر النبيذ والخمر وألقى بها في النيل . وهدد تجارها بالقتل لو باعوها .

وعرف الفاطميون خيال الظل حيث كان يعرض في الأعياد والمواسم في الشوارع والميادين

وقد ظل خيال الظل بمثابة الاعلام للمصريين حيث كان المخيلون ينتقون الحكام ويعرضون سوء أحوال البلاد في شكل مسرحيات بدائية . وظل خيال الظل يمارس حتى عصر المماليك . وكان أداة نقد شعبية لازعة للمماليك وظلمهم . فكانت مسرحياته تعرض بطريقة ساخرة جعلت السلطان جيمقمق عام ١٤٥١ م . يمنعه إلا أنه ظهر في أواخر عصر المماليك وشاع في ديار مصر . ولما دخل سليم العثماني مصر اندهش عند رؤيته خيال الظل ولاسيما عندما عرض عليه المخيلون مسرحية شفق طومانباي على باب زويلة وكان يعيد عرض المسرحية عدة مرات وهو في حالة من النشوى . ولهذا أخذ معه خيال الظل إلى الأستانة ، وذهب المخيلون إلى هناك وعرضوا مسرحياتهم أمام حاشية السلطان سليم التي أعجبت بهذه العروض .

والفاطميون والحق يقال... لم يكرهوا المصريين على إعتناق مذهبهم الشيعي . بل تركوهم على مذهبهم السنن . لكن رغم هذا كان الأزهر مؤثلا للدعوة الاسماعيلية الشيعية . ومركزا للتدريس به لدعاته . لأن الفاطميين كانوا على ثقة لو أنهم تدخلوا في عقائد وتقاليد المصريين سوف يقضبهم هذا ويثيرهم . وهذا ما أكدته (ميردوت) من قبل حيث وصف المصريين بأن طبيعتهم هي التدين المفرط ، كما أكد هذا (لين) حيث بين بأنه ليس في أخلاقهم الأصلية ما يستحق الاهتمام مثل اعتزازهم بدينهم وهذا أدركه الفاطميون هذا افتماشوه .

والفاطميون إشتهروا بتسامحهم مع الذميين . ففي عهدهم نزح يهود الأندلس لمصر ، ونزلوا بالفسطاط مكونين جالية يهودية ، وأسسوا لهم مدرسة كان يدرس بها الوزير يعقوب بن كلس ، وتخرج منها موسى بن ميمون طبيب نور الدين الأيوبي . كما كان لابن كلس وضعه حيث إستوزره المعز والعزیز .

أوامر الحاكم بأمر الله :

الحاكم بأمر الله هو ثالث الخلفاء الفاطميين وأول من ولد منهم في القاهرة . وسيرته أصبحت لغزا تاريخيا ، لأنه كان يتسم بالانفصالية الشخصية ، ولهذا كان عهده مميزا ضمن الخلافة الفاطمية ولاسيما في الشئون الداخلية . فقد تولى سنة إحدى عشر عاما ، وكان الوزير برجوان وصيا عليه . ومات جوهر الصقلي في عهده . بعده إستولى على أمواله ومجوهراته . وقتل وزيره برجوان ونهب كتوزه وبعد مقتله تحول الحاكم إلى طاغية . وكان برجوان يكبح جماحه إلى حد ما .

والحاكم كان مريضاً بمرض إنفصام الشخصية ، فنراه يأمر اليهود بسكنى حارة زويلة يجبرهم على إعلان إسلامهم في يوم واحد ، ثم يعيدهم إلى يهود يتهم في ليلة واحدة ، ثم يهدم عابدهم ويعيد بناءها على نفقته . وفجأة أطلق مناديه محرماً أكل الزبيب والعسل الأسود لترمس والملوخية والبلح الرطب والسّمك الذى لا يقشر كالقرايط والثعابين . ومنع أكل القرع للملوخية كما أهرق أشجار العنب حتى لا يصنع من ثماره الزبيب . ونبه على الناس أن يناموا هاراً ويعملوا ليلاً ، ومن كان يخالف هذه الأوامر الحاكمة كان يعدم على باب زويلة . وأمر بكتابة سباب على المساجد للصحابة . وكان يبنى المساجد ثم يهدمها . ويبنى الزوايا للصوفية ويهدمها . أتهم ليدفنهم أحياء تحتها . وكان يمنح حاشيته الألقاب والمناصب ثم يسلبها منهم . وفرض على نصريين عند سماع اسمه في الخطبة الوقوف تعظيماً له حتى في المساجد . ومنع صلاة التراويح مدة عشر سنوات .

والحاكم كان صابئياً يعبد النجوم ، وادعى الربوبية حتى فرض على المصريّين عند رؤيته أن يقولوا (يا واحدياً أحد ، يا محى يا مميت) . ولهذا كان يبقر يطون قلعانه أمام مسجده ويلقى أحشائهم للكلاب أو يعفونهم ليبرهن أنه يحى ويميت . وكان يكره الغشاشين ، فلوحضبط تاجراً غش في سلعة أو وزن كان يقطع رقبتة جهاراً وفوراً ، ولما حدثت المجاعة الكبرى أيامه واشتد القحط وأخفى التجار الغلال سير مناديه في الأسواق بأنه سيصلى العصر في جامع راشد فوبعد الصلاة لومر في طريقه ولم يطأ حماره فوق القمع ، أو الدكاكين لا تعرض الغلال ، سيعدم كل من خالف . فتوفرت الغلال بالأسواق في ساعات وانخفض سعرها كثيراً ، وبغالى الصمّالون في جورهم مستغلين تكالب التجار على نقل غلالهم وعرضها حتى لا ينالهم سيف الحاكم . وعم الرخاء لبلاد . وكان يدعى الحاكم قراءة الغيب . لهذا كان أمراؤه يخشونه ، فكان يتجسس عليهم في بيوت مستعينا بنسوة عجائز يقمن بهذه المهمة في بيوتهم بتقصى أخبارهم من زوجاتهم لينقلنها لحاكم في قصره . ويكشفها أمام الملاء في إجتماعاته . وشاء قدر مصر أن يحكمها هذا المجنون ، ما جعل أخته ست الملك تتآمر ضده فقتلته لمخالفته الشرع ومحاوّلته التخلص منها . فسلطت عليه وأصبح مقتله لغزاً حتى اليوم بعدما حكم مصر ربع قرن .

وفي عهد المستنصر الفاطمي شهدت مصر الشدة المستنصرية التي كانت بسبب إنقطاع فيضان مدة ثمانى سنوات حتى بلغ القحط بمصر أقصى مداه . لدرجة كما يقول المقرئ من المستنصر باع جواهره ومقتنيات قصره من أجل الدقيق حتى بات ينام على الأرض ... وبلغ

الجوع بالناس درجة باتوا يأكلون فيها القطط والكلاب والخيول وجثث الموتى . وبعضهم ذبح أطفاله ليأكل لحمهم وهذه المجاعة جعلت امرأة تبني جومرة بألف دينار لشراء رغيف وقفت به أمام قصر الزمرد صارخة : ادعوا بالنصر لأمير المؤمنين المستنصر بالله الذي أكلنا الرغيف في أيامه بألف دينار . فسمعها الخليفة الجائع فأحضر وزيره وحاجبه وهددهما بالشنق إذا لم يظهر القمح بالأسواق . ولما خرجا من عنده وجدا بغلتيهما قد أجهز عليهما الناس ونبحوهما ليأكلوا لحومهما . فقاما بتهديد التجار والخبازين والطحانين بالشنق ، فتوفرت الغلال ورخص سعرها .

وفي عهد المستعلى الفاطمي (١٠٩٤ م - ١١٠١ م) إستولى السلاجقة الأتراك على دمشق وأجزاء من الشام وفلسطين ، وحكم الصليبيون بيت المقدس لأول مرة . والمستعلى لما تولى الخلافة كان أصغر أبناء المستنصر وهذا يتنافى مع الخط الشيعي الذي يقصر الخلافة (الامامة) على أكبر الأعقاب ، لكن الوزير الأفضل ولاه متخطيا نزارا الابن الأكبر مخالفا العقيدة الشيعية حول مفهوم الخلافة في الامامة وتوريث الأئمة . لهذا إنشق الفاطميون إلى جناحين أحدهما يقصر الامامة على نزار ، وأطلقوا على أنفسهم الاسماعيلية النزارية ، والآخرين ارتضوا بامامة المستعلى وأطلق عليهم الاسماعيلية المستعلية . ولهذا بعد المستعلى عارض الاسماعيلية النزارية في تولية الأمر بأحكام الله إبنه ، وأصر النزارية على تولية الحافظ بن نزار لأنه أحق بها . فبايع فريق الأمر وبايع آخرون الحافظ الذي ظل بالقاهرة . أما الأمر الذي تلقب بالامام الطيب ظل بالاسكندرية حيث سكت النقود هناك باسمه . وأصبح في مصر خليفتان فاطميان في وقت واحد . لكن الحافظ أغتيل وتولى إبنه . وكان عمره خمس سنوات وتلقب بالفائز بنصر الله ثم تلقب بعد ذلك بالملك الصالح رغم أن الفاطميين كانوا خلفاء وليسوا ملوكا . إلا أن عمته قتلتها وعمره عشر سنوات وتولى بعده إبن عمه العاضد بالله وكان عمره ١١ عاما وهو آخر الخلفاء الفاطميين حيث توفي عام ١١٨٠ م .

*

من ضعف الخلافة إلى قوة السلطنة

يرتبط وجود الصليبين في المشرق العربي بالدولة الفاطمية والسلطنة الأيوبية ثم المملوكية بعدهما . وقصتهم تبدأ عندما أعلن البابا (إربان الثاني) في خطبته المشهورة في ساحة (أوفريني) بمدينة كليرمون بفرنسا عام ١٠٩٥ م . أمام حشد من المجمع الديني الكاثوليكي شن حملة صليبية على فلسطين تحت راية الصليب بعدها إنهال مسيحيو أوروبا بالتطوع والتبرعات ، وتعتبر الحملات الصليبية بداية التجربة الاستعمارية الأوروبية للعالم الاسلامي . وهذه الحملات في حقيقتها مشروعات إستيطانية إستعمارية لاستعباد الشعب العربي في فلسطين والشام ومصر . كان المسلمون يعرفون هذه الحقيقة . لهذا نجد المؤرخين الذين عاصروا هذه الحملات سموها نزول الفرنج ولم ينسبوها للصليب أو الصليبية . ولم يربطوا بين هذه الحملات الاستعمارية وبين المسيحية لما شاهدهو وسمعوا به من إضطهاد الفرنجة للمسيحيين الأرثوذكس وتشريدهم لهم طردهم من بيت المقدس وتحطيم كنائسهم وأديرتهم وحرمو عليهم الحج أو التواجد في القدس . والكنيسة في الغرب كانت تسعى هذه الحملات بالحج التكفيرى للخطاة والعصاة والقتلة انضموا لها . لذا نجدها كانت تضم اللصوص وقطاع الطرق وسفلة أوروبا والفقراء الذين وجدوا فيها الخلاص من السخرة والقطع والاقطاع . وابتدعت الكنيسة للأغنياء سكوك الغفران . وكانت بيعها لهم لتمويل هذه الحملات . لهذا نجد أن الحملة الصليبية الأولى كانت تضم اللصوص القتلة الذين جاءوا ليتطهروا من آثامهم . بعدما إدعت الكنيسة أن كل من يذهب للقدس تغفر له كل ذنوبه وخطايا . وجعلت الحج التكفيرى فرضا على كل عاص خطاء أو قاتل . وأطلقت الكنيسة لى هؤلاء الحجاج (جند المسيح) . وبعدما رد ابن زنكى الصليبيين عن الرها جندت الكنيسة لعملة الثانية عام ١١٤٥ م . بعدها أعلن البابا أجينوس الثالث أن سكوك الغفران تباع لكل من ساهم فيها بالمال بدلا من الحج التكفيرى .

ومدينة القدس قبل الغزو الصليبي كانت تابعة للدولة الفاطمية التي كانت قد سهلت عملية الحج بوازع من التسامح الدينى ولم تكن على بينة بإبعاده الاستعمارية . وتضاعفت الرحلات ، أقامت للحجاج المنشآت لراحتهم على طريق الرحلة . لكن لما إستولى السلاجقة على بيت المقدس

قلت هذه الرحلات ، لهذا لما أتى الصليبيون ظن الفاطميون أنهم سوف يخلصونهم من النفوذ السلجوقي على بيت المقدس وسيحدون من هجمات السلاجقة المتلاحقة على حدود الشام . ففاوض بدر الدين الجمالي الصليبيين على تقسيم الشام فيما بينهم أيام حكم المستعلى . لكن هذه المفاوضات فشلت ولا سيما وأنهم كانوا يحاصرون مدينة أنطاكية عام ١٠٩٨ م . وتركها الفاطميون لمصيرها تكتاية في السلاجقة بعدها تقدم الصليبيون في فلسطين حتى وصلوا بيت المقدس عام ١٠٩٩ م . واستولوا عليه . وهناك قامت أكبر مذبحة حيث قتلوا الآلاف وذبخوا الأطفال والنساء والشيوخ والقساوسة ، وهدموا المساجد والكنائس ووضعوا الصليب فوق المسجد الأقصى . بعدها هج الأماشي من فلسطين والشام هربا من الهول الصليبي لمصر ، وحاول الأفضل بدر الجمالي استرداده لكنه فشل .

وكان لمجيء النازحين العرب إلى الأراضى المصرية وقع سيء لدى أهل مصر . فآخذ الأئمة في المساجد يدعون للجهاد المقدس وأخذت الكنائس تدمر إلى قتال الفرنجة . كما أخذت الدعوة لتحرير بيت المقدس تسرى في العالم الاسلامي . مما جعل جيوش الموصل ودمشق وسنجار تلحق بالصليبيين عام ١١١٣ م . الهزائم بقيادة موبد أتابك الموصل . لكن الحشاشين الاسماعيليين إغتالوه بعدما حقق انتصارات مذهلة هناك .

أما الدولة البيزنطية في القسطنطينية نراها تستنكر هذه الحملات الصليبية واتهمت روما بأن ما تقوم به هو عملية قتل جماعية للمسلمين والمسيحيين الشرقيين . لهذا نجد البابا أجينوس الثالث يعلن في روما بأن هدف هذه الحملات هو تخليص بيت المقدس من الكفار المسلمين ، ونشر المسيحية هناك .

وفي عام ١١٥٤ م . دخل ابن زنكى دمشق ووحد الجبهة الشرقية والشمالية من الشام وأصبح محور مقاومته يضم الموصل وحلب ودمشق . لمقاومة الحملة الصليبية الثانية بقيادة كونوراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس الثامن ملك فرنسا . كل هذه العمليات العسكرية والخلافة العباسية ببغداد متجاهلة هذا كله والخلافة الفاطمية بالقاهرة في نزاعها الأخير . والقاهرة كان يدور فيها نزاع حول الوزارة وهذا ما أغرى أمالوريك عمورى بغزو مصر عام ١١٦٣ م . فعبر خليج السويس قادما من بيت المقدس ثم وصل إلى بلبيس حيث فتحت عليه سدود النيل ، فأغرقت قواته فعاد .

والصراع كان على أشده في مصر حول الوزارة ما بين صرغام الذى خلع شاور منها

وتقولاها هو . وفرشاور إلى دمشق محرّضا نور الدين بن زنكى على الاستيلاء عليها . وما هو العاضد كان قد إستتجد لرد الصليبيين بآبن زنكى . مما أعطاه الفرصة للتدخل في شئون مصر . لكن الوزير ضرغام شعر بتآمر شاور مع إبن زنكى فاستتجد بالصليبيين لهمايته فحضر أماريك عمورى للمرة الثانية من القدس واستولى على شرق الدلتا لكن قوات إبن زنكى ردت به بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه إبن أخيه صلاح الدين الأيوبي . كل هذا والخليفة الفاطمى لا حول له بالقاهرة ولا قوة . واستولى أسد الدين على الوزارة وحرم ضرغام وشاور منها وولى إبن أخيه قيادة الجيش ورد الصليبيين عن مصر عام ١١٦٩ م .

حكم صلاح الدين :

في عام ١١٧١ م . كان صلاح الدين وزير العاضد . فمّنع الخطبة باسم الخليفة الفاطمى وأعلن الخطبة بجامع عمرو باسم الخليفة العباسى المستضىء بالله ، وأصبح صلاح الدين سلطان مصر التى أصبحت سنّية بعدما أسقط الدولة الفاطمية ومنع الخطبة بالجامع الأزهر حتى أعادها بعد حوالي مائة عام الظاهر بيبرس . وبهذا كان بداية السلطنة الأيوبية في مصر والشام وقلّسطين . ولا سيما بعد وفاة إبن زنكى بدمشق بعدها انتقلت الزعامة السياسية إلى القاهرة عام ١١٧٤ م . فوجد مصر صلاح الدين مع الشام عام ١١٧٥ م . وبدأ يدخل مع الصليبيين في حروب تحريرية . لهذا جند المصريين إجباريا في جيشه . وحاول (أرنو) في عام ١١٨٢ م . الاتجاه من الكوك لغزو الحرمين الشريفين بالحجاز لنهب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم . فضع أسطولا حملته إلى العقبة على الجمال سرا وجمعه هناك . واستولى على بعض جزر خليج العقبة ، وكان يريد حمل رفات المصطفى إلى بلاده ليعلن زيارته تظييرا رسوم يدفعها المسلمون . لكن صلاح الدين أرسل قواته بقيادة لؤلؤ الذى سبأ أرنوأتى به للقاهرة مكبلا مع رجاله وسار به في شوارعها .

وفي عام ١١٨٧ م . إنتصر صلاح الدين على الصليبيين في حطين واسترد بيت المقدس وجنّده ، ثم إستعاد معظم مدن الشام وكان لاستعادة المسلمين لبيت المقدس أثره القاسى على البابا (إربان الثالث) الذى مات عند سماعه النبأ ، بعدها فرضت البابوية الصيام على رعاياها كل يوم جمعة حزنا على يوم سقوطه وحرمت عليهم أكل اللحوم يومى السبت والأربعاء من كل أسبوع حزنا على القدس . وفرض البابا (كليمنت الثالث) ضريبة على أتباع كنيسة أطلق عليها مشهور صلاح الدين لتجهيز الحملة الصليبية الثالثة ما بين عامى ١١٨٩ و ١١٩١ م . بقيادة فردريك أمبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفليب أوجست ملك فرنسا لمحاربة

صلاح الدين إلا أنها إنتهت بعقد صلح الرملة بينه وبينهم لإبقاء الحال على ما هو عليه . وكان هذا الصلح عام ١١٩٢ م . بعدها بعام مات صلاح الدين ود فن بدمشق وكان قد قسم السلطنة بين أبنائه وأخيه في حياته . وبعد صرامة صلاح الدين نجد أن الفساد قد تفشى في السلطنة الأيوبية ولا سيما بعد الصراع الذى نشب بين أبنائه ومعهم ، وأصبح هم الأمراء الأيوبيين هو جمع المال بأي ثمن . لهذا أعانوا معاصر الخمر للعمل ليلا ونهارا حتى ارتفع سعر العنب ، وغلت الأسعار غلوا فاحشا ، ولم تشهد البلاد أي تطور عمرانى في عهدهم . لكن التجارة العالمية نشطت عبر الديار المصرية بعد صلح الرملة ، وازدهرت القوافل من المشرق ولا سيما وأن البحر الأحمر أصبح مؤمنا تماما من هجمات الصليبيين لعودة السيادة المصرية على خليج العقبة بعد عودة بيت المقدس لمصر . ولم يعد الصليبيون يفكرون في عودة بيت المقدس لهم لأن الروح الصليبية قد تبدلت من النخوة الدينية إلى النفعية الجارية ولا سيما لما استقر الفرنجة في سواحل فلسطين والشام ، وأقاموا في المدن الساحلية وأثروا أراضي الخصبة على صحراء فلسطين . فوجد التجار البنادقة أن الانفاق على إستعادته مضيعة لأموالهم بلا طائل . لهذا إتجهوا إلى دمياط والاسكندرية لممارسة تجاراتهم ووجدوا في الاستيلاء عليهما أكثر ربحية لهم من إسترداد بيت المقدس .

سهر والتجارة العالمية :

السلطنة الأيوبية في مصر بعد عام ١١٨٢ م . (بعد مغادرة صلاح الدين القاهرة) لم يصبح لها دور أساسى فيها بعدما كانت تدار منها . لأن الدور السياسى للقاهرة إنتقل معه للشام ولا سيما في عهود خلفاء صلاح الدين . لكن الفترة ما بين عامى ١١٩٦ م ، ١٢٥٠ م وكان السلاطين الأيوبيون قادرين على تسيير أمور مصر ، فاهتموا بالزراعة والحكم وحفظوا بها النظام وحققوا فيها شيئا من العدل . وفى عام ١٢٠٨ م سمح العادل ببعض التسهيلات التجارية للبنادقة (تجار فينيسيا) في مصر . لكنها توقفت بعد هجوم الصليبيين على دمياط عام ١٢١٩ م وظل الكساد يجتاح مصر حتى عام ١٢٣٨ م . بعده أعاد العادل الثانى هذه العلاقات التجارية للبنادقة وجعل المكوس على بضائعهم الواردة عبر الديار المصرية تعادل عشر قيمتها الشرائية . واهتمام التجار البنادقة في الاستيلاء على مصر نجده في الحملة الصليبية الرابعة التى مولها هؤلاء التجار عام ١٢٠١ م . حيث أوعزوا إلى البابا (أنوسنت الثالث) بشنها ، وساعده

فيها باسطولهم إلا أن هذه الحملة لم تتجه لمصر كما خطط لها . واتجهت إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية المسيحية واستولت على المدينة ونهبته قواتها ، وقتلت المسيحيين هناك . بعدها وأصل بعض الصليبيين بها سيرهم حتى وصلوا مملكة بيت المقدس التي كانت عاصمتها عكا وقتها . وانضموا مع قواتها وهاجموا رشيد من البحر ونزلوا بها وساروا في النيل حتى وصلوا مدينة فوة عام ١٢٠٤ م . أيام حكم السلطان العادل الذي استطاع بعدها عقد هدنة مع قائدها أمالوريك عموري مدتها خمس سنوات .

وخلال الفترة ما بين عامي ١٢٠١م و١٢٠٢م . إبان حكم السلطان العادل سيف الدين الأيوبي داهمت البلاد مجاعة قاسية سجلها المؤرخ عبد اللطيف البغدادي الذي عاصرها عندما كان يلقي دروسه في الجامع الأزهر ، فصورها تصويراً مأساوياً رهيباً حيث بلغت الشدة بها المصريين لدرجة باتوا يأكلون اللحوم البشرية ، والأبأ يقتلوا أطفالهم ويطبخوا الحومهم . وكان الأهل ينشبون القبور بحثاً على الطعام . ومما ساعد على إستفحالها مدامه وباء الطاعون لهم . فكان الآلاف منهم يتساقطون بالطرق وألأزقة حتى عزت الأكلان وقلت المؤن لأقوات لدرجة كما يقول (ستانلي لان بول) في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى من أن المجاعة كانت من الشدة لدرجة أنه في شهر واحد إنتقلت الملكية إلى أربعين ورثاً لأن الوراثة من كثرة الموتى كانت تنتقل بسرعة . وكان لانخفاض عدد السكان انخفضت إيجارات المساكن إلى سبع قيمتها .

لكن بعد هذه الشدة إزدهرت التجارة الدولية عبر الأراضي المصرية ولا سيما من البحر الأحمر حيث ميناء عيذاب (برنيس) على حدود مصر الجنوبية ويطل هناك عليه ... وأصبح هذا الميناء ميناء دولياً تغد إليه الواردات من الهند والشرق الأقصى لحملها إلى مينائي دمياط والاسكندرية اللذين إنتعشت بهما التجارة والتصدير إلى موانئ أوروبا ولا سيما إلى البندقية وجنوا بإيطاليا .

وأصبحت دمياط والاسكندرية تحتكران هذه التجارة مما جعلهما مركزين عالميين لها . وكان البنادقة وتجار جنوا يمارسون تجاراتهم فيهما ، وهذا جعلهم يجبرون البابا (أنوسنت الثالث) على تكوين الحملة الصليبية الخامسة لشن هجومها للإستيلاء على مصر ، ومولوها بالكامل بأموالهم وسفنهم ووصلت هذه القوات عام ١٢١٩ م . إلى دمياط واستولت عليها . وهذا جعل السلطان الكامل يفاوضهم على الجلاء في نظير أن يعطيهم الصليب المقدس الذي إستولى

عليه صلاح الدين بعد إسترداده للقدس عام ١١٨٧ م . مع التنازل للصليبيين عن بيت المقدس ومعه أرض الجليل وحطين وطبرية وصيدا واللاذقية إلا أن التجار الايطاليين رفضوا هذا العرض السخى ، وقد كان مندوب البابا ضمن هذه الحملة . قد قبله على الفور . فزحفت القوات الصليبية إلى فارسكور إلا أن القوات المصرية فتحت عليها السد هناك ، ففاضت مياه النيل وأغرقت الجند الصليبيين ومعداتهم وأسلحتهم . وكان الفيضان على أشده فهزهم النيل وردهم إلى دميد مدحورين تلاحقهم القوات المصرية ، وطردوا منها عام ١٢٢١ م . وبهذا إنتهت هذه الحملة . لا السلطان الكامل لشدة خوفه من الصليبيين وأضعفه إتجه إلى (فردريك الثاني) ملك بيت المقدس وطلب منه عقد هدنة لمدة عشر سنوات لا تصل فيها أى قوات صليبية لمصر في نظير إعطائه مدبر القدس وبيت لحم وطريق عكا المؤدى للقدس وقبة الصخرة . ورغم أن فردريك لم يكن له حول قوة ضمن إطار الحروب الصليبية إلا أنه قبلها . بعدما توج نفسه ملكا لبيت المقدس وجهه المقدس عاصمة مملكته بدلا من عكا .

وهذه الاتفاقية إعتبرتها الخلافة العباسية سبة للمسلمين . واستهجنها كل المؤرخين ومصرىيها . واعتبروا هذا تخاذلا من الكامل جلب به الذلة والمهانة للمسلمين . وفي عام ١٢٤٤ م كان ابن الكامل السلطان الصالح الأيوبي قد هجم على الصليبيين في غزة وقد إحتشسوا له فهزهم بينما كان الناصر الأيوبي حاكم الكرك قد استرد بيت المقدس في نفس العام . وأصبح عكا عاصمة مملكة القدس الصليبية للمرة الثانية .

ظهور المماليك:

كان الصالح أيوب سلطانا لا يثق في المصريين ولا البدو العرب ليضمهم في جيشه . لهذا كون نظام الحلقة التي كانت تضم حراسه من المماليك الذين جلبهم من أسواق النخاسة ومعظم كانوا من الأتراك . وجعلهم الصفوة المختارة عن بقية المماليك وأسكنهم في قلعة الروضة التي كانت تقع بحرى مدينة القسطنطين لهذا أطلق عليهم المماليك البحرية . هؤلاء قويت شوكتهم وسيما بعد وفاته وكان لقائدهم فارس الدين أقطاي نفوذه في السلطنة بعدما حققوا إنتصاره على لويس التاسع في المنصورة . حيث أتت الحملة الصليبية السادسة إلى دمياط عام ١٢٤٩ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا للثأر من المسلمين الذين إستردوا بيت المقدس . وكانت قواته أخرجت من مارسيلا بجنوب فرنسا . واتجهت إلى قبرص للحشد والاستعداد للهجوم على مصر

ونزلت قواته بدمياط واستولت على المدينة بلا مقاومة وقد كان أهلها قد هجروها لما رأوا مراكب الصليبيين . وخاف أفراد القوات الصليبية فلما منهم أن الأهالي تواروا للانقضاء عليهم . فتيقنوا بعدها من خلوها . لكن السلطان الصالح نجم الدين الأيوبي كان مريضا في معسكره بالمنصورة حيث كانت قواته تشن هجوما خاطفا على الفرنجة . وكان يدفع دينارا من الذهب لكل من يأتية برأس صليبي . وفجأة مات السلطان وأسرت زوجته شجرة الدر الخبر حتى لا تنهار القوات التي تواجه عدوا شرسا ، ونقلت جثمانه خفية للقاهرة لتجتر أحزانها بمفردها .

**

*

المماليك بناة حضارة

حكم مصر أربع نسوة هن حتشبسوت وكليوباترا وزنوبيا (ملكة تدمر) وآخرهن شجر الدر . وهى جارية مملوكية من أرمينية تزوجها السلطان الصالح نجم الدين الأيوبي . والتاريخ المصرى يذكر لها وقفتها بعد وفاة زوجها بالمنصورة حيث أخفت ببراعة وذكاء خبر الوفاة ونقلته سرا إلى القاهرة . ولم يعلم بالخبر مماليكه الذين كانوا يحاربون فى المنصورة وفارسكور ودمياط ضد الصليبيين الغزاة . وهذا التمويه يدل على قوة شخصيتها ولا سيما وأنه تم فى أهرج الأوقات وأشد المواقف خطورة على البلاد . وأرسلت سرا لاحتضار ابن السلطان الصالح من حصن كيفا بديار بكر ليتولى السلطنة . وظلت شجرة الدر تستقبل الوزراء وتعقد مجلس الديوان باسم السلطان المريض . كما كانت تجتمع بالقواد وتعطيهم تعليمات القتال وتصدر إليهم الأوامر باسمها موقعا عليها من عبدها سهيل الذى كان يقلد توقيع السلطان . وظلت تتابع المعارك منذ شهر نوفمبر عام ١٢٤٩ م . حتى شهر فبراير عام ١٢٥٠ م . إلى أن وصل ابن السلطان المعظم توران شاه من حصن كيفا وسلمته مقاليد السلطة . وانتصر المصريون ، ثم بعدها قتل توران شاه الذى لم يحكم سوى أيام .

شجر الدر

أجمع المماليك على تولية شجر الدر زوجة أستاذهم ، فتولت السلطنة عام ١٢٥٠ م . وأصبحت سلطنة مصر والشام . وفي عهدها تم الافراج عن لويس التاسع الذى أسر فى معركة المنصورة مع قواته . ووضعت نهاية الحملة الصليبية على مصر . ولم تقبل شجر الدر الافراج عن الملك الأسير ومعه أسراه نظير الفدية والجزية إلا بعد أن يتعهد بعدم العودة إلى مهاجمة السواحل المصرية والشامية وغيرها من ديار الاسلام لمدة عشر سنوات . وبالمقارنة بين معاهدة شجرة الدر ومعاهدة السلطان الكامل مع فردريك نجد عهدها كان عهد امرأة صانت فيه كرامة المسلمين فهناك فرق بين سلطنة أمة وبين سلطان حر .

أما شجر الدر فقد بايعها كل المماليك ، وكانت توقع على المراسيم باسم أم خليل أو والد خليل إشارة إلى ابنها خليل من السلطان الصالح الذى مات طفلا . وتعبيرا عن صلتها بالبيت الأيوبي . وأعلنت الخطبة باسمها فى مصر . وكان الخطباء يدعون لها بعد الدعاء إلى الخليفة

العباس المستنصر بالله ، والدعاء للسلطنة شجرة الدر كان نصه : واحفظ الله الجبهة الصالحية ملكة المسلمين . عصمة الدنيا والدين . ذات الحجاب الجميل والستر الجليل . والدة المرحوم خليل وزوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب .

واحتج الخليفة العباسي في بغداد على تولية امرأة سلطنة مصر . فأرسل رسولا لامراء المماليك يبلغهم على لسان الخليفة العباسي قائلا : إعلمونا إن كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة . فنحن نرسل لكم من يصلح لها . فلما بلغ هذا شجر الدر أحست بأن قصر الخلافة في بغداد يداره الدسائس ضد مصر حيث هناك من يطمع في ملكها . فوجدت أن في أبطالها من هو أحق ، لأنهم ذابوا وحاربوا وحققوا النصر على الأعداء . فتنازلت عن العرش إلى الأمير أيبك وهو مملوكي ، وكانت شجر الدر قد حكمت ثلاثة شهور إلا أياما . وتنازلت له بعدما تزوجته وطلق زوجته أم علي . إلا أنها قتلت بعد ذلك . وقبض ابنه الأمير على عليها وسلمها إلي أمه التي أمرت جواريتها عام ١٢٥٨ م . فحضرينها بالقباقيب حتى ماتت ورمينها من فوق سور القلعة وهي شبه عارية ، فسقطت في خندق بجوار السور وظلت جثتها ثلاثة أيام حتى دفنها ممالك السلطان الصالح في مقبرة بجواره .

وشجر الدر كانت سيدة حازمة وراجمة العقل لهذا أحبها المصريون ، لأنها كانت خيرة عليهم وعلى ممالكها الذين يكوها جميعا بعد مقتلها . وأصبح قبرها مزارا لهم يتبركون به . وشجرة الدر لما تنازلت لأيبك أشركت معه في السلطنة الأشرف موسى الأيوبي رغم أن عمره كان ست سنوات وراعت بهذا شعور آل أيوب إكراما لهم . فهدأوا لكن أيبك عزله عام ١٢٥٤ م . ونفاه إلى القسطنطينية بعدما انتصر على قوات المغيث عمر ابن العادل وحفيد الكامل الذي أتى من الشام بقواته التي مزمها أيبك عند العباسية بشرق الدلتا . وبهذا أحكم سلطته على السلطنة وأخضع المماليك له بعدما قتل الأمير أقطاي منافسه . لكن لما شق أيبك عصا الطاعة على شجرة الدر قتلت . وتولى بعده ابنه السلطان على أيبك وكان عمره ١٥ سنة ولقب بالمنصور وتعين الأمير قطز نائبا له . وكان مملوكا تركمانيا . وبهذا نرى أن السلطنة المصرية بدأت تحكم بواسطة المماليك وهؤلاء أصلهم من الرقيق البيض جلبهم تجار النخاسة من خوارزم وبلاد التركمان ومن شمال شرق القوقاز . وهؤلاء أتوا مصر أطفالا صغارا ، وتربوا في القلعة أحسن تربية وتربوا تدريبا عسكريا وتفقهوا في الدين وتعلموا العلوم السائدة وقتها . والمملوك لما يشب كان يتخرج من

مدرسة المماليك بالقلعة ويصبح أميراً مملوكاً بعد أن يقسم يمين الولاء للسلطان الأيوبي الذي يعتبره أستاذه . وكان المملوك بعد تخرجه يمنح أبعدياً من الأرض لينفق منها على معيشته ثم يتزوج . وهؤلاء المماليك كانوا فرسان السلطان وجنود السلطان الأيوبي . ولما ظهر حكم المماليك أصبحوا جنود السلطان المملوكي . لهذا نجد أن مفهوم الرق لا ينطبق عليهم لأنهم لم يكونوا رقيقاً سخرة لكنهم كانوا فرساناً أحراراً في النولة . وكان المماليك يبايعون السلطان الجديد بتقبيل الأرض تحت قدميه ، وعندما تولت شجرة الدر حضر مماليكها إلى القصر ليبايعوها . فقبلوا الأرض وهي خلف حجاب . والمماليك كانوا لا ينطقون باسم السلطان بل يقولون أستاذنا وابنه ابن (أستاذنا) .

وعهد السلطان المنصور كان كله كوارث ألت بالبلاد في مصر والحجاز { كانت بلاد الحجاز ثابتة لمصر وقتها } . ففي عام ١٢٦٠ م حدث زلزال مروع بالمدينة المنورة وتبعه بخمسة أيام بركان اشتهر بئار وادي شطا . وظهرت نيرانه وحمرته شرق المدينة المنورة في منطقة وادي شطا . وكان من شدة البركان أن رآه أهل البصرة بالعراق ، وشاهدوا نيرانه بوضوح . وظل البركان ثائراً لمدة شهر . وفي عهد المنصور إستولى هولاكو على بغداد لعلمه بضعف السلطنة المملوكية . واستقل هذا فاستولى على حلب وكانت تابعة لمصر .

المماليك والمغول

لما أحس بيبرس بالخطر المغولي عام ١٢٥٨ م . حيث إستولى هولاكو على بغداد وقضى على الخلافة العباسية هناك . سار بمماليكه نحو غزة ، وكان قطن قد تسلطن بعدما أفتى العلماء بعدم أهلية المنصور للحكم ، فعزلوه وولوا قطن . لهذا طلب بيبرس منه الأمان له ولقواته التي جاءت للإسهام في الحرب ضد المغول مع قوات قطن . وتشاء الأقدار أن يكتشف السلطان قطن كنزاً تحت مسلة المطرية ، فوجده كتلاً من النحاس والدنانير الذهبية (حوالي عشر آلاف أوقية ذهب) جهز بها جيشه . وكان عودة بيبرس فلاحسناً له . لهذا إستقبله إستقبالاً طيباً .

والمغول بقيادة هولاكو كانوا قد إستولوا على بغداد وأرض الجزيرة بالعراق وديار بكر . ثم اتجهوا من سمرقند إلى الجنوب واستولوا على شمال فارس وطوقوا العراق بعدما قضوا على طائفة الحشاشين (الاسماعيلية) في حصن ألا موت عام ١٢٥٧ م . كما استولوا على حلب ودمشق . والمغول نراهم قد جنتوا العلماء والقضاة في ديار المسلمين ليكونوا طابوراً خامساً لهم

ويخذلوا أهلها عن الحرب ضد الغزاة الوثنيين . وأخذ لويس التاسع أسير شجرة الدر بالمنصورة يساعدهم على الغزو للقضاء على الاسلام والمسلمين .

وجهن التجار بالقاهرة جيش مصر وسيروه بالأسلحة والعتاد والمؤن وتطوع به المصريون . وفي عين جالوت قرب بيسان إلتقى المصريون بقيادة قطز وبيبرس مع المغول عام ١٢٥٩ م . وانتصروا عليهم ويرجع الفضل في هذا الانتصار التاريخي الحاسم لبيبرس . بعده أقام السلطان قطز نصباً تذكاريًا تخليداً لهذه المعركة وانتصار قواته فيها وأطلق عليه (مشهد النصر) وشيد هذا النصب التذكاري فوق أرض المعركة .

وبات قطز يخشى بيبرس الذي نال شهرة تاريخية بعد إنتصاره . ولهذا لما دخل دمشق طلب منه بيبرس أن يوليها له فرفض . وكانا قد تعاهدا على هذا بعد الانتصار لتكون ولايتها له مكافأة له . لكن قطز رفض . فأسرها بيبرس في نفسه ، ولما كانا في طريق عودتهما للقاهرة اغتيل السلطان قطز قرب الصالحية عام ١٢٦٠ م . وهناك بايع المماليك بيبرس الذي أحضر القاضي سرا من القاهرة ليشهد على المبايعة بالسلطنة .

وكانت القاهرة قد إزيئت لاستقبال السلطان المظفر قطز ، لكن بيبرس السلطان الجديد أرسل مناديا إلى القاهرة لينجوب بشوارعها معلنا وقائلا : ترحموا على الملك المظفر (قطز) وادعوا سلطانكم الملك القاهر (ركن الدين بيبرس) . بعدها دخل السلطان بيبرس من باب النصر وتوجه إلي القلعة مقر السلطنة . لكن الوزير زين الدين بن يعقوب حذر السلطان القاهر من هذا اللقب قائلا : ما لقب به أحد فافلج . لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل مدته . وخلع من الخلافة وسحل . ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم . فقتاير بيبرس من لقبه القاهر وغيره بالظاهر . وابن يعقوب كان في الواقع يريد أن يثنيه عن هذا اللقب لأنه من أسماء الله الحسنى فردّه عنه بلطف ولباقة .

إحياء الخلافة العباسية :

تشاء الأتقدار في عام ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ . أن يقتل المستعصم العباسي في بغداد بعد سقوطها وهو الذي اعترض على تسلطن شجرة الدر التي تموت في نفس العام مقتولة أيضا . وبعده أصبحت مسألة إحياء الخلافة العباسية مسألة دعائية تكالب عليها كل الحكام المسلمين ليضفي كل منهم هالة على حكمه باحيائه لها في ملكه . ولهذا نرى الناصر يوسف الأيوبي صاحب

دمشق يسعى لحياتها هناك ، لكنه أخفق بعدما حاول تنصيب أحد العباسيين خليفة ، وحاول السلطان قطن لكنه قتل . ووات الفرصة الظاهر بيبرس عندما وصل إلى دمشق أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر العباسي ومعه البنو الذين شهدوا وأقروا بصحة نسبه أمام نائب صاحب دمشق علاء الدين البند قدار بيبرس الذي أرسل إلى الظاهر بالقاهرة بخبره . فطلب منه إحضاره إلى مصر وخرج الظاهر ومعه القضاة وأمرأء الممالك والأعيان والمشايخ ورؤساء القبط واليهود لاستقباله عند مشارف القاهرة . بعدما دخلوها جميعا في موكبهم حيث إستقبل الأهالي أبا القاسم العباسي إستقبالا لا نظير له . وتوجه الموكب إلى القلعة ، وكان هذا عام ١٢٦١ م . وهناك انعقد مجلس برئاسة قاضى القضاة الذى أشهد الحاضرين على صحة نسب أبى القاسم ، وأعلن خلافته . فبايعه الحاضرون بما فيهم نواب السلطان الظاهر بيبرس بمصر والشام . ثم قام الخليفة وقتل بيبرس السلطنة . وأصبحت الخطبة تلقى باسم الخليفة العباسي الجديد الذى لقب بالمستنصر . ودعا له فيها الخطباء على المنابر ، وبعده كانوا يدعون للسلطان الظاهر بيبرس . وهذا التقليد كان كسبا لبيبرس نفسه أمام آل أيوب الذين إدعوا أنه إغتصب السلطنة منهم . يل أكثر من هذا ما قاله النويرى في كتابه (نهاية الارب) من أن الخليفة قتل بيبرس مقاليد أمور حكم الولايات الاسلامية كلها . وما يضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ولما أطلنت الخلافة العباسية بالقاهرة ، وأصبح أول خليفة لها هو المستنصر بالله الذى تولاهما عام ١٢٦١ م . أقام بيبرس حفلا كبيرا بهذه المناسبة قرب المطرية دعا إليه أمرأء الممالك حيث خلع الخليفة عليه خلعة السلطنة . وهى عبارة عن جبة سوداء بطوق من الذهب وعمامة سوداء (شعار العباسيين) وسيف بداوى تمنطق به وفوق العمامة وضعت القبة والطير .

وبعد الاحتفال توجه الموكب ودخل من باب النصر وطاف بشوارع القاهرة إلى القلعة . وما هو بيبرس قد أصبح سلطانا على مصر والشام وديار بكر وما بين النهرين بشمال العراق واليمن والحجاز . وبدأ يشعر أن الخليفة قد أصبح قسيمة في الحكم . فأراد التخلص منه فأرسله على رأس جيش من الممالك إلى بغداد لتحريرها من المغول إلا أن الخليفة قتل وهو في الطريق . وعين خلفا له الحاكم بأمر الله عام ١٢٦٢ م . وجعله بالقاهرة تحت الرقابة بتحديد إقامته في منظر الكبش بعيدا عن القلعة وجرده من سلطانه . وأصدق وصف للخليفة العباسي ما قاله المقرئى : لا أمر له ولا نهى . وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين . وكان بيبرس يعتبر نفسه قسيم أمير المؤمنين .

فكان الخليفة العباسي مجرد دمية بالقاهرة في أيدي السلطان المملوكي .

السلطان بيبرس :

كانت قصة بيبرس مع الصليبيين في عام ١٢٦٣ م . عندما قام بهجوم موسع عليهم وكان الامير (هيو) الأنطاكي في قبرص يهيم دائما لنجبتهم ، ثم قام بتوحيد مملكة القدس و قبرص في تاج واحد لهذا هاجم بيبرس قبرص عام ١٢٧٠ م . بأسطوله بقيادة ابن حسون الذي قام بدهان سفنه بالقار ثم علق عليها الصلبان لخداع القبارصة . لكن الاسطول المصري تعرض لعاصفة شديدة عند ميناء ليما سول القبرصى فانقلبت مراكبه وانكشف أمره . فعادت لمصر ما بقى منه من مراكب . بعدها أرسل (هيو الأنطاكي) رسالة لبيبرس يشمت فيها منه لتحطيم أسطوله . (وكان بيبرس وقتها قد استولى من الصليبيين على حصن القرين) . فرد عليه الظاهر بيبرس قائلا كما يقول المقرئ : وما العجب وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح . وفي عام ١٢٧١ م . استطاع عقد هدنة مع الصليبيين ترك لهم ثلاثة مدن ساحلية فقط هي عكا وحيدا وطرابلس وقد حصرهم فيها . وتعاهد مع النولة البيزنطية على عدم الاعتداء للتفرغ لمحاربة المغول التتار الذين باتوا يهدونه أيضا . ثم اتجه إلي بغداد عام ١٢٧١م وحررها من المغول وأعلن بها عودة الخلافة العباسية ونصب بها خليفة وأخذ يظهر جيوب المغول في العراق .

ومات بيبرس عام ١٢٧٧ م بعدما دبر مصر والعالم العربي من هجمات الصليبيين والمغول والبيزنطيين . ويعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية المماليك كما يطلق عليها كتاب الغرب لأنها حكمت مصر والشام والحجاز واليمن وشمال العراق لأكثر من قرنين ونصف حتى أن جاء العثمانيون عام ١٥١٧ م . ولقد كان بيبرس قائدا ملهما وسياسيا بارعا وكانت نظريته في الحكم (ما يؤخذ سلما أخذه . وما يؤخذ حربا حارب بشجاعة) . لهذا كان يستغل الظروف السياسية بذكاء . فيكيف سياسته حسب ما تتيج له هذه الظروف . فلما دب الخلاف بين المغول بعد إسلام (بركة خان) أمبراطور المغول القفجاق الذين كانوا يقطنون بين بحر قزوين ونهر الفولجا . استغل بيبرس هؤلاء المغول المسلمين فهبوا للانتقام من هولاكو لحرقة بغداد واستيلائه على الشام وديار المسلمين . لهذا ترى بيبرس يتحالف معهم ويتزوج إبنة بركة نفسه ويسمح للمغول المسلمين بالمدح إلى مصر ليعيشوا بالقاهرة . وهذه المصاهرة جعلت بركة خان يحارب هولاكو . بعدها تفرغ بيبرس للصليبيين الذين حصرهم في شريط ساحلي في فلسطين بعدما طلبوا منه مراحم السلطان . وهم لم يرحموا المسلمين لحظة واحدة . وهذه الانتصارات البيبرسية جعلت من الظاهر

أسطورة شعبية يروى سيرتها القصاصون والأدبائية في كل عصر وأوان . وخلف الظاهر بيبرس ابنه الأكبر ، وهو ابنه من الخاتون بركة خان . وألقب بالملك السعيد نصير الدين بركة خان . وكان عمره ١٩ عاما فسيطرت عليه أمه الخاتون حتى أصبح العوبة في يديها . فأهملت قواد أبيه وسجنت بعضهم وسُمت البعض الآخر وهذا ما جعل المماليك يتمردون عليه وعلى أمه ، فحاصروا القلعة وعزلوه ونفوه إلى قلعة الكرك حتى مات ودفن بجوار أبيه بدمشق عام ١٢٨٠ م . وولى المماليك ابن بيبرس الصغير وكان عمره سبع سنوات وولاه الأمير قلاوون وتلقب بالعادل بدر الدين سلامش . وظل قلاوون أتابك العسكر وصيا عليه لمدة مائة يوم عزله بعدها . ليتولى السلطنة عام ١٢٧٩ م . وكان أكثر حظا من أستاذه بيبرس لأن السلطنة توارثها بيته لأكثر من مائة عام بعد وفاته عام ١٢٩٠ م . وقد حاول المغول عام ١٢٨١ م . الاستيلاء على الشام مستغلين التمرد على قلاوون هناك . لكنه هزم المغول قرب حمص وكانوا بقيادة (مانجوتيمور) شقيق الخان المغولي . وبهذا بعد عن الخطر من جهة المغول ، ووطد علاقاته بكل العالم الخارجى حتى سيلان التى أرسل إمبراطورها سفارة ومعها خطاب لم يستطع أحد بالقاهرة قراءته أو ترجمته ما جاء به . وشجع قلاوون التجارة الدولية عبر الأراضى المصرية . وفي عام ١٢٨٥ م . بات يسترد بقية المدن العربية من الصليبيين ثم استولى على أرمينية . وشن حملتين على النوبة ما بين عامي ١٢٨٧ و ١٢٨٩ م . فبهذا حافظ على هيبة السلطنة .

وأيام عصر المماليك ... كانت أرض مصر مملوكة لهم وموزعة بين أمرائهم وجنودهم . وكان يطلق على هذا النظام (الروك) السلطاني . ومن كان منهم لا يقوى على مباشرة أبعديته كان يمنح راقبا من بيت المال تعويضا له عن الأرض . وكان الروك يتغير مع تغيير السلطان حيث كان السلطان الجديد يعيد فيه توزيع الأرض على حاشيته وأتباعه .

والمماليك أثناء حكمهم أمنوا طرق القوافل العالمية التى كانت تمر بسلطنتهم ، وكانت الحروب تنور بينهم وبين الصليبيين في الشام ورغم هذه الحروب كان الطرفان حريصين على عدم تعرضهما للقوافل التجارية . وكان العرب يعمرون بها من خلال معسكرات الصليبيين دون التعرض لها بسوء بل كانوا يحافظون على سلامتها حتى لا يفضبوا تجار البندقية وجنوا الذين كانوا يمولون حروبهم . فلم يضروهم في قوافلهم التجارية التى كانت تقود إلى مصر . لهذا نجد القاهرة كما يقول الدكتور سعيد عاشور أستاذ التاريخ قد (غدت ثقل السياسة العالمية في عصر سلاطين المماليك ومحور العلاقات بين العالمين الاسلامي وغير الاسلامي . وكانت القاهرة عاصمة

المال حيث كانت تحدد فيها أسعار العملات والسلع والغلات ذات القيمة العالمية سواء من حاصلات في الشرق أو انتاج الغرب) . ولهذا نجد القاهرة كانت سوق للتجارة وكان الدينار المصرى هو العملة الدولية للتجارة وقتها . وأصبحت مصر بعد سقوط بغداد مركز الحضارة والقوة العسكرية الاسلامية طوال العصر المملوكى .

وكانت بلاد الشام تابعة لمصر فى العصر المملوكى حتى العصر العثمانى . وكان السفر إليها يبدأ من مدينة دمياط التى كانت تعتبر مدينة حرة لا يخرج منها الشخص إلا بعد دفع الخراج الذى كان يعطى منك به للمسافر يقدمه إلى نقاط الحراسة للسماح له بالمرور أو يوضع له علامة مميزة على ذراعه تفيد الدفع وتعتبر كجواز للمرور . وكان يوجد بين العريش ودمياط ديوان التفتيش وكان يعتبر منطقة جمركية حيث يقوم العمال به بتفتيش الأمتعة والبضائع التى كانوا يحصلون المكوس عليها من المسافرين ، ويمنحونهم صكاً بها يجيز لهم المرور على النقاط التالية على طريق رحلتهم إلى الديار الفلسطينية والشامية . والمالك لتشجيع التجارة الدولية أعفوا الأجانب من الضرائب . وكانت نقاط التفتيش تدقق في هوية المسافرين ، حتى لا يندس بينهم مغول أو صليبيون . لأن أجزاء من الشام كانت محتلة أو مهددة من المغول والصليبيين . لكن معظمه كان يتبع السلطنة المملوكية بالقاهرة حيث كان حكامه نواباً للسلطان وكان نائب دمشق يتبعه أمراء حلب وطرابلس واللاذقية .

أما بلاد الحجاز فكانت تابعة لمصر وكان اليمن تحت حكم بنى رسول يخضع لنفوذ المالك وكان بنو رسول يتبعهم ظفار وحضر موت وتهامة وعدن ، وهذه كانت بلدان تمر بها التجارة العالمية إلى البحر الأحمر ، لهذا كان المالك يرسلون إلى أهلها الهدايا ليسترضوهم وليؤمنوا القوافل التجارية عبر مياههم الإقليمية . لذا كان السلاطين على علاقة طيبة بملوك اليمن وزعماء القبائل هناك . ولا سيما وأن التجارة ازدهرت أيام المالك الذين كانوا يحظون باحترام المشرق الاسلامى حتى حدود الصين . وهذا الازدهار الاقتصادى جعل التجار الأجانب يفدون إلى الاسكندرية ودمياط ويفتحون وكالات تجارية ويكونون جاليات هناك ، بعدما هدأت الحروب الصليبية بعدما استولى السلطان المملوكى أشرف خليل عام ١٢٩١ م . على مدينة عكا آخر معاقل الصليبيين . لكن البنادقة حاولوا إحتكار التجارة الدولية . فنراهم في عام ١٣٥٤ م أيام حكم السلطان شعبان يرسلون أسطول القبارصة ، فشن غاراته على رشيد وأبو قير والاسكندرية أيام الفيضان حتى لا تتأذى قوات المالك وتحاربهم ولا سيما وأن المدن الثلاثة كانت تعزلها مياه

ونهب القبارصة الاسكندرية ونهبوا أهلها وأحرقوا مساجدها ونهبوها . وفي عام ١٣٦٥ م حاول أسطول البنادقة معاودة الهجوم ففشل ، لكن السلطان أشرف برسبای شن حملاته على قبرص بأسطوله في أعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ م . وأخر حملة مصرية أسرت ملكها وعادت به مكبلا إلى القاهرة وسيّره في شوارعها . وكان الملك هو جانوس الثانى الذى كان يهدد سواحل مصر ويغير عليها . وبهذا استطاع برسبای أن يؤمن طرق القوافل التجارية في البحرين الأبيض والأحمر ومنع السطو عليها في اليمن والحجاز . لكن ارتفاع المكوس والضرائب على البضائع (الترانزيت) عبر الموانئ والطرق المصرية رفع من السعر العالمى لها . وهذا أدى بالبنادقة إلى قطع علاقاتهم التجارية مع مصر . فلما لجأ برسبای خطر الكساد الاقتصادى كما يقول الدكتور جسين مؤنس الذى بات يهدد موارده كفى من الاحتكار . وخفض المكوس وأطلق التجارة لكنه عاد فرفعها فكدت ثانية .

الجزارة المملوكية :

يمتاز العصر المملوكى بالعمارة التى عرفت بالعمارة المملوكية في مصر والشام وفلسطين . ومازالت مدارسهم ومساجدهم وأسبلتهم نموذجا لقن عمارتهم وشاهدا حيا على عظمتهم . وفي فترات سلاطينهم الضعاف كثرت المؤامرات بخلع أو قتل هؤلاء السلاطين . مما أضعف السلطنة وخط من نهضتها . فالأمير الأقوى كان بمماليكه يملك ويحكم ويعين حوله أهل الثقة متفاضيا عن أهل الخبرة . وهذا المفهوم السياسى لا يبعث أمة ولا يقيم حضارة . لأن أهل الثقة بلا كفاءة أو خبرة يجرون الخراب للبلاد ويفسدون أحوالها . فلذا كانت السلطنة في عهدهم نهبا ونهبها لحكام الأقاليم ونواب السلطان في ولايات الشام . وهذا جر السلاطين إلى الصراعات مع أمرائهم الذين كانوا يوالون من يدفع أكثر أو الأقوى سلطانا ونفوذا . فساعت أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية والإدارية . فلم يهتم المماليك سوى بما يحقق أطماعهم أو يكفل وجودهم وتسلطهم أو يبقى على سلطانهم ونفوذهم وهيبته بين أبناء جنسهم . وفي غيبة حكم السلاطين العظام أصبح المماليك لا هم لهم سوى تحقيق مصالحهم الشخصية وزيادة نفوذهم وإملاكهم . وانصرفوا عن الفروسية والحروب وأخذوا يمارسون التجارة فحققوا ثورات ضخمة حتى كان بعض الأمراء أكثر غنى من السلطان نفسه . فنجد أن بيت يلغا (منظره الكيش) كان يفوق قصر السلطان بالقلعة . فبعد خلع السلطان حسن عام ١٣٥١ م . وموته عام ١٣٥٤ م . انتبه إلى هذه الحقيقة فقرر كما قال ابن تغريردى تكوين جيشه من

المصريين . فأمر كثيرا منهم على المماليك قائلا : مصلحة لى والرعية والبلاد . فأما مصلحتى فانهم لا يخرجون عن طاعتي . ومتى أراؤا ذلك نهاهم أقاربهم وحواشيهم عن ذلك خوفا على أملاكهم وأرزاقهم . بخلاف المماليك فانهم لا رأسمال لهم في مملكة من المماليك . لكن يلبغا لم يمهله المماليك ليحقق حلمه فقتل عام ١٣٦١ م .

والعلاقة بين المصريين والمماليك وصفها ابن خلدون في (العبر) حيث بين أن من أسباب اضطراب أحوال مصر هو طغيان هؤلاء الأجلاب وكثرة عبثهم وتجاوزهم عن الشريعة . وكان العامة في كثير من الأحيان يقفون لهم بالمرصاد ويؤازرون السلطان . وكان المماليك يخشون ثورة المصريين الذين كانوا مؤيدين ومساندين للسلطان الأشرف شعبان ضد المماليك اليلبغاوية فقبضوا على يلبغا وسجنوه .

والسلطين المماليك أول من تلقبوا بلقب (خادم الحرمين الشريفين) وقلدهم السلطان سليم العثماني بعدما فتح مصر وقبض على الخليفة العباسي بها . وأخذه معه للأستانة . وتبعه في حمل هذا اللقب سلاطين العثمانيين بعدما آلت إليهم بلاد الحجاز وبعد القضاء على الحكم المملوكي هناك .

وبنظرة عامة على أحوال مصر الثقافية في العصر المملوكي . فبعد إحراق مكتبة بغداد وسقوط الخلافة العباسية أصبحت مصر تضطلع بمسئولية إحياء الثقافة الاسلامية والحفاظ على التراث الفكري الاسلامي . فظهرت في العصر المملوكي الموسوعات الجامعة حيث جمع فيها كتابها كل العلوم التي كانت في كتب بغداد حتى لا تندثر . فظهرت كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة (الموسوعات الثقافية والدراسات الموضوعية) كصحيح الأعشى ونهاية الارب ولسان العرب . وهذه الموسوعات المملوكية اتسمت بطريقة مصرية تختلف في كتابتها عن طريقة علماء بغداد . فالكتاب المصريون إعتنوا في كتاباتهم بالموضوع وقسموا الكتاب إلى أبواب وفصول وأطراف ومذاهب وجعلوا لكل مذهب وجوهه . هكذا قال الدكتور حمزة في مقدمة عرضه لكتاب (صحيح الأعشى) للقلقشندي . وهذا المنهج في الكتابة يختلف عن منهج بغداد حيث كانت الكتب بها تجميعا لأشياء ومعلومات من هنا وهناك . ولا يوجد بينها روابط فكرية أو حتى موضوعية أو على حد تعبير الدكتور حمزة (بنيت على الفوضى) . لهذا ظهر في العصر المملوكي أعلام فطاحل ومؤرخون من الثقات أمثال العسقلاني وابن خلدون والقلقشندي والأسنوي والنويري والسخاوي والمقرئزي وابن إياس والسيوطي وغيرهم . ومع هؤلاء أعلام الشام حيث كان خاضعا للحكم

الملوكى . وهؤلاء لم تترجم أعمالهم إلى اللاتينية لتوقف حركة ترجمة التراث الإسلامى فى الغرب ، ولوحقوا عصر الترجمة الأوربية لنالوا شهرة ابن سينا وابن رشد والغزالى والبيرونى .
والقصر السلطانى كان يضم ديوان الإنشاء يقوم بكتابة الرسائل السلطانية ويقوم المترجمون به بترجمة الرسائل الواردة من الدول الاجنبية والرد عليها . وكان الديوان يقوم بكتابة تصوص المعاهدات والمهادنات ومراجعتها من الناحية الشرعية حتى لا تتعارض مع الشريعة وأحكام الدين ، وكان البريد السلطانى يتبع ديوان الانشاء وكان يشرف على أبراج الحمام الزاجل ومحطات الحمام على الطرق السلطانية . وكان يقوم بحفظ الرسائل والمكاتبات الرسمية .
والقاهرة أيام المماليك كانت مقسمة إلى حارات بكل حارة بوابة عليها بواب وخفير للحراسة وكان لكل حارة شيخ لفض المنازعات فيها . والصمامات العامة كانت منتشرة فى أحيائها وبعضها كان ملحقا بالمساجد . أما أسواق القاهرة فالبضائع كانت تصلها من مصر القديمة أو روض الفرج بالمرابك لتتنقلها الجمال على ظهرها إلى الأسواق . وكانت وسيلة الانتقال داخل شوارع القاهرة بالحمير وكانت وكالاتها منتشرة حول الأسواق وفى مداخلها . وكانت توجد مواقف إنتظار الحمير فى كل الأحياء لتأجيرها . والتعريف كانت محددة حسب المشوار لترتفع فى المواسم والأعياد . وفى ليالى الصيف ورمضان كان الأهالى يجلسون على المصاطب بجوار البيوت ويأكلون عليها ويسهرون .

وكان المحتسب بالقاهرة كوزير للتموين وكانت سلطاته واسعة لمراقبة الأسواق ونظافتها . كما كان يقوم بمراقبة الأسعار بها وفحص البضائع والسلع لمراقبة جودة تصنيعاتها واشتهرت المصنوعات المصرية بالجودة والمتانة والدقة وعدم الغش فيها . وكان شعار صنع فى مصر كفى لا بترويج المصنوعات فى أوروبا بلامنافسة لذا غزت الأسواق الغربية بواندهرت المصنوعات الصناعة لهذا السبب . وكان يقوم بمعايرة الموازين والمكاييل للتأكد من صلاحيتها . كما كان يفتش على السقائين ويتأكد من نظافة قربهم وعدم خلطهم المياه النيلية بمياه الآبار والتزامهم بأخذ المياه من المردات (موردات) التى حددها لهم والمنوع نزول البهائم للشرب منها . وكان السقاء ملزما بتغطية القرب بسعف النخيل حتى لا تبطل ملابس المارة بعلامستها . وكان السقائون مكلفين برش الشوارع يوميا بالصيف ونقل المياه لاطفاء الحرائق . وكان مشهودا لهم بالامانة وحسن الخلق لانهم كانوا يدخلون البيوت ويكشفون موراتها . وكانوا يضعون علامات مميزة على كل بيت لبيان عدد القرب التى نقلوها . وكان المحتسب يقوم - أيضا - بالتفتيش على المطاعم العامة والصمامات والأسلحة

للتأكد من نظافتها ، ويسير في الشوارع لإزالة إشغالات الطرق من المصاطب والبضائع ، كما كان يفتش على المدارس والكتاتيب وكان تفتيشه مستمرا على الورش لراقبة جودة مشغولاتها ومصنوعاتها ، واشتهرت صناعة المشربيات في نواحي البيوت لمدارة عمولاتها من الداخل ، وتفنن الصناع المصريون في صناعتها وتعشيقها ، لكن في أواخر عصر المماليك أصبح المحتسبون مرتشعين نودب فيهم الفساد وخربت ذممهم فقتها ونوا ، فانهدرت الصناعة وتفسدت الأسواق وتفشى الفس في السلع واللون ، فاستغنت أوروبا عن إستيراد المصنوعات المصرية ولا سيما الطنافس والستائر المخملية التي كانت قد اشتهرت بمصر بصناعتها ، وكانت تزين بها الكنائس والقصور هناك رغم ما كان عليها من آيات قرآنية ، ولما انهدرت صناعتها أخذت أوروبا تقلد صناعتها وعليها الآيات القرآنية والزخارف الإسلامية الجميلة .

واشتهرت مصر بالكفت وهو صناعة التكفيت بتطعيم النحاس بأسلاك من الذهب أو الفضة بملء الشقوق في النحاس بهذه الاسلاك ، وكانت الزخرفة مبارزة عن التوريق بروسومات نباتية ، وقد أخذ المصريون هذا الفن عن أهل الموصل وبرعوا فيه وطوروه ، وكان النحاس المكفت له ورشا خاصة اشتهرت بصناعته ، كما كانت الفضة المكفتة بالذهب لها شهرتها العالمية ، وحذق الصناع المصريون فن تطعيم الخشب بالأبنوس والعاج والصدف ، وكانت العروس تجهز بدكة من الخشب المطعم بالصدف أو العاج المكفت بالنحاس ، وكان يوضع عليها النسب من النحاس أو الفضة المكفتة .

وإبان العصر المملوكي كانت صناعة الخزف منتشرة بمصر ، وكان مشهورا ببريقه اللامع (الزجاج) ، وكان الصناع أيام الفاطميين قد أدخلوا على صناعته الروسومات ، وكانت صناعة المعادن شائعة حيث كان يصنع التماثيل من المعادن والشمعدانات والحلى المزخرفة والمطعمة بالمينا التي اشتهرت بها الصناعة المصرية ، وبعدما داهم التتار بغداد هج الصناع من العراق وإيران إلى مصر وأدخلوا صناعة تكفيت المعادن ، وكانت بلاد الموصل بالعراق مشهورة بها ، وأدخلوا صناعة الحفر على الخشب وتصفيحه بالنحاس ولا سيما بالبوابات ، كما أخذوا يحفرون وينقشون الخشب ويزينونه بالتوريق وروسومات الحيوانات والطيور والكتابة عليه بالنقر والحفر أو بالتصفيح ، كما أدخلوا صناعة التناثير النحاسية المخزمة والمزخرفة لتوضع بها القناديل ، وكانوا يصنعونها العلب المطعمة لحفظ القرآن والمجوهرات .

وفي القاهرة كان يوجد سوق القفصيات حيث كان يباع به الأحجار الكريمة والأساور

والحلى والخلاخيل ، وكان البائعون يضعونها في أقفاص من الحديد المشبك ليسهل على الزبائن رؤيتها . وسوق القفصيات هو سوق الصاغة حاليا . وكان يوجد سوق اللحمين تصنع به الأخفاف الملونة التي كان يلبسها السلطان والأمراء ، أما العلماء فكانوا يلبسون الأخفاف السوداء من الجلد البلغاري حفاظا على وقارهم . وكان يصنع بالسوق السروج المطهمة وأدوات اللجم للخيول والبيغال والحمير .

وفي فترات انحطاط الحكم المملوكي ابتدع المماليك موردا للمال أطلقوا عليه ضمان الفواني أو المفانى . فلقد كانوا نهمن لجمع الأموال بأي وسيلة فاتجهوا إلى العهر . وهذا الضمان هو ضريبة تدفعها الضامنة عن البغايا التابعين لها في نظير حماية عهرهن . فكانت المومس تدفع أموالا للضامنة في نظير أن تضمنتها بتسجيل اسمها عندها ، بعدها لا يقوى أي شخص في الدولة على التعرض إليها بعد دفعها هذا الضمان . وكانت الضامنة هي التي تقدر هذه الرسوم وكان لا يقام أي فرح في مصر إلا بعد دفع هذا الضمان للضامنة الناحية ولا فخر الفرح ولحق صاحبه الأذى . وكان للضامنة سلطة قوية على المواطنين ، فلو دخل شخص بطريق الخطأ أو الصدفة حارة البغايا فلا بد أن يزنى بامرأة مومس ويدفع الرسوم المقررة ، وإذا رفض يدفع رسوما مضاعفة تحدها الضامنة ليفتدي بها نفسه . وكانت حارات البغايا منتشرة في الأرياف فيمارس فيها البغاء علانية . والمومس كانت لا تفاد الحارة لزيارة أهلها إلا بتصريح من الضامنة التي بين لنا المقرئى سلطاتها في قوله : فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزل اسمها عند الضامنة . لما قدر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة . وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن أو خضبت يدهن یا الحناء أو أراد شخص عمل فرح أو نفسها امرأة بلا إذن من الضامنة حل بها بلاء لا يوصف . لأن الضامنة تعتبر جارية الخزانة المملوكية وكان البغاء من أكبر مصادرها . ويدل هذا على التردى الذي وصلت إليه الأحوال بمصر .

ولقد ألغى السلطان الأشرف أبو المعالي عام ١٣٧٧ م . هذا الضمان وكان لقراره وقع طيب لدى القضاة والمشايخ بل ولدى المصريين جميعا . وأصدق وصف للبغاء في مصر وقتها ما قاله المقرئى من أن البغايا أصبحن يقفن بلا حياء أو خشية في أسواق القاهرة ومدن الوجه البحرى والصعيد تحت حماية الضامئات والشرطة . وهذا البغاء كان قد ظهر في أواخر العصر الأيوبي إلى أن جاء الظاهر بيبرس فمنعه نهائيا وأرغم البغايا وقتها على الزواج . وأنشأت إبنته تركان خان دارا للنسوة المطلقات والأيتام في رباط البغداية قرب شارع أمير الجيوش بالقاهرة

عام ١٢٨٥ م . وهذه الدار خصصتها لسكنائهم لرعايتهم حتى يتزوجن . وكانت تنفق عليها . وولت إدارتها لنسوة مشهودا لهن بحسن السمعة . وجمع بييرس البغايا وحبسهن حتى يتزوجن . وأراق الخمر ومنعها من الأسواق وألغى معاصر العنب . بعدها رخص سعره كثيرا . وبعد بييرس عاد البغاء ثانية مما جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلغى ضمان غوانى عام ١٣٠٩ م . وألغى معه البغاء ومنع أى ضرائب تجلب مما يخالف الشرع كالفحش والخمر . وألغى الضريبة التى كانت تفرض على كل شخص ينزل بخان البغايا .

ظهور الماليك الشراكسة :

استطاع الأمير برقوق القضاء على سلطنة بيت قلاوون بمساعدة الماليك الشراكسة أبناء جنسه بعدما ضاقوا بسلطنة الصغار كما يقول ابن خلدون . فلما ساءت أحوال البلاد جمع برقوق الخليفة المتوكل العباسى والقضاة والمشايخ ومعهم الشيخ البلقينى شيخ الأزهر وتباحثوا في الأحوال المتردية ولا سيما وأن عرب الصعيد وبدو الشام قد تمردوا مطالبين بحكم عربى وإنشاء مملكة عربية منهم في مصر والشام وعلى هذا فالسلطنة محتاجة إلى شخصية قوية أو على حد قول العيني في (عقد الجمان) : سلطان يفهم الخطاب ويرد الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وإفهام . فأعلنوا عزل السلطان الصبى أمير حمى عام ١٣٨٢ م . وأخذ أميران من المؤتمر بعدما أخذوا منه شارة السلطنة وأدخلاه عند الحريم وولوا برقوقا وكانت توليته قد تمت أثناء الظهيرة لهذا لقيه الشيخ البلقينى بالظاهر . وبعد عدة شهور حاول برقوق التخلص من الخليفة العباسى لأنه تأمر ضده إلا أن القضاة أفتوا بأن الخليفة له حق تعيين بدلا منه لأنه ولى الأمر شرعا . وفي القاهرة قابل السلطان برقوق أربعة من فقهاء الشام جازا إليها وقد أرسلهم الماليك الأتراك هناك ومعهم فتوى بعدم أحقيته وأهليته بالولاية والسلطنة . وأفتوه ببطلانها لأنه ليس عربيا قرشيا فلا يحق له ولاية المسلمين والقيام بأمرهم . فقبض عليهم ومذبهم وزج بهم في السجن . وهذه الدعوة ظهرت في عهده لأول مرة في مصر التى حكمها الطولونيون والاختشيديون والفاطميون والأيوبيون والماليك وكلهم لم يكونوا عربا . لكن تمرد العريان في بوايدى الشام وصعيد مصر قواهم فادعوا هذا الحق [ولا سيما عندما أعلن الشريف حسين بالعجاز الخلافة الهاشمية عام ١٩١٨] .

وبدأ عهد السلطان برقوق بالفتن والثورات ضده وكان يستميل ماليكه بالأموال تارة والبكاء أمامهم تارة أخرى . وكان المصريون قد ثاروا أيضا ضده . لأنهم باتوا لا يثقون فيه .

وكان يسير في الشوارع يستجدي عطف الأهالي ويجذبهم إليه بالبكاء كما يقول المقرئى . ولم ينقذه من هذا سوى تفشى الطاعون ، فانشغل الناس بدفن موتاهم لكن المماليك خلعه . ثم عاد إلى السلطنة عام ١٣٩٠ م . واستقبله الشعب إستقبالا حافلا وخرج الأهالي عن بكرة أبيهم إلى مشارف القاهرة حاملين القرآن والانجيل والتوراة ليستقبلوه . وكان هذا بداية قيام الدولة المملوكية الثانية .

السلطان برقوق :

كان السلطان برقوق متعلما ومتدينا وذا شخصية قيادية . كما كان يجيد فنون الحرب والقتال . وكان ظهور الدولة التيمورية المغولية متزامنا مع بداية دولة المماليك الثانية . وكان تيمور لك (الامرج) قد استولى على بلاد ما وراء النهر وأعلن مدينة سمرقند عاصمة لامبراطوريته . مما جعل المماليك في مصر والشام يخشون الخطر المغولى بعد إستيلائه على تبريز (إيران الآن) عام ١٣٨٦ م . ومحاولته الاستيلاء على ماردين على حدود السلطنة المملوكية . إلا أنه خشى قوة المماليك فاحجم عن التوسع في هذه المنطقة . وبعد عامين انسحب من تبريز . وهذا جعل حاكمها يتردد للسلطان برقوق ويضرب السكة (النقود) ويعلن الخطبة باسمه وأصبح نائباً عن السلطات برقوق هناك . وبهذا أصبحت تبريز تابعة لمصر لأول مرة .

أما الأقباش فتوالت هجماتهم على أسوان ما بين عامى ١٣٨١ م و ١٤١١ م . مما جعل السلطان برقوق يستدعى البطريق القبطى (متاوس) ويكلفه بإرسال مبعوث عنه يصاحبه واحد من القضاة إلى نجاشى الحبشة داود بن يوسف . وأرسل معهما رسالة مطولة يستنكر فيها الهجوم على أسوان وطالبه بالعودة إلى بلاده والكف عن أذى المسلمين الأقباش . فاستجاب النجاشى لهذه السفارة متوددا للسلطان برقوق وكف عن تهديداته بتحويل مجرى النيل بالحبشة لمنع الفيضان عن مصر . ولهذا كانت العلاقات ودية بين مصر والحبشة طوال عصر الدولة المملوكية الثانية . أما العربان فواجه برقوق تمردهم وعصيانهم في الصعيد والدلتا وأخمدهم وألحقهم بجيشه ليتقى شرهم ويتخلص منهم في حروبه ويشغلهم عنه .

وفي عام ١٣٩٣ م . قام تيمور لك بالاستيلاء على بغداد وقضى على حكم الجلائر بها وهذا جعل السلطان برقوق يقوم بتحصين الجبهة الشرقية المتاخمة لحدود العراق . وكان تيمور يلاحقه برسائله التى يهدده فيها . وكان رد برقوق عليه بتمزيق الرسائل وقطع رؤوس السفراء . فشن تيمور هجوما على ولاية الرها المملوكية فشل فيه . بعدها جهز برقوق جيشا عام ١٣٩٤ م .

أسهم فيه وجهه التجار المصريون لرد هذا الخطر المغولى . وتحاشى تيمور دخول معارك مع المماليك فترك بغداد لابنه مران شاه واتجه إلى الهند متحاشيا المواجهة مع الجيش المصرى . وأرسل برقوق جيشه لتحرير بغداد وأعاد بها حكم الجلائير وعين أحمد بن باديس الجلائرى نائبا عنه هناك . وظلت بغداد ولاية مملوكية حتى وفاة السلطان برقوق وبعد خمس سنوات من حكم المماليك لها إستردها تيمورلنك عام ١٣٩٩ م .

ومن أخطاء السلطان برقوق التوسع في جلب المماليك الشراكسة أبناء جنسه وتكالبه على شرائهم مما رفع أسعارهم في أسواق النخاسة . وهؤلاء المماليك كانوا يجلبون بالغين وكبارا في السن مما كان يصعب تدريبهم أو تأهيلهم عسكريا أو تطويعهم على الولاء الكامل له . عكس العصر المملوكى السابق كان المماليك فيه يجلبون أطفالا ويربون على الطاعة العمياء والولاء التام لاستاذهم السلطان . وكانوا ممالك جلابة من كل لون وجنس حتى يسهل تسييسهم وقيادتهم . وقد لفتت خوند الكبرى نظر زوجها برقوق إلى هذه النظرية حيث قالت له : إجعل من عسكري أبلق من أربعة أجناس . تترو جركس وروم وتركمان . تستريح أنت وذريتك . فتعدد أجناس المماليك كان يحقق التوازن في سلوكهم والتنافس فيما بينهم . فلا يتمردون على السلطان عملا بالمثل (فرق تسد) . فلو وجد جنسهم سابوا عليه . لكن وقت النصيحة فات ، لأن الشراكسة كانوا يستحوزون على كل شيء في السلطنة ولا سيما بعد السماح لهم بترك القلعة وسكنى القاهرة كما يقول المقريزى : فنزلوا من الطباق بالقلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد . ولهذا لم يطبعوا على الطاعة كما فعل قلاوون . ولما خلف هرج ابن برقوق أباه وكانت أمه رومية . فنراه يقرب الروم من المماليك . واستبعد الشراكسة أبناء جلدة أبيه وكانوا الأغلبية في جيش السلطنة . فدخل معهم في صراع دموى حتى قضى على معظمهم مما أضعف من قوته العسكرية .

ظهور العثمانيين :

كان البحر الأحمر أيام العصر المملوكى له إستراتيجية بحرية لدى المماليك . ولا سيما عندما حاول البرتغاليون الاقارعة على السفن العربية في جنوب البحر الأحمر . وهذا ما جعل قانصوه الغورى يتحالف مع البنادقة الذين كان البرتغاليون يناهسونهم في السيطرة على التجارة العالمية بأوروبا . فأرسلوا قانصوه بأن يرسل رسالة تهديد لبابا روما ليضغط على البرتغاليين بالكف عن شن غاراتهم البحرية وإذا لم يفعل سيقتل المسيحيين بفلسطين والشام ويهدم كنيسة القيامة هناك .

لكن قاتلهم ولم يتفككت هديده بعد ما بنى أسطولاً بمعاونة سلاطين العرب جعدن واليمن والحجاز وجنوب الجزيرة. وهذا الأسطول انتصر بقيادة حسن الكردي على ابن البرتغاليين ولاحقهم حتى يوم ١٥٠٨ م. حيث تصدده السفن البرتغالية وهزمته في معركة (ديو) بالمحيط الهندي. إلا أن البرتغاليين حاولوا معاودة هجومهم على مصر من البحر الأحمر عام ١٥٤١ م. لكن العثمانيين كانوا قد استولوا على مصر فأرسلوا أسطولاً بقيادة سلمان الرومي وهزمهم عند حصو و كانوا في طريقهم إلى السويس بقيادة إبنى فاسكودي جاما (استيفانو كريستافو) .

**

*

الإفول

في مطلع القرن الـ ١٦ أصبح الصراع في الشرق الاسلامى يدور بين دولة الصفويين الشيعة في تبريز بايران والعثمانيين في القسطنطينية والممالك بالقاهرة . لكن كان موقف القاهرة هو الترقب لما يدور على الساحة السياسية ، لأن الصراع كان على أشده بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة . واستطاع الشاه إسماعيل الصفوى إستمالة الأوزبك والتركمان في شمال فارس وهؤلاء سنة . كما تحالف مع الممالك في القاهرة وهم أيضا سنة . وهذا التحالف الشيعى السننى أزعج السلطان سليم الأول . فنراه يستولى على ألبستان عند منابع الفرات وكانت تابعة للدولة المملوكية بالقاهرة وكان إستيلائه عليها مؤقثا حتى يصل لنجدة الاكراد من الخطر الصفوى . فهزم الصفويين في معركة كاليدران على حدود الدولة المملوكية . وبعدها خلع الاكراد من الصفويين واتجه مستوليا على كردستان والموصل وتبريز عاصمة الصفويين . وترك سليم الاكراد يحكمون إقليم كردستان والموصل وديار بكر وهذه كلها أراض كردية سننية ولم يضمها إلي الدولة العثمانية وانسحب من ألبستان المملوكية بعدما حقق الغرض من الغزو . كل هذا جعل قانصوه الغورى يتوجه بجيشه إلي دمشق ليرقب الأحداث عن كثب . وخلف نائبه طومنباي بالقاهرة . وأرسل سليم إلي قانصوه سفراء للتفاوض على عقد معاهدة تحالف فيما بينهما لكن قانصوه رفضها ، وأهان رسله ، بل طردهم ردا على سليم الذى اعتدى على إمارة ألبستان المملوكية واتخذ منها معبرا للوصول إلي الصفويين حلفاء قانصوه . وأراد سليم تأديب قانصوه في الشام . فأنشأ أنه حامى الاسلام ومدافع عن أهل السنة وهذه الدعاية العثمانية أثرت في قوات الممالك فانشقت على قانصوه وهو في مواجهة قوات سليم في مرج دابق عام ١٥١٦ م . حيث قتل قانصوه وانسحبت قواته . بعدها إستولى سليم على حلب وأعلنت فيها الخطبة باسمه . وكان أول مرة تعلن الخطبة باسم سلطان عثمانى في العالم العربى . وبعد إنهيار الشام أصبح الطريق أمام قوات سليم مفتوحا إلي القاهرة بعد إنهيار الحلف الصفوى المملوكى . ووصل سليم إلى غزة وحاول طومنباي التصدى له لكنه هزم . وكان سليم سيقف عندها ، فلم يكن في نيته الوصول للقاهرة إلا أن خيرى بك الذى كان مستشاره في حربه ضد الممالك أشار عليه بدخولها . وكان خيرى من الممالك الترك أنشق وتمرد على قانصوه ولجأ إلي القسطنطينية . فدخل الجيش العثمانى القاهرة في ٢٣ يناير ١٥١٧ م . وكان يومها المصريون يحتفلون بيوم الهجرة وكان يوم

الجمعة . وفجأة دهشوا عندما أعلن الخطيب اسم سليم العثماني معلنا سقوط الخلافة العباسية بمصر . وأعدم طومنباي على باب زويلة بعده انتزع العثمانيون إستقلال مصر منذ عهد النولة الطولونية . وأصبحت ولاية عثمانية تابعة للأستانة . وأصدق وصف ما قاله الدكتور حسين مؤنس من أن العرب لما فتحوا مصر كانت ولاية بيزنطية تابعة للقسطنطينية ولما فتحها العثمانيون جعلوها ولاية عثمانية تابعة للقسطنطينية (الأستانة) . وكما عانت مصر التخلف أيام تبعيتها لها أيام البيزنطيين . عانت مصر - أيضا - من هذا التخلف في تبعيتها الثانية لها أيام العثمانيين .

الجهنم العثماني لمصر :

كانت مصر مركزا للتجارة العالمية حتى عام ١٤٩٦ م عندما اكتشف (فاسكودي جاما) طريق رأس الرجاء الصالح ففتح طريقا جديدا لنقل التجارة الهندية والشرق أقصى بعيدا عن مصر ولاسيما تجارة التوابل والأفاوية . ومما ساعد - أيضا - على تدهور هذه التجارة العالمية في مصر دخول العثمانيين بها بعدها بحوالى ٢١ عاما وأخذوا يراقبون السفن التجارية للبندقية وجنوا . وأخذ الاتراك يشجعون الأوروبيين على نقل التجارة العالمية عبر أراضيهم فسهلوا للقوافل التجارية العبور بمعايرها مستقلة موانئها في آسيا الصغرى ولا سيما بمدينة بورصة (بروسة) . ومما ساعد - أيضا - على تدهور أحوال البلاد أن السلطان سليم بعد احتلاله لمصر - كما يقول ابن إياس - عند رجوعه لبلاده أخذ معه الصناع المهرة ونهب ذهب مصر وفخستها واستولى على أسلحتها وتحفها وخيولها وبغالها . فبطلت في مصر خمسون صناعة حيوية وتعطل أصحابها عن العمل لندرة الصناع . وهؤلاء المصريون الحرفيون بعدما علموا الاتراك فنون صناعاتهم وبنوا القصور المنقبة للعثمانيين وشيدوا المساجد طردهم السلطان سليمان (القانونى) لما خلف أباه سليم فأصدر فرمانا عام ١٥٢١ م . حيث أمر بطردهم شر طردة من تركيا وهدد من يتخلف منهم بالاعدام . فهج المصريون ومنهم من لجأ للبلاد الشامية وآخرون قد قضى نحبتهم في طريق العودة ومن وصل للديار المصرية كان حطاما من قسوة رحلة العودة إلى الوطن . ولما وصلوا رأوا بلادهم قد داهمها الخراب والشعب لا حول له ولا قوة يلعن حكامه وينعى الزمن الأغبر .

وكانت الدولة المملوكية تحكم مصر والشام وبلاد الحجاز واليمن . وكل هذه الدول إنفصلت عنها . حتى قبرص التي كانت تخضع لها آلت تبعيتها للدولة العثمانية بعد الغزو العثماني لمصر . وأصبحت مصر ولاية تابعة بعدما كان سلطانها يمتد للبحرين الأحمر والأبيض طوال عدة قرون .

وبدعت إستقلالها ثمنا لضيق أفق السلطان قانصوه الذى إنصاع وراء الشيعة الفرس متخليا عن العثمانيين السنة . فحضر ملكه وحياته معا . وتناسى قانصوه أن يبايزد الثانى العثمانى قد ساندده عندما أرسل له الأخشاب والمعدات لإنشاء الاسطول المصرى لمواجهة الغزو البرتغالى في البحر الأحمر . وأرسل هذا الدعم العسكرى البحرى بلا مقابل للدفاع عن الإسلام ضد البرتغاليين الصليبيين . وفى عام ١٥١٥ م أرسل سليم أسطوله لمساندة القوات المصرية في حريها ضد الاسطول البرتغالى .

لكن الصفويين خدعوا قانصوه وتخلوا عنه تماما . لأن مخططهم كان التخلص من النفوذ العثمانى أولا ثم ينقلبون على مصر . ولم ينتبه قانصوه إلي هذا المخطط الشيعى وانساق فيه حتى جر البلاد إلي الاحتلال العثمانى الذى ظل يجثم فوقها منذ ١٥١٧ م . حتى ١٩١٤ م . وهذه القرون الأربعة كانت كافية للقضاء على كل مظاهر العمران والتقدم الاقتصادى والفكرى في الميراث المملوكى سواء في مصر والشام والحجاز واليمن . مما أصاب هذه الدول بالتخلف والانحطاط في شتى المجالات . وهذا ما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وعين سليم المملوك التركى خيرى بك في مصر كذائب للسلطان بالآستانة . لأنه إعتبر مصر إقطاعية وإيست ولاية عثمانية . وترك معه حامية من الانكشارية والأزيان والسباهى والتفكشية والمتفرقة والقبوجان يعاونها المماليك الشراكسة . وأخذ خيرى بك يسلك كائنه سلطان مملوكى فلقب نفسه بملك الأمراء . وأبقى على نظام الادارة المملوكية . وعين له نوابا بالأقاليم أطلق عليهم الكشافين وكلهم من المماليك . وترك شئون قبائل البنو لمشايعهم الذين كانوا شبه مستقلين بالصعيد ليحكمه حاكم من العرب الهوارة . وأثناء هذه الفترة الانتقالية إنقطعت قوافل الحج لمدة ثلاث سنوات . وأصبح قانصوه الغورى وطومنبای أسطورة شعبية لدى المصريين حيث تروى سيرتهما في مندياتهم ومجالسهم . وأعتبرا في التراث الشعبى بطلين حاربا ببسالة العثمانيين .

وبعد وفاة خيرى بك أصبح نائب السلطان عثمانيا فتعين عثمان باشا مصطفى . وبعد وفاة سليم الأول تمرد عليه الكشافون في أقاليم البهنسا والفيوم والغربية قائلين : مات سليم وإن إبنه صبى صغير فلو أتى ليحاربنا سنحطمه . فلن نترك هذه المملكة للتركمان العثمانيين الذين لا يعرفون حرب الفروسية . وقضى الوالى عثمان باشا على هذا التمرد المملوكى بصعوبة .

وفي عام ١٥٢٣ م . تولى أحمد باشا إقطاعية مصر وأعلن إستقلاله عن الدولة العثمانية وقضى على الجنود الانكشارية وأعدم قائدهم وأعلن الخطبة باسمه في كل مساجد مصر . رسك

التقود أيضا باسمه وكون جيشا من فلول الممالك وبقايا العباسيين والانكشارية . وبأيعه القضا الأربعة عام ١٥٢٤ م . وتحالف مع الصفويين الشيعة بفارس عن طريق أحد دعاةهم بالقاهرة . إنه أعدم بمؤامرة ضده وأصبح يطلق عليه في التاريخ العثماني أحمد باشا الخائن .

والدولة العثمانية في كل ولايتها كانت سينة السمعة . لأن ولايتها كانوا يعينون بالرشى والمحسوبية . وكان الباب العالي بالاستانة يعيد تجديد تعيينهم سنويا . والتجديد معناه إعادة شراء المنصب لدرجة بعض الدول الأجنبية كانت تدفع للوالى أموال الشراء ليبقى في الولايا وليعاونها في تحقيق مصالحها . وبهذا الأسلوب الملتوى أصبح لبعض الدول الأجنبية نفوذها الداخلى في معظم الولايات العثمانية . وكانت ولاية مصر لمن يدفع أعلى سعرا كرشوة للصدر الأعظم (رئيس وزراء الباب العالي) . وبالطبع كانت الهدايا والرشاوى تقدم إلى حاشية السلطان بالقصر العثماني لاحداز الفرمان والتصديق على ترشيح الصدر الأعظم للولاة . لهذا كان الولاة يجمعون الأموال بشتى الطرق وتفننوا في إغتصابها حتى يعوضوا ما دفعوه من الإتاوة السنوية ليصلهم فرمان التجديد . والمطالع ليوميات الجبرتى سيجد فيها قصة تعيين أحد الولاة بمصر . فذكر قصة المملوك محمد بك أبو شنب عندما حمل صرة أموال الضرائب من مصر إلى الاستانة . وكان قد قدم عند وصوله رشوة إلى الصدر الأعظم مقدارها أربعة آلاف كيس . بعدها شوه صورة الممالك عنده واتهمهم بالتآمر ضد السلطان للاستقلال بمصر مستغلين ضعف الوالى الذى يتآمر معهم . فعاد أبو شنب وبصحبه وال جديد معه فرمان التعيين . وكانت لدى الوالى الجديد تعليمات بقتل الوالى المخلوع . فقتله وأرسل رأسه إلى الاستانة .

وفي القرن الـ ١٨ أصبح الوالى العثماني في مصر لا يملك فيها سوى لقبه (الباشا) . وأصبحت أمور البلاد في أيدي الممالك البكوات (الباشوات) . وهؤلاء كانوا جميعا من الشراكسة . وكان قدر مصر أن يحكمها الأتراك الجلابة منذ الحكم الطولونى عام ٨٦٨ م . حتى عام ١٩٥٣ م . أي حوالى إحدى عشر قرنا وهذه أطول فترة قطعتها مصر في تاريخها الاسلامى . حكمها الفاطميون خلالها ما بين عامى ٩٦٩ م و ١١٧١ م . والأيوبيون من عام ١١٦٩ م . حتى ١٢٥٢ م ورغم هذا كان الممالك الأتراك لهم نفوذهم في جيشى الفاطميين والأيوبيين . وإذا كان من بين هؤلاء الاتراك سلاطين وحكام عظام إلا أنهم في جملتهم كانوا نقمة على مصر . ولا سيما أيام الدولة العثمانية بعدما أصبح بأيديهم الأمر والنهى . فكانوا يهلكون الفلاحين في أراضيهم كما كانوا يولون أشرار الناس بيت المال . فعلاوة على الضرائب الفاحشة فرضوا على المصريين

جعلوا لهم شهريا .

والدولة العثمانية أصبحت تدار بواسطة الحريم السلطاني وكان السلطان دمية . فأصبح ولاء كبار رجالها لهن قبل أن يكون الولاء للسلطان فالعثمانيون كما يقول (ساكس) قد ورثوا بعد فتحهم للقسطنطينية مفاصد البيزنطيين ولا سيما لما أبقوا على الخصيان وخدم وحراس القصور . وكان معظم هؤلاء من الجواسيس والمرتشين والقوانين . فلقد أضاع العثمانيون كنزا وورثوا أويئة بيزنطة . فكان نظام الحريم السلطاني من أهم الأسباب التي نخرت في كيان الدولة العثمانية الفتية . فترملت وراء جدران قصورها بالقسطنطينية بين أحضان الجوارى . فزجت أوروبا بجوارىها في حقر قصور السلاطين العثمانيين ليتجسسن عليهم ويتآمرن ضدهم . فبهذا الأسلوب كانت تدار مصر من الأستانة .

التصوف في العصر العثماني :

في العصر العثماني لعب التصوف دورا إجتماعيا وسياسيا ودينيا رئيسيا في مصر . فلقد تحول من الذكر لله والعبادة كما كان في العصر المملوكي إلى البدع والدجل والشعوذة مما كان لهذا أثره الخطير على المجتمع المصري . فانتشرت الطرق الصوفية كالولاء في شتى أنحاء البلاد . وكلها كانت تروج الجهل حيث حرم متصوفة العصر العثماني تلقى العلوم على يد مدرس أو في كُتَّاب . وكان المتصوفون يعيشون في رفاهية مع زوجاتهم وأبنائهم بعدما كانوا يعيشون إبان الأيوبيين والمماليك عيشة الزهد . وانتشرت الزوايا والتكايا والخانقاهات وكانت لها أوقافها الكثيرة التي أوقفها هؤلاء الأيوبيون والمماليك عليها . لهذا كانت هذه الأموال ينهبها المتصوفون الذين كانت لهم دولتهم من الفقراء والمجانيب والمريدين . وكان مشايخ الطرق الصوفية قد نصبوا أنفسهم ولاة فوق أى عرف أو قانون . وفاق سلطانهم سلطان العلماء والفقهاء الذين كانوا يتصنون لبدعهم ويعارضون ضلالتهم . وكان شائعا خروج مجاذيب الصوفية في الشوارع والأسواق والقرى عراة حفاة . وكانوا يلقون من الأهالي كل إحترام . لأن هؤلاء المجاذيب (بركة) . وكان أولياء الصوفية فوق الشرع والأعراف روجوا عن أنفسهم بأن التكاليف الشرعية قد سقطت عنهم فلا يصلون ولا يصومون كما يقول منهم الدكتور سيد الطويل في كتابه (التصوف في مصر) . واستباحوا الزنا والخمر والميسر والحشيش . وكانوا يمارسون هذه الموبقات علانية وبلا موارد . وكان المصريون يتحاشونهم خشية اللعنة لاعتقادهم في سلطانهم الروحي وإيثارا للسلامة .

وكان لكل ولى منطقة نفوذ لا يتعداها ولا يعتدى عليها ولى آخر ، حتى أصبحت مصر دويلات لهؤلاء الأولياء ففي إطار الحكم العثماني ، هؤلاء الأفاقون استطاعوا القيام بعملية فسيل مخ للشعب المصري ومقوده الوهم بل جسده له لدرجة أي معارضة لتصرفات الولى الشاذة التي ليست من الشرع كان الأهالي يزدرونه ويرمون به بالكفر ، ومما ساعد على ترويج هذا الافك ما كان كتاب هذا المصري روجونه في كتاباتهم من معجزات وخوارق هؤلاء الأولياء الأفاقين مما جعل الأهالي عند رؤيتهم لهؤلاء الأدعياء يهرعون إليهم ويقبلون أيديهم وأرجلهم ، ولكثرة ما أشيع حول هؤلاء من كرامات ملفقة مزيفة أخذ الولاة العثمانيون أمراء المماليك يتسابقون ليحفظوا برخصاهم عنهم ، وهذا كان نعمة للمصريين الذين كانوا يلجئون إلي هؤلاء الأولياء ليردوا عنهم حيفا وقع بهم من حكامهم أو يشفعوا لهم عندهم ، فكانوا واسطة بين الشعب وحاكميه الذين كانوا لا يريدون لهم طلبا وهذا أقوى من سلطان هؤلاء الأولياء ، وكانوا بدورهم ينفقون من الأموال التي كانت تذهب لهم من الأمراء على الفقراء ، لهذا كله كانت السلطات العثمانية تطلق هؤلاء كوابل قدامية لها بين رعاياها وتتخذ منهم عيون لها عليهم .

وأمام هذا الفيض من الدجل السياسي الديني كان الأزهر قلعة صامدة وكان علماءه يتصدون بخراوة لكل زيغ ، ومما ساعد على استقلاليتهم وجود ريع له من أوقافه التي لم تمس حتى قيام ثورة ١٩٥٢ م .

الإدارة العثمانية لمصر :

قسم العثمانيون مصر إلي سناجق (مديريات) وكان سناجقة الأقاليم مكلفين بجمع أموال الالتزام في سناجقهم . والالتزام كان نظاما خسرانيا لجمع الأموال ، وكان كل سناجق يعطى حق جباية الضرائب إلي ملتزم بالاقليم يقوم بدفعها للخزانة مقدما سنويا ، ثم يقوم كغائب عن السناجق في جمعها ، فكان الملتزم يغالى فيها ليعوض ما دفعه وليثرى منها ثراء فاحشا ، وكانت قيمة الأموال التي تدفع كالتزام تعادل عشر الأموال التي كانت تجمع فعلا ، علاوة على إستعانة الملتزمين بكتبة من القبط لأنهم كانوا يتقنون الحساب وامسك الدفاتر وكانوا يزورون في حساباتهم ودفاترهم ليحققوا ثراء على هامش أموال الالتزام .

ونظام الادارة أيام الحكم العثماني كان يتمثل في الأوجاق وهو عبارة عن الحملة العثمانية التي كان مهمتها حماية الوجود العثماني في مصر ، وكان الأوجاق يرأسه الأغا ومعه نائبه

الكخيا

ويتبع الاغا الدفتر دار الذى كان يتولى الشئون المالية والادارية بالأوجاق . والولاية كان يديرها الوالى الذى كان يلقب بالباشا . وكان تعيين هؤلاء بما فيهم القاضى يصدر بهم فرمان التعيين من الاستانة . لهذا لم يكن للوالى حق تعيينهم أو عزلهم لأنهم كانوا يتبعون الصدر الأعظم مباشرة .

والولاية ديوان كان بمثابة مجلس شورى للوالى يتكون من الاغا والكخيا وقادة فرق الحامية ودفتردار الولاية والخازندار والروزنامجى . وكان للديوان سكرتير يطلق عليه (ديوان أفتدى) . أو أفندى . وكان الدفتردار رئيس الجهاز المالى بالولاية يعاونه الروزنامجى في تقديم ميزانية الولاية واستلام كشوفات الأموال التى يرسلها كاشفوا الأقاليم إليه .

وأول قانون وضعى لمصر هو (قانون نامه) مصر الذى وضعه السلطان العثمانى سليمان القانونى عام ١٥٢٥ م . وأصدر به فرمانا حملة إبراهيم باشا الصدر الأعظم إلى القاهرة لتطبيقه . وكان القانون من جزئين : الجزء الأول يحدد مهمة الأوجاق في مصر والجزء الثانى يبين نظام الإدارة المدنية بالولاية . وهذا الجزء لا يختلف عن النظام المملوكى إلا في أنه قسم مصر إلى ١٤ إقليما . وجعل الحكم من أسبوط حتى أسوان خاضعا لعربان بنى عامر بدلا من الهوارة . وأبقى على نظام الكشافين والالتزام .

والماليك إستغلوا ضعف الولاة فباتوا يطلقون على أنفسهم الباكوات . وكان معظم هؤلاء الماليك من الشراكسة الأتراك . أخذوا يتحنون الوالى العثمانى ويتطاولون عليه ، حتى نراهم عام ١٦٠٥ م . يثرون على الوالى إبراهيم باشا ويقتلونه . وخلفه الوالى محمد باشا الذى يعتبر قاهر الماليك . فنراه يلغى الفردة التى فرضها الجنود السباهى على المدن والقرى . ويرد هم عن التمدادى في ظلمهم . وفى عام ١٦٠٩ م . انشق عن طاعته ماليك الغربية وطربوا كاشفها . وأعلنوا بها السلطنة المملوكية ، وعينوا سلطانا ووزراء له يعانونه . وامتد عصيانهم حتى بلغ الخانكة . وجمع محمد باشا زعماء الماليك بالقاهرة وطلب منهم القبض على المتآمرين وإلا أعدمهم جميعا . فقبضوا على زعماء الفتنة فأعدمهم ونفى من ساعدوهم إلى اليمن . وظل محمد باشا واليا لمصر مدة أربع سنوات ضبط فيها أمور البلاد وقام بعدة إصلاحات وعزل حاكم الصعيد شيخ بنى عامر وعين بدلا منه حاكما عسكريا مخالفا بهذا قانون نامه الذى ينص على أن الحاكم هو شيخ بنى عامر . ولما استدعى للاستانة خرج الماليك من جحورهم وعينوا منهم أمير

خزنة بيت المال ليقدم الخراج سنويا للأستانة . كما عينوا أمراء الحج من بينهم بعدما كان يعين من بين العثمانيين بمصر .

ظهور الماليك الهكوات :

وسط هذا الجو من الانحطاط السياسى للدولة العثمانية برز على بك الكبير وكان أمير الماليك ، فأعلن عام ١٧٦٩ م . أنه شيخ البلد . وأخذ خطباء المساجد يعلنون إسمه بعد إسم السلطان . وكانوا يدعمون له في خطبهم . وعلى بك الكبير أصله من الماليك الشراكسة وكان أبوه قسيسا . جلب كهيد إلي مصر عام ١٧٤٣ م . ومما قوى مركزه طلب السلطان منه مساندته في حرب العثمانيين ضد روسيا . لهذا كون جيشا له . وبدلا من التوجه إلي مسرح العمليات ضد الروس عزل الوالى العثمانى بالقاهرة ورحله إلي الأستانة . وفي عام ١٧٧٢ م . أعلن السلطنة المملوكية في مصر مستقلة عن الدولة العثمانية وعين نفسه سلطانا لها وتلقب بحاكم البحرين الأبيض والأحمر وكان يطلق عليه عزيز مصر . وعلى بك الكبير كان قد وطد علاقاته بالسلطان العثمانى ونال رضاه عندما أرسل قواته بقيادة إبراهيم بك إلي الحجاز لاضمار الفتن والقتل ضد الدولة العثمانية هناك . وبهذا أصبح على بك يحكم مصر والحجاز بعدها تطلع إلي ضم الشام له لاحتياء الدولة المملوكية الثانية التى قضى عليها العثمانيون . ففى عام ١٧٧٠ م . أرسل قواته لغزو الشام بقيادة إسماعيل بك مستغلا تمرد الشيخ زاهر العمرى حاكم فلسطين ما دما على بك يرسل حملة ثانية بقيادة أبى الذهب الذى هزم عثمان باشا واستولى على دمشق بعدها أعلن السلطان عصيان على بك الكبير . فأرسل له أسطولا لتأنيبه مما جعله يسحب قواته من الشام . لكن أبا الذهب أخذ ينافس على بك . فتوجه بقواته إلي الصعيد لتكوين جبهة مضادة له . فأرسل على بك قوات أخرى بقيادة إسماعيل بك للتصدى لقوات أبى الذهب لكن إسماعيل إنضم إلي المتمردين وزحفوا جميعا إلي القاهرة لشن هجوم على علي بك الذى فر إلي الشام بعدها أسره الماليك وأحضره للقاهرة . ورحب به إبراهيم بك الذى كان له نفوذه على الماليك . وقتل على بك عام ١٧٧٣ م . وكان أبو الذهب قد أرسل ممالিকে . فاستولوا على الساحل الفلسطينى إلا أنه مات هناك فجأة . فعادت قواته إلي القاهرة . وبعده نشب الصراع بين أمرائه الثلاثة وهم إسماعيل بك وإبراهيم بك ومراد بك . واستبعد إسماعيل ، وأصبحت مصر تحكم ثنائيا بين إبراهيم ومراد منذ عام ١٧٧٤ م . كل هذا الصراع والوالى العثمانى في القلعة لا سلطان له . وإبراهيم بك قد أصبح شيخا للبلد .

وفي عام ١٧٨٦ م . ضاقت الاستانة ذرعا بالماليك فارسلت أسطولا بقيادة حسن باشا للقضاء على نفوذهم . واستقبله المصريون بترحاب وحفاوة على طول طريقه في النيل . وكان الفلاحون يطالبونه بعودة قاتون نامة وتخفيض الضرائب . ولما وصل المبعوث العثماني إلى القاهرة كان مراد وإبراهيم قد هربا إلى الصعيد وعين منافسهما إسماعيل بك شيخا للبلد . وكان حسن باشا قد أتى معه الاصلاحات الجديدة التي أعلنها أمام الديوان بالقلعة . فعين لأول مرة نقيباً للأشراف ليضفي هالة دينية على هذه الاصلاحات وقضى على الحكم الذاتي الملوكي الذي ظهر أيام على بك الكبير بجعل الأشراف لهم وضعهم السياسي في مصر . وهذه الاصلاحات كانت هامشية . فلم تتعد تعيين نقيب الأشراف ومنع المرأة من العمل العام والمسيحيين من توظيف المسلمين أو شراء العبيد . ومنع معهم اليهود بالآ يسموا أنفسهم بأسماء الانبياء . لهذا نجدها إصلاحات مظهرية وليست جوهرية . ولم تتناول المشاكل الملحة في مصر . وصبغت بالصبغة الدينية لاضفاء هالة زائفة عليها . فخبيت آمال المصريين فيها . لكن حسن باشا حقق المهمة الأساسية التي جاء من أجل تحقيقها . حيث أعاد مصر ولاية عثمانية تخضع للاستانة والوالى العثماني بالقلعة . وحجم نفوذ الماليك . لكن مهمته لم تطل فاستدعته السلطات العثمانية وطلب الباب العالي منه العودة على عجل بأسطوله .

ومن إستقراءنا للأحداث ومما كان يدور وراء الكواليس في الباب العالي نجد أن المؤسسة الحاكمة هناك تديرها أيد خفية لاضعاف الولايات العثمانية . وجعل السلطان خليفة صوريا . وكان لزواج السلاطين من الأوربيات ولا سيما الإيطاليات والفرنسيات قد جعلهم أسرى زوجاتهم اللاتي كن يصدرن الأوامر للمصدر الأعظم والوزراء . وعلى هذا نجد إنسحاب الوالى العثماني حسن باشا بأسطوله فجأة من المياه المصرية . كان الهدف منه إضعاف القوة العسكرية البحرية في مصر لتهديد نابليون باحتلالها بأسطوله دون مقاومة . فحملة نابليون كانت مؤامرة حيكت في قصر السلطان العثماني نفسه .

*

الحملة الفرنسية والإيقظة المصرية

لا أكون متجنيا بل منصفاً عندما أقول أن الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م أتت غازية ومستعمرة لها . ورغم هذه الأهداف إلا أن هذه الحملة أيقظت المصريين من غفوة القدر ليروا بلادهم في واقعها المؤسف وتخلّفها المهين . وهذا كان كافياً لبعث الروح القومية لديهم . فلقد ضاقوا بالماليك وضاق المالِك بأنفسهم .

فنايليون رغم شدة المخاطر التي كان معرضاً لها من الأسطول البريطاني في البحر الأبيض توجه بأسطوله إلى الاسكندرية . فكانت هذه الحملة مغامرة فرنسية في مصر . عندما نزل بقواته عند منطقة العجمي على أطراف الصحراء الغربية وعلى مشارف الاسكندرية . وداريه الخيال وتذكر ما طاعه وما سمعه من التجار الفرنسيين عن هذه المدينة التاريخية . فالاسكندرية كانت لها سمعتها العالمية وشهرتها بأنها عروس البحر بمبانيها وقصورها وأثارها اليونانية والرومانية . وتخيل شوارعها الواسعة والممتدة وقلاعها الحصينة المتعالية وحصونها الفارهة . فأمر قواته بأن يغزوا السير للوصول لمدينة الاسكندر قبل حلول الفيضان . وكان الجو في يونيو خانقاً وحاراً مما جعل قواته تبحث بجنون عن المياه نون جدوى . ولا سيما وأن الآبار قد جفت مياهها . وهذه القوات قد أنهكتها الرحلة البحرية من طولون إلى شاطئ العجمي . فعندما نزلت للبر تبديت أمامها لما لا قوة من حر الصحراء المكشوفة . فسقط الكثيرون من ضربات الشمس وهب العربان للسطو عليهم وأسروا منهم الكثيرين . وهذا ما جعل نابليون يواصل سيره ليصل إلى الاسكندرية للحصول على الماء بها . وأحس محمد كريم حاكم المدينة بوصول الفرنسيين فدهش . وأعتقد أنهم أصدقاء السلطان العثماني أرسلهم إلى مصر بعلمه وإذنه ولا سيما وأن معظم التجار في البلاد منهم . ولا يوجد أي عداوة بين مصر وفرنسا . فأرسل رسالة عاجلة إلى مراد بك بالقاهرة يبلغه بوصول العمارة الفرنسية ووصفها له مستنجداً به . لكن مراد بك لم يعير الرسالة اهتماماً واكتفى بالتعليق قائلاً : ان الفرنسيين كحبة الفستق للكسر والاكل . إلا أن هذه الحبة زرعت في مصر وأثمرت . فبعد ساعات كان نابليون يدق بمدفعه أسوار الاسكندرية المتهتمة أصلاً . وهب الأهالي للدفاع عن مدينتهم بشجاعة وبسالة . وألقوا بالحجارة من فوق

الأسوار على الفرنسيين . فأصيب الجنرال مينو إصابة بالغة وأطلق عيار نارى على الجنرال كبير فأصابه بجأجه . ووصف نابليون مقاومة الاسكندرية بتقرير أرسله للحكومة الفرنسية . بعدما هرع الأهالى إلى المساجد ليحتموا بها ويتضرعوا إلى الله والنبي لترد عنهم هذه الغمة . وأخذ الفرنسيون يذبحون كل من صادفهم . وحاول أحد القناصة المصريين إغتيال نابليون . فأطلق عليه الرصاص وأصابه في طرف هدائه الأيسر لكن نابليون أمام هذه المقاومة المصرية العنيفة لم يأن ولم يضعف فاتبع أسلوب الدعاية الفورية للقيام بعملية غسيل مخ جماعية للمصريين . وانهالت منشوراته التى طبعها بالعربية على الأهالى معلنا فيها بأنه صديق السلطان جاء إليهم ليحقق لهم العدل والمساواة والحرية . وجنده هم جنود الخلاص لهم من المماليك الذين بغوا في كل واد . فأتى ليجعل من المصريين حكاما للبلاد . والفرنساوية مسلمون مؤمنون . فلما نزلوا روما حطموا كرسي البابوية هناك . لأن البابا يحرض النصارى لمحاربة المسلمين والاسلام . والفرنساوية أعداء المماليك أعداء السلطان . وتوعد في منشوره كل من يسانداهم بالويل بعدما لعنهم . وختم المنشور بالدعاء للسلطان والعسكر الفرنسية .

وكان لهذا المنشور وقع السحرى لدى المصريين ولا سيما النسخة العربية منه ، وانتشر في كل البلاد حتى في إقليم برقة حيث طلب الأهالى هناك منه نسخا كثيرة لتوزيعها . وبما قوى تأثير هذا المنشور قول نابليون فيه بأنه يحترم الأشراف والعلماء . وهذا المنشور أطلق عليه المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بأنه كان دجلا نابليونيا . واعترف نابليون نفسه بهذا . إلا أن الحرب خدعة . وهذا المنشور كان قد طبعه بالعربية . وهذه النسخة كانت مختلفة تماما عن الطبعة الفرنسية والانجليزية . وكان من الواضح أن نابليون وضعه بعناية فائقة بعد دراسته لموقف مصر وأحوالها دراسة مستفيضة . فلهذا ركز فيه على الهجوم على المماليك الذين يكرههم المصريون . وحافظ فيه على هيئة السلطان العثمانى لأنه خليفة المسلمين . وكان له مظهره الدينى لدى المصريين . فرغم مساوئ الخلافة العثمانية إلا أنها كانت مظهرا ورمزا للخلافة الراشدية في صدر الاسلام . والسلطان ظل الله في الأرض هكذا روج العثمانيون عن أنفسهم . فتوهم المصريون أن نابليون جاء ليخلص السلطان من المماليك الذين انشقوا عن طاعته . وما هو الغاى الجديد يحدثهم عن العدل الذى يفتقونه . ومن المساواة التى يتطلعون إليها ومن الحرية التى كبكت بأغلال المماليك المفترين . وأخذ التجار الفرنسيون والشوام بدمياط ورشيد والاسكندرية يشكلون طابورا خامسا بين المصريين لحساب الدعاية الفرنسية . والترويج لمنشور نابليون الذى كان

المصريون أنفسهم حريصين على توزيعه وترويجه بين المواطنين تشفيا وأملا في التخلص من الماليك .

وبعدما أخذ نابليون المقاومة في الاسكندرية نراه يصف المصريين في تقريره عن الحملة (بأنهم أمة وديعة وباسلة لكنها تعتز بنفسها) . وتجول بالاسكندرية التي داعبت خياله بسحرها وعظمتها . فراحه ما رأى وصدم في رؤيته . فأما بلدة خربة بمبانيها القديمة إندثرت فيها كل مظاهر الحضارة وأصبحت أطلالا تنعى الزمن الغابر . لقد دخلها سليم الأول فانبهر بها وبعظمة شوارعها وقصورها . وهاله مناعة حصونها . ولما أتاه نابليون وجدها خاوية على عروشها . تلعن العثمانيين والماليك البكوات .

ونابليون كان هدفه الوصول إلى القاهرة قبل حلول الفيضان حتى لا تصيب الدلتا بحيرات تغمرها المياه مما سيتعذر معها تقدم القوات الفرنسية . فقسم قواته إلى قسمين لتكتملة الغزو . مع ترك حامية فرنسية بالاسكندرية بقيادة كليبر . فتوجهت قوة إلى دمنهور عبر الصحراء والأخرى توجهت إلى رشيد لتعبر النيل وتتقابل مع بقية الحملة في شبراخيت للتوجه معا للقاهرة . وحملة دمنهور سارت عبر الصحراء ليدهمها العربان ووباء الطاعون . ولاقت هذه الحامية العطش لجفاف الأبار . وكان الجو حارا . فكان الجنود من شدة العطش وندرة المياه وتفشى مرض الطاعون يتساقطون موتى . وأمام الأحوال التي كانت تلاحقهم كان العساكر يطلقون الرصاص من بنادقهم على أنفسهم . وساد انطباع بينهم أن فرنسا ألقت بهم إلى الجحيم في مصر لتتخلص منهم بخسريات الشمس الحارقة من فوقهم . ورغم هذا كان نابليون في الاسكندرية يحثهم على السير للوصول إلى المجهول . وأى مجهول . فالعذاب أمامهم كان بلا نهاية . وعلى الجانب الآخر كانت القوة التي وصلت رشيد أحسن حالا . فالفرنسيون ذهلوا لما رأوا المدينة . فوجئوا قطعة من أوربا تدب فيها الحياة . فاستراحوا بها وأعجبوا بنظافة شوارعها . وحاولوا شراء أطعمتهم . لكن البائعين رفضوا التعامل بالفرنك الفرنسي الذهبى بالرغم أن رشيد كانت مدينة تجارية دولية تتعامل بكل العملات . لكن الباعة خشوا البيع بالفرنك حتى لا يتهمهم الماليك بعد إنتصارهم على الفرنسيين بتعاملهم مع العدو لو ضبطوا معهم النقود الفرنسية . ولهذا فضل الباعة البيع لهم نظير أخذ أضرار بدلهم النحاسية بدلا من العملة الفرنسية . لهذا لما وصلت قوات نابليون إلى القاهرة دخلتها والجنود بلا زراير ببدهم . لأنهم إشتروا بها أطعمتهم أثناء الطريق . لكن أسلوب الشراء أدهش المصريين لأنهم تعودوا على نهب الماليك الذين كانوا يأخذون كل شيء

غصبا . وبعد رشيد توجهت مراكب فرنساوية عبر النيل وكانت النسوة يزغردن لهم على الضفتين كما كان الاهالى يحييونهم أثناء سيرهم .

ونابليون بالاسكندرية أخذ يوزع الهدايا والشارات فرنساوية على علمائها ليتودد إليهم وقدم لكل منهم شارة ذات ألوان حمراء وبيضاء وزرقاء بلون العلم الفرنسى . وكان العلماء بأمره يضعونها على عمامتهم وهم سائرون في الشوارع . ومن الطريف أن الشيخ المسيرى فقيه فقهاء الاسكندرية كما يقول عبد الحميد الكاتب في كتابه (مصر والمصريين) أولم وليمة كبيرة حضرها الجنرال كليبر قائد الحامية الفرنسية بالاسكندرية ومعه ضباطه . فقدم لهم أطباقا من الأرز الملون بالأحمر والأبيض والأزرق لون العلم الفرنسى فدهشوا . وهذا علامة عن الرضا عنهم . ولنيل مرضاتهم . وكأن لسان حاله يقول مات المماليك وبخيا الفرنسيون . ألم ينعم عليه بالوشاح الفرنسى الذى كان يرتديه فيؤدى له العساكر فرنساوية التحية العسكرية بما فيهم الضباط والقادة منهم وهذا الاحترام لم يلقه من المماليك .

هزيمة المماليك

التقت قوات نابليون في الرحمانية وتلاقت مع المماليك الذين جاؤا لكسر حبة الفستق وهم على خيولهم المطهمة بالذهب والجواهر وفي ملابسهم المخملية المزركشة . وتفتتت حبة الفستق الفرنسية عن نيران المدفعية المحمولة على العجل والرابضة . ففر مراد بك بمماليكه مع أول طلبة فانتقلت مركبته . بعدها واصل فرنساوية سيرهم إلى القاهرة . وخرجت الاهالى من قبور العصور الوسطى لتحى هؤلاء الغزاة . وقطع نابليون وجنوده المسافة من الرحمانية حتى وصلوا إلى إمبابة سيرا على الأقدام . لأن الخيول كانت تجر المدافع والمراكب كانت تحمل العتاد . ولما وصل مشارف القاهرة طالعتهم الأهرامات والقلعة ومآذنها . وكانت قوات مراد بك من المماليك والعربان في إنتظاره عند إمبابة . فوصلها وقواته منهوكة القوى وفي حالة معنوية سيئة من السير والحر وبدلهم بلا زراير لأنهم قايضوا بها للحصول على أطعمتهم طوال الطريق . فالتفت إلى الأهرامات وأبى الهول قائلا : الآن تطل عليكم حضارة أربعين قرنا . قال هذا لرفع الروح المعنوية المتخفضة بين قواته ولا سيما والمماليك أمامه في إنتظاره . ولا يهمننا تفاصيل المعركة . فالفرنسيون إنتصروا وفر مراد إلى الصعيد بفلوله . ودخل نابليون القاهرة تتقدمه الموسيقى تعزف مارش المار سيليلين مع ثلة تحمل بيارق المماليك المنهزمين . وأخذت الموسيقى تصدح في شوارع القاهرة . وسمع الاهالى بها موسيقى غريبة عن أسماعهم لأول مرة . وكان المماليك ومعهم

الوالي العثماني قد هجوا فرارا من المدينة ولم يبق بها سوى أبناء البلد ليلاقوا مصيرهم أمام
الفرنساوية . ووصل نابليون بموكبه إلى الأزبكية . واجتمع العلماء ليتشاوروا فيما بينهم حول
مستقبل مصر . فأرسلوا عنهم رسولا من المغاربة يعرف اللسان الفرنسي ومعه شاهد منهم
للتباحث مع ساري عسكر الفرنسي . فعادا ومعهما عهد أمان من نابليون .

ولقد كان لسقوط القاهرة وقعه السيء في الأستانة عام ١٧٩٨ م . وكان له صدى في بقية
العالم الاسلامي . فنرى قوافل الحجاج المغاربة وغيرهم من حجاج شمال وغرب أفريقيا ومعهم
البديقيون في أكبر مظاهرة احتجاج إسلامية ضد الفرنسيين عند إمبابة في عام الغزو . بعدها
رجعوا إلى ديارهم ولم يحجوا وانقطعت قوافلهم للحج طوال سنوات الاحتلال الفرنسي لمصر .
وانقطع علماء المشرق والمغرب عن زيارة الأزهر لتلقى علومهم أو إلقاء دروسهم به . وانقطع
الطلاب عنه وعانوا لديارهم . ولما علم أهل الحجاز بدخول الفرنسيين مصر وانقطاع أفواج
الحجاج وقوافلهم المصرية والشمال أفريقية أعلنوا الجهاد المقدس فعبروا البحر الأحمر ووصلوا
إلى الصعيد منضمين إلى قوات المماليك هناك . واشترك معهم البدي . وأخذوا يدافعون معا ضد
الزحف الفرنسي . وأخروا إستيلاءه على أقاصى الوجه القبلي وقضوا على معظم العساكر
الفرنساوية .

المصريون والفرنسيون :

كانت القاهرة أيام الحملة الفرنسية في حالة يندى لها الجبين لما شاهدها الفرنسيون .
فالمطالع لكتاب الحملة (وصف مصر) يكتشف الحالة المتردية . فبعد عظمة العماثر المملوكية
وقصور الفاطميين شاهد علماءها الخراب الذي آلت إليه إبان العهد العثماني . فالقاهرة أم الدنيا
كانت أية في الجمال والفن المعماري الذي كان يستحوذ على إعجاب الأجانب الذين كانوا يزورونها
مما أذهل الرحالة الأوربيين وسجلوا هذه العظمة في رسوماتهم وكتاباتهم . وأصدق وصف لمصر
العثمانية ما كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه (مصر ورسالتها) حيث قال : عندما فتح
العرب مصر عام ٦٤٠ م . كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية . وعندما غزاها نابليون
عام ١٧٩٨ م . وجدها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية (الأستانة) ولم يكن حالها عام
١٧٩٨ م أحسن من حالها عام ٦٤٠ م . كان الناس في ذل وبقس . وكان البلد في خراب . لهذا
هضم نابليون للمرة الثانية لما رأى القاهرة وأحس أن التجار والرحالة الفرنسيين قد بالغوا كثيرا
في وصفهم لمصر . فضللوه وألبسوا الحقيقة زيفا لم يكتشفه إلا بعد المجيء إليها . فوجد القاهرة

قد ضاقت بمن فيها وضاق من فيها بها . ورأى شعبا بانسا يجوب شوارعها . فوصف مشاهداته في تقريره قائلا : ليس من السهل أن يرى الشخص بلدا غناها كثير وشعبها بانس وجاهل وفقير . وأصيب نابليون باحباط شديد كما يقول هارولد مؤرخ الحملة الفرنسية . فهناك فرق بين سراى الأزبكية التى ضاق بسكانها وبين القصور المنيفة في فينا بالنمسا التى إرتقى في أحضانها . وهناك فرق بين أزقة وحوارى القاهرة وبين حدائق وعظمة شوارع باريس . حتى القلعة التى إنبهر بها علماء الحملة وهى تطل عليهم من عل وتذكرهم بقلع العصور الوسطى ووصفها العالم الفرنسى (لوجيه) عندما دخلها قائلا : إن منظرها من بعيد يلوح بالعظمة والشموخ ولما دخلتها وجدت زريبة . رغم وجود قصر الوالى بها . ولما زار نابليون الأهرامات أشاد بعظمتها وروعيتها لكنه لم يدخلها مع رفقائه . لأنه رفض أن يزحف على الأرض لدخولها حفاظا على كبريائه .

وطلب نابليون من فرنسا سرعة إمداده بفرقة باليه ومسرح للعرائس للترفيه عن جنوده . كما طلب إرسال أطباء وحيادلة وأنوية لعلاج مرضاه الذين تفشى فيهم الرمد والدوسنتاريا والملاريا والطاعون . كما طلب قماشا أزرق وأحمر لصنع الاعلام الفرنسية علاوة على الخمور . لكن الحكومة ضربت بطلبية نابليون عرض الحائط ولا سيما وأن الاسطول البريطانى يحاصر الشواطىء المصرية . ورغم هذا الحصار كانت الأسواق المصرية قد ملئت بكل أنواع الخمر والعطور الفرنسية الشهيرة والتبغ والقبعات الباريسية على أحدث الموضات . وكلها صناعة مصرية قلدها المصريون بإتقان . وبهذا بدأ الفرنسيون يستمتعون بإقامتهم في مصر . وأخذ المصريون يقلدون الفرنسية بلبس القبعات وكثرت بالشوارع حوادث مرور الحمير كما يقول لاجنكير وهذا نتيجة لزيادة سرعتها عندما كان يركبها الفرنسيون الذين كانوا يلهون بركوبها في الشوارع وكانت غريبة عليهم . وكانوا عندما يركبونها كانوا كما يقول الجبرتى : يتمسحون ويغنون ويشاركون المكارية في ذلك . لأنهم كانوا يحملون معهم عليها العاهرات ويستهنئون بالمارة . مما جعل نابليون يصدر أمرا عسكريا للفرنسيين بتهدة سرعة الحمير عند السير وسط الزحام . وهذه المسخرة التى وصفها الجبرتى جعلت مشايخ الأزهر يصعدون فتوى بالترخيص للفرنساوية بالزواج من المسلمات بعد النطق بالشهادتين وأعفا من الختان وأباحوا لهم شرب الخمر .

ولما قدم نابليون هداياه وانعاماته على المشايخ رفضوا لبس الوشاح الفرنسى (الطيلسان) بألوانه الثلاثة واكتفوا بلبس الشارة الفرنسية على صدورهم بدلا من وضعها فوق عماثهم . ولما كانوا يلبسونها ويمرون على الضباط والعساكر الفرنسية كانوا يؤنون لهم التحية العسكرية

إحتراما لهذه الشارة حتى ولو كانوا يتجولون في الشوارع فوق بغالهم . وكان نابليون حريصا على التوיד للعلماء والأشراف وكان يقربهم من مجالسه مؤكدا لهم علانية أنه يحترم الاسلام وتبنيه . وادعى امامهم أن الرسول ظهر له في الرؤيا . فطلب منه نابليون أن يعمله عاما ليعتق الاسلام ويبنى مسجدا كبيرا . وادعى أيضا أنه مبعوث العناية الالهية خصه النبي بعنايته بعدما هزم الماليك . وبين لهم أن حملته ثورة عظمى ورد ذكرها في القرآن . وجاراه المشايخ فيما يثقل به وأظهروا له تقديرهم للسلطان الأكبر المقدر من عند الله . ولما ضاق المشايخ بالاعياء وادعاه حاكمه وبهتانه . واجهه الشيخ الشرقاوى قائلا : ما دمت تحب الاسلام ورسوله . لماذا لا تعتنقه ؟ فبهتت وصمت ولم ينطق بعدما أشاع المصريون بأن الفرنسيات كفار . وأعاد المشايخ بالحاح عليه أن يسلم هو وجنوده فتعلل امامهم بأن هناك عقبتين . هما الختان وشرب الخمر . فافتره بأن الختان نافلة وليس فرضا . أما شرب الخمر فيمكن للفرنساوية شربها وسيدخلون الجنة لو كفروا عن ذنوبها . ولم يسلم من الحملة سوى الجنرال مينو الذي تزوج بغادة رشيد وكان يصلى ويصوم ويحضر صلاة الجمعة إلا أنه ترك الاسلام على شاطئ الاسكندرية ومراجع إلى بلاده بعدما أقلت به المركب ومعه زوجته وإبنته .

ونابليون بمسلكه مع المشايخ والمصريين قد بدا لهم أنه دكتاتور ومرواغ وإنتهازى . فاليلاد لا تفتح بالمشورات ولا تحكم بالندج السياسى والكنب المفضوح . فالمصريون من كثرة الغزاة وما ألم بهم من حكام وعهود كانوا على بيئة بأساليهم المتنوية . فعلمتهم التجارب المريرة التى مرت بهم كيف يحتوون حكامهم وغزاتهم . وكانت مقاومتهم على مر العصور بالثقية وليس بالسلاح وبالسلبية التى تودى بطغاتهم . فالنسوة كن يزغرين لقوات نابليون وهى زاحفة للقاهرة وكان الأمالى على طول الطريق يحيونهم تعيات حارة حتى ظن أن مصر دالت له وحده . ومع هذا كانت جنوده تقتل خفية في كل مكان . وقتل منهم المصريون المئات في المدن والقرى وكانوا يقابلونهم بالأحضان ويفتحون لهم بؤرهم . كل هذا تم بعدما إنكشفت النوايا الاستعمارية للحملة الفرنسية وبعدم دخول الفرنسيون الجامع الأزهر بخيولهم وضربوا مآذنه بالمدافع من فوق القلعة . بعدما أعلن المؤذنون الجهاد المقدس من فوق المآذن في كل مكان . وثارت القاهرة ضده وضد أوامره التى كانت تتنافى مع تقاليد وعادات المصريين . ولا سيما وأن الفرنسيين رفعوا من قبر السوق وسفلة القوم والعاشرات والقوانين متحدين إرادة الشعب .

وأصبح المصريون ينظرون إلى إصلاحات نابليون على أنها إفك وضلال . لأنه كان يعتبر

مصر قطعة من فرنسا فهدم الأحياء بالقاهرة ليوسع شوارعها وهدم البوابات في الحارات والأزقة للتهوية وأمر السكان برش الشوارع وتنظيفها لكن هذا جلب سخط الأهالي وضيقتهم . وأصدر جريدتين بالعربية والفرنسية كانت تتضمن الأوامر واللوائح التي يصدرها . والاعلانات عن المحلات والبضائع التي ترد إليها وعناوين الخمارات وأنواع الخمور التي تقدمها . وبيوت الأزياء الفرنسية . وهاتان الصحيفتان كانتا بداية ظهور الصحافة في مصر . وكان من المناظر الشائعة في الشوارع بالقاهرة والاسكندرية والمدن الكبرى سير النسوة الفرنسيات المرافقات للعملة بلا حجاب أو نقاب . وبعضهن كما يقول الجبرتي كن لا يسترن عوراتهن حتى أصبحت المسخرة متفشية في كل مكان . وكان هذا شيئا غير مألوف وقتها .

والحكم الفرنسي كان حكما عسكريا بمصر إلا أن المصريين كما يقول شفيق غربال في كتابه (محمد علي الكبير) قد ضاقوا بضبط دقاتر الفرنسيين (بالنسبة للضرائب) وبالأجراءات الوقائية الصحية (للوقاية من مرض الطاعون) التي فروضوها على البيوت والحارات والأسواق منعا لانتشار الأمراض . وهذا شيء لم يألّفه المصريون ولم يتجاوبوا فيه مع السلطات الفرنسية . وأعتبره المشايخ خيانة وخطيئة .

وبعد تحطيم الانجليز لأسطول نابليون في مياه أبو قير وتصاعد المقاومة ضد قواته وشن البلبو حرب العصابات على رسله القادمين من فرنسا بالبريد . كل هذا جعله يشعر أنه في مصيدة مصر وكان المصريون يسخرون منه عندما يلبس العمامة فيبدو أمامهم كمهرج . فأطلقوا عليه لقب فرط حب الرمان للسخرية منه . فنابليون أصبحت مهمته في مصر صعبة للغاية . فالانجليز في مياه الاسكندرية له بالمرصاد والسلطان أعلن الحرب على فرنسا بالاستتانة والممالك ومعهم العربان يحاربون قواته وأسطوله قد أغرقه الانجليز . والمصريون أخذوا يسخرون منه علانية ولا سيما بعدما أخذ يفاوض مراد أمير الممالك سرا عن طريق القنصل النمساوي صديق مراد بك . ووعدته بمنحه حكم إقليم جرجا . ورفض مراد عرض نابليون وأصر على رجليه عن مصر . كل هذا بين أن منشوره كان وقاحة بل صفاقة كما أجمع المؤرخون على وصفه حيث ظهر فيه بهتان نابليون عندما إدعى أنه صديق السلطان . والسلطان يعلن خيانتته والحرب عليه . وادعى أنه أتى ليخلص المصريين من الممالك الكفرة فما هو يرسل القنصل النمساوي روزيني للتفاوض معهم باسمه ليوليهم إقليم جرجا . وادعى إحترامه للإسلام فدامت قواته صحن الأزهر الشريف وضرب مأذنه بالقنابل . وكانت أمام نابليون أكثر من فرصة يظهر فيها صدق نواياه . ولو كان قد

فعل هذا لأصبح إمبراطور مصر الفرنسية . وأهم فرصة لو كان قد أسلم وأخلص في إسلامه والفرصة الذهبية الثانية هي مشروعه لأصلاح ملكية الأراضي الزراعية . فلقد ترك الملتزمون من الممالك ٧٥ ٪ من الأراضي الزراعية بعدما قتلوا أو فروا هربا . فلما عرض نابليون على مستشاريه مشروع توزيعه للأرض على الفلاحين وإلغاء الالتزام نهائيا . عارضته الأغلبية التي خضع لتصويتها . ولو كان أصدر أمرا عسكريا بهذا التشريع لما عارضه أحد . وهذا كان حقا كقائد عسكري . فلو فعل هذا لنال رضا وتأييد الفلاحين الذين كانوا وقتها السواد الأعظم من الشعب المصري حيث كانوا يمثلون حوالي ٨٠ ٪ من تعداد السكان وقتها .

أما منشور نابليون فلم يتحقق منه سوى نقطة واحدة على جانب كبير من الأهمية . وهو قوله إشراك المصريين في حكم بلادهم . ففي أكتوبر ١٧٩٨ م . كون الديوان بالقاهرة وبداوين في المدن الكبرى بالأقاليم تتبع الديوان العام . وشكلها من المشايخ والأعيان والتجار والفلاحين والأقباط . ويعتبر الديوان العام هذا أول مجلس نيابي في الشرق كله . فحقيقة كانت مشاركة المصريين فيه صورية إلا أنه كان بمثابة اللبنة الأولى للحكم الدستوري في مصر . وحدد نابليون في قرار تشكيكه نظام وطريقة التكوين والعمل به . وكان الجبرتي عضوا فيه وأعجب بنظامه إعجابا شديدا سجله في يومياته ولا سيما عندما طلب من الأعضاء المجتمعين لأول مرة إختيار رئيس لهم فيما بينهم . فهرع الأعضاء فورا وقالوا الشيخ الشرقاوي بوصفه شيخ الأزهر . فرد الترجمان قائلا : نو . نو . (أي لا . لا) . فعلق الجبرتي على هذا قائلا : فأجروا قرعة بالأوراق . فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوي . بعدها عرض على المجلس قانون جديد للميراث حسب القانون الفرنسي فرفضه المجلس بالإجماع لأنه يخالف شريعة المسلمين والأقباط . ورفض المجلس القوانين المدنية والجنائية الفرنسية لهذا السبب أيضا . وشدد أعضاء المجلس على عدم قبول أي قانون ولا يحدث أي تغيير في النظم السائدة في مصر لتظل على ما هو عليه وما سيكون . لأنهم إستشفوا أن وجود الفرنسيين أصبح مؤقتا . وكان المشايخ بالديوان حريصين على التصدي لكل ما يعرضه عليهم نابليون في الجلسات . ولا سيما وأن هؤلاء المشايخ أفتوا فيما بينهم بالاطاعة لكافر ونابليون وضع لهم كفره . ولقن علماء القاهرة ساري عسكر درسا إستوعبه أخيرا وطبقه باعترافه في مذكراته عندما أصبح إمبراطور فرنسا بعد ذلك . وهو أن يروض الدين ولا يقاومه . لأن الدين ينتصر دائما على الحرية في عقول الشعب . فالأهالي كانوا قد تظاهروا أمام الديوان معارضين قوانين نابليون . وأخذوا يتفقون على الثورة بقراءة الفاتحة . فلما شاهدوه وقتها خارجا

له صاحبا قائلين : الفاتحة . رافعين أكفهم . فسال مترجمه مذمورا . فأجابه بأنهم يدعون سلطان الأكبر سارى عسكر . وفى الواقع كانوا يقرؤونها لتثبيت إتفاقهم . بعدها بساعات قامت الثورة بالقاهرة . وكانت مفاجأة أفقدته رشده وأصابته كبرياءه .

الثورة على الفرنسيين :

كانت ثورة القاهرة عام ١٧٩٨ م . بعد أيام من وجوده بمصر نذيرا بأن عهده بها قد إنتهى . فاعتدى الأهالى على الجنرال ديبوى حاكم القاهرة وقتلوه . واستقبل الشعب نابليون بالحجارة ذاقوه بها . وسيطروا على القاهرة تماما ماعدا القلعة . وأصبحت جثث الفرنسيين بالعشرات فى الشوارع . وأخذت المدافع من القلعة هذه الثورة وقبض على الأهالى ، وأعدم نابليون العشرات وألقى بجثثهم فى النيل للتكنيل بهم . وكان من بينهم ستة من العلماء . وبينما كان الجنرال رينيه يعم يوميا ما لا يقل عن ثلاثين ثائرا نجد نابليون يعود إلى دجله الدينى قائلا أمام المشايخ الذين جاؤا يتشفعون فى المصريين المقبوض عليهم بأن : (هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصليبان سيكون على يديه) . ويعلق على أحكام الإعدام التى أمر بها بأنها حكم إلهى . وبعد مذبحه القاهرة نزلت القوات الفرنسية قدامهم المدن والقرى يحرقون ويعدمون يوميا العشرات . بعدها بدأت الامور وتشفع المشايخ لى نابليون ليعفو عن المالك . فعفا عنهم لارضائهم . بعدها كما يقول الجبرقى دخلوا الأزهر يلونون به وهم فى ثيابهم الرثة . وأخذوا من صدقات الفقراء المجاورين به . ويتكفون المارين وفى ذلك عبرة للمعتبرين . لذاقوا بما كانوا يفعلون . لكنهم لم يعتبروا فبعد نابليون إفتروا فى المصريين .

وأمام فشل الحملة على مصر والحصار عليها فى البحر لجأ نابليون إلى حيلة ينال بها تأييد أوروبا للضغط على إنجلترا لفض هذا الحصار . فأعلن حربا صليبية جديدة على الشام وفلسطين . وبهذا كشف زيفه وتضليله بأنه حامى الاسلام وضد البابوية فتوجه إلى العريش ثم يافا حيث نبح الالاف من المسلمين هناك . ووصف المؤرخون هذه المجزرة الوحشية بأنها مذبحه بربرية قام بها رسل الحرية على الطريقة الفرنسية . ووصل عكا حيث كانت نهايتها . فالجزار باشا واليها لقنه درسا خسره فيه نصف قواته عند أسوار قلعتها المنيعه . وكانت النسوة المسلمات يقفن يزغردن فوق الأسوار لبث الحماس فى المدافعين . وعاد نابليون مدحورا وقام بتمثيلية يجرم معه قلول جيشه المهزوم . وجعل الموسيقى تصدح بالمارشات العسكرية على طول طريق العودة . ورجاله كانوا يسيرون حفاة على الأقدام معه . لأن العربات كانت متخمة بحمل الجرحى والمصابين

واضطرب من كثرتهم إلى التخلص من مدافعه ومعداته بدفنها في رمال فلسطين . ليخلى العرياد لنقل هؤلاء المصابين . ومن كثرة العدد وعدم التمكن من نقلهم أو إسعافهم أمر أطباءه بتسميمهم للتخلص منهم . وهذا ما أكدته (لاجونكير) المعلق العسكري بالحكومة الفرنسية في تقريره الذي كانت الحكومة قد كلفته بكتايته من الوثائق الفرنسية للحملة النابليونية . فنراه في مجلداته الستة يعلق على واقعة عكا بقوله : كان شبح الجزائر يلاحق ويطارد نابليون عند انسحابه المهين من فلسطين والشام . وكان المسيحيون الموارنة قد انسحبوا معه حتى لا ينالهم إنتقام الجزائر بعدما تواطئوا مع الفرنسيين ضده . ومما ساعد على إحباط هذه الحملة المقاومة السرية التي قام بها مريان الشرقية حيث كانوا يغيرون على خطوط إمدادات نابليون المتجهة للشام ويستولون عليها ويدمرونها . وهذا ما أضعف موقف القوات الفرنسية هناك . وعزلها عن بقيتها في مصر . لكن نابليون تعادى في تمثليته . فلما وصل لشارف مصر أمر بتوزيع الجرحى والمصابين الذين بقوا معه في سرية تامة . فوزعوا على المدن لإخفاء حقيقة الهزيمة في عكا . ورتب مسرحية لدخوله القاهرة فسارت فلول قواته يصاحبها الموسيقى وثلة تحمل الأعلام التركية التي إستولى عليها في يافا . وأعلن البروجي دخول القائد المظفر من باب النصر . وكانت غنائمه بيارق تركية . لكن المصريين لم تنطل عليهم حيل نابليون . فكانوا يسألون عن عدد الباقين من الفرنسيين . لأنه كان من السهل عددهم وحصرهم . فمعظم أفراد الحملة قد دفنوا في رمال الشام . بعدها إنتهز نابليون الفرصة فسافر إلى فرنسا سرا قبل أن تصل لباريس أنباء الهزيمة . وحتى يمكنه تزيف الحقيقة أمام الشعب الفرنسي . فسافر بعدما أوصدت أمامه أبواب الانتصارات في آسيا وأفريقيا . ولما وصل العاصمة الفرنسية أعلن إنتصاراته المزيفة وأصبح إمبراطور فرنسا بعدها .

ومقاومة المصريين لم تلق بل إشتدت ضد الفرنسيين المحتلين . ففي دمنهور إستولى العربان على الحامية الفرنسية وذبحوا أفرادها . واشتعلت الدلتا والاسكندرية . وأخذ بدو الشرقية يغيرون على القوات الفرنسية . وأصبح الفرنسيون يواجهون الكمائن المسلحة في كل مكان .

فرار نابليون :

انطالع لوثائق الحملة الفرنسية يجدها فقدت ١٥٪ من قواتها البرية و ١٠٪ من أسطولها في مصر . ورغم هذا تجد نابليون يقوم بأخر كذبة له في منشوره الذي وجهه لأعضاء الديوان العام واجنود وقواته عند رحيله حيث جاء فيه أنه ذهب إلى فرنسا وسيعود إليهم سريعا . وغادر خلسة تاركا جيشا مفلسا ومهلهلا . وفي باريس أخذ يتاجر بانتصاراته الوهمية .

وبعد فرار نابليون المفاجيء أو على حد وصف أحد المؤرخين له بالفار الذى ترك السفينة بعدما نخر فيها ، تركها لتغرق بعيدا عنه ، وهذا الفرار جعل القوات في إحباط تام ، مما جعل القوات الفرنسية تتمرد على قادتها ، وتمزق العلم الفرنسى في كل مكان ، فالفرنسيون أحسوا أن نابليون خذلهم وتركهم لمصير مجهول ، ولم يكن أمام كليبر خلفه سوى التفاوض على الانسحاب من مصر ولا سيما وأن نابليون أخل بوعده بارسال معدات وإمدادات عند وصوله فرنسا ، وكان الأتراك قد أتوا بأسطولهم وأنزلوا قواتهم في أبو قير والانجليز كانوا موجودين بأسطولهم هناك وبعض القوات الهندية قد جلبتها المراكب البريطانية وقد أحضرتها من مستعمراتها بالهند ، وأنزلتها عند البحر الأحمر ، فآثر كليبر التفاوض لعقد معاهدة إنسحاب على فقدان ٢٠ ألف جندي فرنسى ببقية الحملة لأنه سيكون مسئولاً عن قتلهم أمام الرأى العام والحكومة الفرنسية ، وهذا الموقف الصعب وضعه فيه نابليون قبل فراره ، واتفق مع الأتراك في معاهدة العريش التى ضمنتها إنجلترا ، واشترط في المعاهدة أن يتم الانسحاب على مراكب عثمانية وليست إنجليزية حتى لا يقع الفرنسيون في أيدي الانجليز ويعتبرون أسرى حرب فينقلونهم إلى إنجلترا بدلا من فرنسا ، وأخذ كليبر يستعد لتنفيذ الاتفاقية في موعيدها ، لكن إنجلترا الضامنة والشاهدة على هذه الاتفاقية تراجعت فيها بعد توقيعها بحجة أن الملك لا يوافق عليها بشروط ، وبريطانيا تعللت بهذا لأنها علمت من رسالة وقعت في يديها أن الجيش الفرنسى في مصر في أسوأ أحواله القتالية ولا يقوى على الحرب ، لهذا نقضت الاتفاقية لإلحاق الهزيمة بهذا الجيش الفرنسى المتداعى وتحطيمه ، وهذا جعل كليبر يواجه قوات العثمانيين عند (عين شمس) وتحالف معه مراد بك بمعايكة ضدهم ، وسبب هذا التحالف المملوكى الفرنسى أن مراد وجد نفسه قد إستفاد من وراء الوجود الفرنسى بعدم دفعه الضرائب للباب العالى ، لهذا تحالف مع كليبر حتى لا يعود العثمانيون لمصر ، فحاصر كليبر ومعه مراد القاهرة التى دخلتها القوات التركية بعد إنسحاب الفرنسيين منها ، وحوصرت المدينة لمدة ٢٧ يوما سلمها العثمانيون على شرط الرحيل بقواتهم سالمين وعودة المعاليك للصعيد ، بعدها خلا الجو لكليبر الذى أصبح حديقا لمراد بك ، ولما كان كليبر يستعرض قواته المنتصرة ناحية الروضة إغتاله سليمان الحلبي عام ١٨٠٠ م ، وحوكم بعدها أمام محكمة عسكرية وأعدم بوضعه فوق الخازوق وترك ثلاثة أيام فوقه ليراه المارة .

وتولى الجنرال مينو قيادة الحملة وكانت فترته فترة إستقرار بمصر بعدما هدأت الأحوال ، وقام بعدة إصلاحات هامة ومفيدة ، لكن الأهالى رفضوها رغم منفعتها لأنهم لم يتقبلوا التظم

الفرنسية كرها في الفرنسيين . وكانوا يعتبرونه باسلامه دجالا .
واستطاعت القوات العثمانية الانجليزية المشتركة مطاردة القوات الفرنسية بمنطقة
الاسكندرية حتى القاهرة . وحاصرت المدينة . بعدها اجتمع الجنرال بليار حاكمها بالمشايخ وطلب
منهم إلزام الأهالي ببيوتهم . وحذرهم من قيام أى ثورة شعبية . لكنهم أجابوه قائلين : كل نفس
بما كسبت رهينة . فرد عليهم أحد الحاضرين من الفرنسيين قائلا : إن المدافع والدانات لا عقل
لها حتى تميز بين المفسد والمصلح . لأنها لا تقرأ القرآن . لكن الفرنسيين لم يحاربوا بل سلموا
القاهرة بلا قتال لأن دفاعهم عنها كان خسارة فادحة . وانسحبت القوات الفرنسية بنفس شروط
كبير السابقة وتنفيذا لمعاهدة العريش .
ومعصرو الحق يقال إستفادت من الحملة الفرنسية رغم المأسى التى لحق بها . فتخلصت
لفترة من ظلم وقسوة المعالينوا اكتشفت أثناء هذه الحملة إلى أى مدى كانت متخلفة فظهرت الروح
القومية بين المصريين .

*

مصر في مفترق الطرق

وصف الدكتور حسين مؤنس القاهرة في القرن الـ ١٧ بأنها كانت قرية صغيرة لا قيمة لها ولا حساب . ولما أتى الفرنسيون إنتبه المصريون إلي أنهم أصحاب بلدهم ولا سيما عندما أشركهم نابليون في الديوان وإدارة شئون البلاد . ورغم هذا الشعور ظلوا يعتبرون أرض مصر هي أرض السلطان بالآستانة . فزاهم يقولون لنلسون قائد الاسطول الانجليزى بأن أرض مصر هي أرض السلطان وليست أرضهم . لأن السلطان خليفة الله في الأرض وكان السلاطين يروجون هذه المقولة وكانوا يدنون على واجهة القصور والنور الحكومية عبارة (السلطان ظل الله في الأرض) ورغم هذا فالحملة الفرنسية نشلت الشعب المصرى من هذا الوهم الدينى . وأصبحت مصر بعدما كانت قبل مجيئها قسمة ظالمة بين أو باش الأتراك وصعاليك المماليك كما يقول الجبرتى . لهذا أصبح الشعب لا يثق سوى في مشايخ الأزهر . ونابليون ضمن دعاياته التى روجها في منشوره تحدى المماليك قائلا : فان كانت الأرض المصرية إلزاما لهم فليظهروا الحجة التى كتبها الله لهم . وهذا التحدى أيقظ في المصريين روح القومية وبعث فيهم الشعور الوطنى . ورغم هذا بعد رحيل الفرنسيين لم يطمح الشعب المصرى في الاستقلال عن الآستانة . وانحصرت إهتماماتهم القومية في رد المظالم وتخفيض الضرائب وكان لاختيارهم محمد على واليا بعد الاتفاق معه للالتزام بهذه المطالب . لأن الضرائب كانت تستحوذ على إهتمام الفلاحين وغيرها لم يكن يهم .

والحكم العثمانى الذى عاد بعد خروج الفرنسيين من مصر كان نقمة على مصر كما يقول جيب وهارولد في كتابهما (المجتمع الاسلامى والغرب) . فلقد سار على وتيرة واحدة لم تتغير أو تتبدل طوال هذا الحكم . فكانت تدار الصناعة والزراعة ويمارس التعليم بأساليب عقيمة . وطرق عفا عليها الزمن . فانعزلت مصر عن العالم وانفصلت عن الحضارة الحديثة . لأن الدولة العثمانية قطعت كل جسور الاتصال بين ولاياتها والعالم الخارجى الذى أخذ يتطور ويتقدم من حولها .

وبالنظر إلى الساحة السياسية المصرية في أعقاب الحملة الفرنسية تجد زعامات مصرية قد ظهرت كعمر مكرم والجدوى والمحرقى وغيرهم . وهذه الزعامة الشعبية تصدت بعد ذلك للوالى العثمانى وعزلته إحتجاجا على ما اقترفه الدلاة من نهب وسلب . وأخذت الجماهير تهتف بصوت عال : شرع الله بيننا وبين الوالى الظالم . وأخذوا يرددون في الشوارع (يارب يا متجلى

إهلاك العثمانيين) وبهذا خرج عمر مكرم نقيب الأشراف و وراء الشعب المصرى من القمة العثمانى الذى ظلوا به قرونا طويلة . أما المماليك فنراهم قد أصبحوا شراذم متناحرة ولم تم مصر مرتعا لهم . فالدولة العثمانية بعد انسحاب القوتين الفرنسية والانجليزية من ديار مصر كانت حريصة على وأد أى حركة مملوكية يستعيد المماليك بها نفوذهم وحكمهم الذاتى لمصر كما كانوا .

حكم محمد علي :

على الصعيد العسكرى أصبح في مصر ثلاث قوات مسلحة . الأولى قوات المماليك والبدو في الصعيد . والثانية قوة الأتراك العثمانيين . ومعهم قوة ثالثة من الألبان (الأرناؤط) وكان بينها محمد على ضابطا شابا أتى معها عام ١٧٩٩ م . وكان عمره وقتها ثلاثين عاما . ومحمد على من مواليد سالونيك باليونان لكن أصله من ألبانيا . وفى بدء حياته عمل جاييا للضرائب . وهذه الوظيفة طبيعته بالقسوة التى لازمتها طوال حياته . وفى عام ١٨٠٣ م . نراه وراء تمرد العساكر الألبان بقيادة قائدهم طاهر بك . وهذا التمرد كان سببه مطالبة الوالى برواتبهم المتأخرة . وكان محمد على نائبه . فاستولى طاهر بك على القلعة وهزل الوالى وساعده المماليك ليعلى نفسه واليا على مصر . لكنه قتل ليخلو الجو لمحمد على الذى تولى قيادة الحامية الألبانية . وكانت أكبر حامية عثمانية في مصر . ولعب محمد على دورا خبيثا بينه ناتج في كتابه (العرب) فتوقع بين جنوده الألبان والمماليك حلفائهم . ولما عينت الأستانة عام ١٨٠٤ م . خورشيد باشا واليا أيده وأعلن الولاء له . وكان يحرض المشايخ سرا ضده . فاكشف خورشيد الأعيبه . فعينه حاكما لجدة وكان هذا المنصب التعيين فيه يتبع والى مصر . فعارض محمد على في تعيينه وقبض على الوالى وحرض الأهالى التى خرجت مطالبة بتولية الولاية . وأتاه المشايخ ومعهم عمر مكرم يطلبون منه قبول المنصب . فتمنع ثم قبله بعدما تعهد أمامهم بتحقيق العدل ورد المظالم وتخفيض الضرائب . وأتى مبعوث عثمانى إلي مصر ليجت هذه المشكلة ويحلها . ولم يكن أمامه سوى الرضوخ لمطالبة الشعب بتولية محمد على . فصدر فرمان الولاية عام ١٨٠٥ م . وكان بداية حكمه هو بداية حكم الأسرة العلوية لمصر كولاية ثم خديوية ثم سلطنة وأخيرا مملكة ظلت حتى عام ١٩٥٣ م . حيث أعلنت ثورة يوليو قيام الجمهورية .

وإنجلترا كانت حليفة للمماليك وكانت لمحمد على بالمرصاد . فأرسلت عام ١٨٠٧ م . حملة عسكرية لخلعه وكان المماليك يعاونونها . إلا أنها فشلت بعد هزيمتها في رشيد . وحاول المماليك

إغتياله فدبروا مؤامرة له لتنفيذها أثناء توجهه للاحتفال بعيد وفاء النيل . إكتشفها وقبض على المتآمرين وأعدمهم . لكنه ظل يتوعد لزعماء المماليك بعدها . وأظهر حاجته لهم لمساندته في حربه ضد الواهبيين في شبه الجزيرة العربية . وطلب منهم حشد قواتهم وتدريبها والاستعداد للسفر إلى نجد . وفي عام ١٨١١ م . طلب من أمرائهم المجيء إلى القلعة ومعهم القوات لاستعراضها قبل الخروج للسفر . فلما جاؤا بخيولهم المظلمة وورائهم عساكرهم في أتم إستعداد لهم . دخلوا بالقلعة . بعدها أغلق حراسها الألبان أبوابها عليهم . فأصبحوا محصورين بها . واستقبل محمد على الأمراء المماليك في قاعة الديوان وكان قد أظلمها . واحتفى بهم جميعا . وهو جالس القرفصاء على أريكة . فطلب لهم الشربات بعدها إنهار حراسه بإشارة منه عليهم وذبحوهم ومن فوق أبراج القلعة إنهار الحراس الألبان بطلقات الرصاص على الجنود المماليك المتراصين في الساحة . فقتلوا عليهم . ونزلت قوات محمد على بالشوارع للقبض على فلول المماليك وذبحهم . وهذه المذبحة المملوكية أشاعت الرعب في نفوس المصريين والخوف من محمد على الذي أخذ يحكم مصر بالكرباج والسخرة .

وأيام محمد على كانت هزيمة نابليون في معركة واتر لو وسقوط الامبراطورية الفرنسية . بعدها سرحت فرنسا جيشها بضباطه وفذيينه . وهؤلاء رغم الهزيمة كانوا على مستوى عال من الكفاءة القتالية والتدريب . فوجد محمد على فيهم فرصة الذهبية لتكوين جيش حديث يقوم هؤلاء الضباط بتدريبه . ومما سهل مهمته علاقته الطيبة بالقنصل الفرنسي وإغلاس فرنسا . فحضرت البعثات التدريبية وكانت تضم خيرة القواد الفرنسيين . وقام باستيراد الاسلحة والمعدات الحديثة وبعث الضباط الشراكسة لفرنسا للدراسة في معاهدها العسكرية .

وكان محمد على أميا لا يقرأ ولا يكتب وحاول التعلم وهو في سن الأربعين إلا أنه كان واسع الأفق ذكيا ومدركا للأمور ويعيد النظر . وكان ملعا بالأحداث العالمية والتيارات السياسية الدولية من خلال ما كان يصله من صحف ومجلات أجنبية بصفة مستمرة . وكانت تترجم له أولا بلول ثم تلى عليه .

ومحمد على لأول مرة يدخل نظام النواوين في مصر بإنشائه الديوان العام الذي كان رئيسه (لافلوغلى) باشا . وهذا الديوان بمثابة مجلس الوزراء حاليا . وكان رئيس الديوان العام نائبا عن الوالى . وكان يتبع الديوان العام نواوين الجهادية والبحرية والتجارة والخارجية والمدارس والمباني والأشغال . وبإنشاء ديوان الخارجية نجد أن سياسة محمد على كانت تخطو

لأول مرة في الحكم العثماني لتتجه إلي الاتصال بالعالم الخارجي بعد العزلة التي فرضت
الولاية المصرية . وبهذا كانت مصر أول ولاية عثمانية تخرج من العزلة عن الغرب بالذات
وفي عام ١٨٣٧ م . أصدر محمد علي فرمان (سياست نامه) وكان يعتبر دستور
حيث أنشأ مجلسا للمشورة نصب إبنه إبراهيم باشا رئيسا له . وكان يضم علماء وكبار
والأعيان ومأموري الأقاليم . وقراراته إستشارية للديوان العام حيث كانت تقدم إليه ،
توصيات . وتضمن فرمان - أيضا - إنشاء المجالس العمومية بالأقاليم وكانت تتم
وإنشاء (الجمعية الحقانية) وهي بمثابة الهيئة القضائية العليا للبلاد وكانت تضم
وأخر شافعي . وأصبحت هذه الجمعية عام ١٨٤٩ م مجلس الأحكام . وختم إليه بعض كبار
ليقوم بالتشريع بالتعاون مع المجلس الخصوصي الذي تكون كوصى على محمد علي
وأصيب بالخرف وقتها وكان هذا يدير البلاد بالوصاية ويرأسه إبراهيم باشا أكبر أبنه
على

والمجتمع المصري كما صنفته لويس عوض في كتابه (تاريخ الفكر المصري الحديث
يتكون من ثلاث طبقات واضحة ، وهي طبقة الذوات (الطبقة الارستقراطية الحاكمة ،
والجراكسة) وطبقة الأعيان (كبار الملاك المصريين) وطبقة الفلاحين أصحاب الجلايل
كما كان يطلق عليهم وهم السواد الأعظم من الشعب المصري . وكانوا مسخرين لخدمة
والأعيان بلا مقابل . وكانت أسرة محمد علي مستوية على معظم أراضي مصر كانه قد
معه من قولة باليونان بعدما أفلس محل تجارته في الدخان هناك .

وكانت قوات محمد علي في بدايته من الألبان الذين إستشروا فيهم الفساد .
يفطرون جهارا في رمضان ويرتكبون المعاصي أثناء الصيام . فخشى محمد علي تمرده
لهذا إتجه إلي تشكيل جيشه الجديد من المصريين ليكون ولائهم للبلد عكس الألبان أو الم
غيرهم الذين سيكون ولائهم لمن يدفع أكثر . لهذا لجأ إلي المصريين ليكون جيشه ويبني به
دولته العصرية . فنجدهم إلزاميا جندوا للعمل في الجيش والمصانع والورش والزراعة
جعل كل شيء في قبضته حتى التجارة الداخلية والخارجية . وكانت عبارته المشهورة ك
(تربال) : لا بد لي أن أقود هذا البلد قيادة الأطفال فان تركها لنفسها يسلمها للفوضى
سبق وأن أخرجتها منها وكانت هذه السياسة العلوية هي سياسة حكام الثورة منذ
الخمسينات فيما بعد .

وألغى محمد على الالتزام وهو نظام جباية الضرائب الذى كان معمولاً به لأكثر من عشرة قرون وكان السبب الرئيسى في سوء الأحوال الاقتصادية للفلاح المصرى وشكواه المزمنة . لأن الالتزام كان قاصراً على حفنة من المعاليك أو الأعيان . وكان النظام هو أن يجلس صاحب الخراج في جامع عمرو كل سنة ويعرض التزام كل إقليم بمبلغ كذا يدفع مقدماً . فيأخذه ملتزم بعد دفع أموال الالتزام لبيت المال . وينفض مجلس الالتزام . بعدها كان الملتزمون ومعظمهم من المماليك بالقاهرة يؤجرون هذا الالتزام من الباطن لأعيان الناحية أو يوكلون شيوخ البلد عنهم لجباية أموال الالتزام . والكشافون وجنودهم ملزمين بمعاونتهم في التحصيل . وكان الصيارفة وكلهم من الأقباط الذين كانوا يجيدون الكتابة والحساب و يقومون بدورهم بتحديد الأموال المقررة على الفلاحين . وكانت تقديرات هذه الضرائب لا تخضع لقاعدة . وتقديرها كان متروكاً للملتزم يحددها ويفرضها على كل قرية . وكان أهالى القرى ملزمين بتقديم الطعام للصيارفة والعساكر أثناء تواجدهم . فكانت أموال الالتزام كما حسبها نابليون كالآتى :

حصة بيت المال الذى كان يرسل منها جزءاً إلى الأستانة سنوياً . وحصتين للملتزم وأربع حصص للقائمين على تحصيلها سواء وكلاء الملتزم أم الصيارفة . أما العربان فكان لهم حصة حتى لا يهاجموا القرى أو يغيروا عليها . والكشافون (حكام الأقاليم) كانت لهم حصص عينية من المواشى والغلال . لهذا لم يبق للفلاحين شئ يذكر . ويعتبر المؤرخون أن من أهم إنجازات محمد على إلغاء الالتزام . لكن على الجانب الآخر أصبح ٧٥ ٪ من الأراضي ملكه وملك أسرته وكبار موظفيه من الأتراك . يعمل بها الفلاحون بالسخرة ويلبون مقابل . وكانت هذه الأراضي يطلق عليها الدائرة السنوية . وبقية الأراضي كانت أبعديات ووسايا للأعيان وكبار الموظفين وما تبقى كان أراضي خراجية وزعت على الفلاحين ليكون نصيب الفلاح ثلاثة أفدنة في مقابل العمل سخرة في أراضي الباشا والعمد والمشايخ والأعيان . وكانت هذه الأراضي لا يحق للشخص بيعها أو التصرف فيها . هذه قصة الالتزام .

وانجازات محمد على كانت كلها تهدف تحقيق طموحاته . وكانت سياسته تخضع لفكرة إنشاء جيش قوى وإمبراطورية له . لهذا كانت كل مشروعاته ومدارسه ومصانعهِ وتوسعه في الزراعة لخدمة الجيش وتجهيزه . فنراه ينشئ الترسانة البحرية لإنشاء الاسطول ومصنع الطرابيش بالعباسية لأمداد عساكره بالطرابيش والقايشات وصوف العسكرى . وكانت كل المدارس التى يطلق عليها المكاتب جميعها مدارس عسكرية يجند فيها الأطفال إجبارياً لتدريبهم

على الطاعة والولاء له . بعدها يتخرجون بها ليتخرجوا أنفارا (جنود) أو صف ضباط معلمين .
ونادرا ما كان يتخرج من مدارس العليا ضباط مصريون . لأن معظم الضباط كانوا من
الشراكسة ليضمن ولا هم له . وكانت الدراسة بالمجان يقدم للتلاميذ فيها الإقامة الدائمة والاكل
واللبس ومصاريف اليد بلا مقابل طوال مدة الدراسة والتعليم والتجنيد في الجيش . وكلها فترات
متصلة كان الشخص ينقطع فيها تماما عن أهله ولا يراهم . وقد تصل المدة لأكثر من عشر
سنوات . فكان المصريون يعتبرون الداخل مدارس محمد على مفقودا والطالع منها مولودا . لذلك
كرههم في التعليم ونفروهم من الجهادية . ولم يستثن من هذا التجنيد سوى الصبيان الذين
يتربون على الكتاتيب لحفظ القرآن . أما الباقي فكان يؤخذون عنوة لمكاتب محمد على . فأصبح
في هذه المدارس هؤلاء الصبيان موظفين في الحكومة . لهذا كان التعليم بمثابة جندي وليس
مسألة تربوية . فإذا كان اليوم فشل الابن في التعليم كارتة لأسرته نجد أيام محمد على إستمرار
الابن في مدارس مصيبة . ولو فر التلميذ منها كان الابن والآب يسجنان ويضريان بالكراييج .
ويعتبر هذا هروبا من الخدمة العسكرية . فاهيك عن سوء المعاملة والسباب أثناء التدريب . كل هذا
وصفه بالتفصيل على مبارك في مذكراته . فالتجربة القاسية التي مر بها في هذه المدارس متحملا
المعاملة اللاأدمية بها جعلته فيما بعد يغير من نظام التعليم أثناء حكم الخديو إسماعيل وينشئ
التعليم المدني (الأهلى) . وألحق هذه المدارس بالجهادية لتشرف عليها وفصلها تماما عن هذا
التعليم الأهلى الذى إستحدثه .

أما المدارس العليا فكانت مدارس عسكرية لامداد الجيش بالضباط المؤهلين . حتى مدرسة
الأكسن كانت مهمتها الأساسية ترجمة العلوم الفرنسية العسكرية وطبعها بالمطبعة الأميرية لتوزيع
كتبها على طلاب المدارس . وكان كل مدرسيها من الفرنسيين علاوة على أشرف الجنرال (ستيف
) على الجيش المصرى . وهؤلاء الخبراء الفرنسيون كانوا مدربين على الحروب الميدانية في جيش
:إبليون ومعاركه ، لهذا دربوا الجيش المصرى على تكتيكاتها ونهضوا به . وهذا الجيش حقق به
محمد عل إستقلاله بولاية مصر عن الباب العالمى . وهذا الاستقلال كما يقول عبد الرحمن
الراشدى : ثمرة الحروب التى خاضها في عصره . تلك الحروب التى بذلت فيها الأمة أرواح
عشرات الآلاف من زهرة أبنائها سقوا أديم الأرض بدمائهم في ربوع مصر والسودان وفي
صحارى الجزيرة العربية وجبال كريت والمورة ويطاح سورية والأناضول وفي قاع اليم بمياه
البيضان وعلى سواحل مصر والشام . فلا جرم أن كان الجيل الذى عاش في عصر محمد على هو

أكثر الاجيال عملا وتضحية في سبيل تكوين مصر المستقلة . فالحق يقال أن مصر قد ألفت بأبنائها سخرة في أتون جيش محمد على وألفت بأبائهم سخرة أيضا . . في أرض محمد على . فالشعب الذى بنى مصر الحديثة أيامه بناها دون أجر من ولى النعم لتحقيق طموحاته . فخاض هروبه بالكرباج والسجن والمهانة فكانت السلطة سيفًا وسلطانًا فوق رقاب المصريين . حتى أصبحت هذه الكلمة في القاموس القومى معناها التعذيب والجلد والقبض والترحيل إلى المجهول . فالسلطة هى السخرة عندما سخرت الآلاف من الفلاحين ورحلتهم بلا هوادة أو رحمة لحفر قناة السويس . والسلطة هى التى سخرت الفلاحين في حفر الترع والرياحات وبناء القناطر الخيرية والمصارف الأميرية ومد خطوط السكة الحديدية بين القاهرة والإسكندرية . كل هذا بلا مقابل ليتصور الآلاف جوعا وعطشا متعرضين أثناعا للهلاك . كل هذا جعل عبء زراعة الأراضى بما فيها أراضى الباشا ولى النعم وعزيز مصر كما وصفه كتاب السراى يقع على الشيوخ والنساء . لأن الأطفال لم يتركهم محمد على . فقد جندهم في مدارسهم فانخفضت محصولية الأرض رغم التوسع الزراعى . لهذا كله كره المصريون السلطة التى هى الحكومة .

وفتوحات محمد على حيث زج بجيشه كانت إلى مجاهل أفريقيا للسيطرة على طرق التجارة الأفريقية حيث الجهارات والعاج والذهب في السودان . كما هدف من وراء حملته على السودان مطاردة فلول المماليك الذين هجوا للنوبة بعد المنبحة . فخشى أن يؤسسوا لهم دولة بشمال السودان ويهددوه . واتجه للحبشة لتأمين منابع النيل . ووصل بقواته إلى شرق البحيرات بجنوب السودان لهذا الغرض . حيث خشى نضوب مياه النيل أو منعها عن أبعدياته . وحربه للوهابيين الأصوليين في نجد ليس مجاملة للباب العالى كما يفهم لكنها كانت تحالفا معه على وأد إفتناضة عربية في الجزيرة . وهذا معناه ضرب البعث العربى الذى سيهدد الوجود العثمانى في العالم العربى . فالسلطان ومعه محمد على الذى أصبح يحكم مصر حكما ذاتيا خشيا من ثورة الوهابيين التى باتت تهدد حكمهما . والدولة العثمانية كانت تريد إسلاما على الطريقة التركية . فالوهابيين كانت دعوتهم أصولية للعودة إلى الإسلام مع نبذ البدع والضلالات . فكانوا مصلحين ولم يكونوا مرتدين لهذا حاربهم محمد على وشنع العثمانيون بدمرتهم . فدفع بالمصريين ليحاربوا أخوة لهم في الإسلام يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولم يقولوا كما قال العثمانيون السلطان ظل الله في الأرض . وهذه الظلال ظلمت وأرتشت وفسدت وفسقت .

ومحمد على أو الوالى العجوز كما وصفه هولت في كتابه (مصر والهلل الخصيب) قد

حقق الحكم الذاتي لمصر . وورثه لأبنائه من بعده . لكن الجيل الذي خلفه محمد على من المصريين أصبح في موقف جعله يتطلع إلى تغييرات جذرية في بلاده ولا سيما الأجيال التي سافرت إلى فرنسا حيث رأت الدنيا من حولها . فكانت في جرة فعلا وطلعت برة . فحركات الحضارة هناك فاستوعبها أبنائها . وعادوا على أمل إجراء التحديث في البلاد . فرأى هؤلاء المبعوثون فيما رأوه شعوبيا تقدر الحرية وتمارسها بلا غبن . ووجدوا فيها الديمقراطية والعدالة والمساواة مما حقق رفاهية هذه الشعوب . عرفوا المواطنة والوطنية والمشاركة في حكم بلادهم . فوجدوا الشعب الفرنسي يوجه حكومته والحكومة تنصاع للإرادة الشعبية ولا تسوق الشعب بالسخرة والعصا والكرياح فعاد المبعوثون من بعثاتهم وكلهم أمل في النهوض ببلادهم . لكن محمد على تلقفهم وزج بهم في أتون حروبه ليحققوا طموحاته . وأفكارهم تهامسوا بها . وامتدت إلى الجيل التالي في الربع الأخير من القرن الـ ١٩ .

ومحمد على كان عنصري النزعة وكان يتعالى على الشعب المصري ويحتقره وهذا ما بينته عفاف لطفى السيد في كتابها (مصر في عهد محمد على) حيث بينت أنه كان يعتز بتركيبته التي كان يتحدث بها أمام السفراء والجميع . وتكلمه بالتركية - كان - حتى لا يتقصد بالمصريين . لأنه كان هو وأبنائه وحاشيته يتعالون عليهم بل يحتقرونهم . وكانوا يعتبرونهم عبيدهم أصحاب الجلايلب الزرقاء . وكانت اللغة الرسمية في النواوين والمدارس هي التركية وكان الموظفون بالنوالة العليا من الأتراك والفرنسيين والاقباط واليهود الذين يجيدون التركية . ولهذا نراه قد عزل مصر تماما عن العالم العربي . لينتزع منها هويتها العربية لا سيما وأن دعوة الخلافة العربية قد إنبعثت على أيدي الوهابيين فنادوا بأن يكون الخليفة عربيا قرشيا وليس تركيا أناضوليا . وهذا ما جعل محمد على التركي النزعة يهب بالزج بقواته لؤاد هذه الدعوة العربية في مهدها قبل إعلانها قيام الخلافة الاسلامية في مكة أو المدينة وليس في الأستانة . فحرب محمد على لقتل الوهابيين ليس تقربا أو حبا للسلطان كما توهم المؤرخون لكنه حارب كرها للعرب لأن هذه الدعوة كانت ستلقى هوى لدى الأمة العربية مما سيهدد حكمه . فعرب شبه الجزيرة لهم أبناء عمومة في مصر بالصعيد والبحيرة والشرقية وكانوا هم أيضا يروجون هذه الأفكار بل ثاروا وحاربوا المماليك من قبل مطالبين بحكم عربي قرشي وإحياء الخلافة الاسلامية الراشدية . لهذا نجد محمد على يقصى المصريين المسلمين عن الوظائف العامة بدولته . والحكم العثماني طوال تاريخه لم يفرض آدابه أو لغته . ولم يروج لعاداته وتقاليده . لكن محمد على كما يقول شفيق غربال في كتابه عن محمد على

بين أنه فتح مصر للغة الترك وأدائها . واندثر لهذا التراث العربى من مصر . وأهل الصفوة كانوا من الأتراك والمماليك وأسرى المودة والسودانيين . رباهم على التركية لغة ولسانا وعادات وتقاليده ليضمن ولاهم . كما ضم إلي مجتمع الصفوة التركى النصارى من مصر والشام . هكذا قال فربال في كتابه (محمد على الكبير) الذى نشره في الذكرى المئوية لوفاة وكتبه بتكليف من الملك فاروق وقتها .

ومصر في عهد محمد على كانت تعج بالأوربيين ولا سيما بالفرنسيين . ولم ينتبه أن هؤلاء إستعمار مقنع . فوجودهم كان له أثره السىء فيما بعد . ولا سيما في عصر إسماعيل . وكانوا سببا مباشرا في جلب الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م .

والمؤرخون يلومون عمر مكرم على إتيانه بمحمد على وفرضه على الأستانة ولم يول مصريا . ومن بين هؤلاء المؤرخين الجبرتى الذى علل موقف عمر مكرم بأنه أراد أن يأتى بقائد محنك يواجه المماليك ويحد من طغيان الألبان وقد أمل عليه خيرا .

وفي عام ١٨٤٨ م . عزل إبراهيم باشا ابن محمد علي أباه لأنه كان قد خرف لكبر سنه . وقد أفتاه بذلك المشايخ . وتولى الولاية عدة شهور مات بعدها ليخلفه عباس حلمى عام ١٨٤٩ م بعدها مات محمد على في نفس العام .

وعهد محمد على كان كله غلاء فاحشا . حيث بلغ سعر الخبز عشرة أمثاله في الأيام الخوالي كما يقول الجبرتى الذى كان يمثل بقلمه وكتابات معارضة قوية لمحمد على . فنراه لم يرض عنه ولم يرض محمد على عنه طوال حكمه . ولهذا نراه يصف إبراهيم باشا ابن محمد على عندما أرسله للصعيد للقضاء على المماليك والبدو هناك فيقول : وليس ببعيد على شاب جاهل سنه دون العشرين عاما وحضر من بلده ولم ير ما هو فيه . لم يؤدبه مؤدب . ولا يعرف شريعة ولا ماثورات ولا منهيات . لأنه فعل بالصعيد ما لم يفعله التتار ببغداد . ولهذا كانت يوميات الجبرتى إبان حكم الأسرة العلوية حتى قيام ثورة ١٩٥٢ ممنوعة من النشر أو الطبع أو التداول حتى لا يعرف الشعب المصرى حقيقة عصر محمد على كما صوره الجبرتى كشاهد عيان . ففي كتاباته يصف هذا العهد بعهد الظالمين والظلم . حتى نراه في لومه لعمر مكرم الذى جلبه يقول : وأما السيد عمر مكرم الذى وقع له بعض ما يستحق . فمن أعان ظالما سلب عليه . ولا يظلم ربك أحدا وقد كان محمد على قد نفاه في دمياط . هذا عهد محمد على بما له وعليه وقد أوجزه الجبرتى عندما وصفه بقوله : فلا يهنا يعيشه في الجملة إلا من كان مكاسا (جابى ضرائب) أو في خدمة

خدم الدولة .

وفي القرن الـ ١٩ شهدت مصر ثلاث إنتفاضات للفلاحين ضد محمد على والخديو إسماعيل . وكلها كانت في الوجه القبلى . وقد حدثنا على مبارك عن هذه الانتفاضات في كتابه (الخطط) . والانتفاضة الأولى كانت أيام حكم محمد على عام ١٨٢٠ م . في مديرية قنا ببلدة قفط وما حولها حيث أقصى الفلاحون رجال الادارة وطردهم وعينوا بدلا منهم . ولم يستطع جيش محمد على إخمادها إلا بعد شهرين وبصعوبة . والانتفاضة الثانية كانت في الأقصر حيث امتدت منها إلي إسنا وقنا عام ١٨٢٣ م . إبان حكم محمد على أيضا . وطالب الثائرون بإقصاء محمد على عن الحكم . وانتقم منهم محمد على بوضع زعماء هذه الثورة في قوهار المدافع المنطلقة لارهاب الثوار . أما الانتفاضة الثالثة . فكانت أيام الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٥ م . واشتهرت بحادثة قاو . وشبت جنوب مدينة أسيوط . وأرسل الخديوى الجيش ودمرت مدافعه قرى قاو والريانة والقطرة والشيخ جابر وهج الأهالى إلي الجبال . وكان سبب نشوب هذه الثورة إجبار الخديوى الفلاحين على العمل بالسخرة في أراضيها الشاسعة في الوجه القبلى .

بهاية عصر التنوير

بدأ عصر التنوير بالحملة الفرنسية في أواخر القرن الـ ١٨ وتولى محمد على في مطلع القرن الـ ١٩ . وكان لظهور التنوير أكبر الأثر في العالم العربى قاطبة وأفريقيا عامة . فلقد كان جيش محمد على وأسطوله ثانى قوة عسكرية في العالم بعد إنجلترا . وهذا تحقق بفضل الخبراء والقواد الفرنسيين وعزيمة المصريين الذين إستوعبوا التكنولوجيا وقتها . وبنى العمال والفنيون المصريون في الترسانة البحرية بالاسكندرية ثانى أسطول بحرى في العالم . مما جعل الدول الأوربية تجتمع معا بأساطيلها لتدميره بقيادة إبراهيم باشا عندما كان يحارب ثورات المورة ضد العثمانيين فانقضت القوات البحرية الاجنبية عليه وهو راىض هناك بدون أى مقدمات .

وتنبه العالم العربى إلي أهمية التحديث بعدما رأى مصر في عهد محمد على الذى جعل التعليم في مدارس قاصرا على المصريين والأتراك . لكن سعيدا وإسماعيل تحمسا لاستقبال البعثات التعليمية العربية في هذه المدارس علاوة على الأزهر الذى كان يؤدى دوره التقليدى في التعليم الدينى بعيدا عن تدخل الولاة . والمطالع في دار الوثائق القومية على الرسائل الخديوية سيجد رسائل متبادلة بين سلاطين المغرب والخديو إسماعيل يطلبون منه فيها السماح للطلاب المغاربة بالالتحاق بالمدارس المصرية ولا سيما المدارس العليا كالطب والهندسة والصيدلة لأن

التعليم في عهده خطا خطوات كبيرة بفضل السياسة التعليمية التي وضعها على باشا مبارك .
مما جعل تركيا تطلب من مصر المناهج التعليمية لادخال العلوم المصرية المصرية في بلادها .
وانهالت البعثات التعليمية من بلدان المغرب وغيره من العالم العربي شرقه وغربه بما فيها الشام
للتلقى العلوم وتدريب على الصناعات المتطورة في مصر . وكانت مصر تقدم أيام اسماعيل هذه
المعونات لأى عربى يلتحق بمدارسها بلا مقابل . بل كانت تتحمل نفقات هذه البعثات بالكامل .
فتحت مصر الأزهر ومدارسها ومعاهدها ومصانعها ومطابعها أمام أبناء الأمة العربية إبان عهد
إسماعيل ليتعلموا العلوم الحديثة في الطب والفلك والزراعة والهندسة . كما ألحقهم بالمدارس
العسكرية ليتعلموا ويتدربوا على فنون القتال . وكان الأزهر يستقبل الوافدين ويقدم لهم الكسوى
والجراية والمسكن . ليرجع أبناء العالم الاسلامى بعد تعليمهم دعاة ومبشرين في آسيا وأفريقيا
وتركيا نفسها . وكان به أورقة تضم أبناء كل جالية كالرواق الشامى والجاوى والهندي والمغربي
والصومالي والتركي وغيرها من الأروقة التي مازالت حتى اليوم . وهي بمثابة مساكن للطلبة .
يقيمون فيها بالمجان .

عباس يحكم مصر

تولى عباس الأول كما أشرت في حياة جده محمد على خلفا لعمه إبراهيم . وتبعه سعيد
إبن محمد على وإسماعيل إبن إبراهيم . وهؤلاء الثلاثة عباس الأول وسعيد وإسماعيل نراهم قد
حدوا علاقاتهم بالباب العالي والقوى الأوربية . فنراهم قد تطلعوا إلي التنظيم الداخلي للبلاد كما
يقول هولت . وانحسر تفكيرهم وطموحاتهم في إقامة إمبراطورية أفريقية بعيدا عن نفوذ السلطان
وتدخل القوى العظمى . إلا أن الولاية الوراثية للأسرة العلوية قد أصيبت باحباط بعد خلع
الخديو إسماعيل عام ١٨٧٩ م . فنرى عباس الأول يكره الأوربيين ويتخلى عن صداقة الفرنسيين
بالذات . فعزل الأجانب من الوظائف واستغنى عن خدماتهم وخبراتهم وخسر فرنسا عندما إلتجأ
إلي إنجلترا مما أثار عليه الباب العالي الذي كان يخطط لضعافه أو الاطاحة به ليطبق
الاصلاحات والتنظيمات العثمانية التي طبقت في كل الولايات ما عدا الولاية المصرية . وسنحت
الفرصة للباب العالي لفرض هذه التنظيمات عندما وافق عباس لإنجلترا عام ١٨٥١ م . على مد
خط سكك حديد بين القاهرة والاسكندرية لتسهيل نقل تجارتها وبضائعها من مستعمراتها بالهند
إلي السفن البريطانية لتحميلها إلي بريطانيا عبر الأراضي المصرية من البحر الأحمر . وغضبت
تركيا وعارضت هذه الاتفاقية . ورفض السلطان التصديق عليها . لكن إنجلترا تدخلت لدى الباب

العالي بعدها وافق عباس على قبول هذه التنظيمات ، ومن وقتها حلت إنجلترا محل فرنسا كوسيط ما بين والى مصر والباب العالي ، وفي عام ١٨٥٤ م . مات عباس مخنوقا بقصره فم بنها وتولى سعيد الولاية حسب فرمان ١٨٤٠ م . الذى حدد ولاية مصر لأكبر أسرة محمد على وأيامه إستعاد الفرنسيون نفوذهم بمصر لأنه قد تعلم في فرنسا ضمن بعثة الأنجال التى كانم تضم على مبارك . وكان تربطه بفرد يناند ديليسبس صداقة منذ الصغر عندما كان أبوه قنصلم لفرنسا في مصر لهذا أعطاه امتياز حق حفر وشق قناة السويس بمنتهى السهولة . وهذا الامتياز فجر أزمة بين إنجلترا وفرنسا . وكانت العلاقة بين سعيد وفرنسا وطيدة لدرجة أن نابليون الثالث لما هزمت قواته بالمكسيك إبان الثورة هناك ضد الاستعمار الفرنسى إستنجد بسعيد ليرسل الجيش المصرى لخماد هذه الثورة . فأرسل القوات المصرية إلى المكسيك وحاربت في الأفعال هناك وأحرزت الانتصارات وأخمدت هذه الثورة .

عصر سعيد :

كان عهد سعيد رخاء لمصر ويعتبر عصرها ذهبيا للفلاح المصرى لأنه وزع الأرض على الفلاحين وخفف الضرائب وألقى السخرة وفاض النيل في أيامه . وزاد الدخل القومى زيادة لم تتحقق أيام محمد على . لكن سياسة سعيد كانت ضد التعليم فنراه يقول : الأمة الجاهلة أسلس قيادا من الأمة المتعلمة . وبعد هذه المقولة أغلق كثيرا من المدارس وأهملها . وسرح المصريين من الوظائف والجيش ومن بينهم على مبارك كبير مهندسى الجيش المصرى وقتها . وأبقى على الأتراك في وظائفهم . عكس إسماعيل الذى أخذ يهتم بالجيش فاستدعى بعدما تولى عام ١٨٦٣ م . بعثة أمريكية من الضباط الذين مارسوا الحروب إبان الحرب الاهلية الأمريكية . وكما يقول لونج في كتابه (حياتى) من أنه إستعان بهم لتدريب الجيش المصرى .

عصر إسماعيل :

في مطلع عصر إسماعيل كانت مصر خزانها عامرة حتى أنه إقتنى ثروة طائلة من ضياعه الشاسعة في الصعيد . وكان ظهوره كوال واسع الثراء جعله شرها للعال . والتفت حوله حاشية من اللصوص والأفاقيين . وهذه الشراهة إمتدت إلى أراضى الفلاحين . فاستولى عنوة وبالاختيال عليها حتى أصبح يستحوذ على خمس أراضى مصر والباقى ملكه للأتراك والأجانب . ورفع الأموال الأميرية إلى أربعة أمثال ماكانت عليه أيام سعيد باشا مما أفلس الفلاحين . وكان

مستشاره الخالى إسماعيل صديق الذى أشتهر بالمفتش . وكان أصله جزائريا . وكان يعمل سايسا في إسطنبول خيول الخديو ارتقى إلي أن أصبح وزير مالىته .
والخديوى إسماعيل أدخل لأول مرة الأساليب الحديثة والميكنة الزراعية في أراضيه بعدما نهب أراضى الفلاحين . وكان العمد والمشايخ يجرونهم بالسخرة للعمل في الدائرة السنوية وفي أراضيه . وكانوا يتبعون معهم سياسة الجلد بالكرابيج والحبس لقسرهم على العمل بالمجان . كما أقام المصانع فوق أراضيه مستعينا بالأجانب لإدارتها وكانت مرتباتهم خيالية . ورغم هذا كله كانوا ينهبونه لدرجة أن الأراضى والمشروعات وتطوير أساليب الزراعة كل هذا لم يحقق عائدا يعادل نصف ما كان يدفعه الفلاحون كضرائب لسعيد باشا . لأن الدائرة السنوية كان وراعا إسماعيل المفتش أكبر لص . وأصدق وصف للخديو إسماعيل ما قاله لسن وزير المالية الانجليزى في عهده عندما قال : الخديوى يعصر مصر لايتزأز آخر قرش ، بعدها قدم إستقالته للقنصل البريطانى .

وفي عام ١٨٧٧ م . ألغى إسماعيل السخرة والرق رسميا في مصر ولم يكن هذا حبا في المصريين بل إكراها من الانجليز . والقصة أن ديلسيس إشتراط علي الحكومة المصرية في قرار حق إمتياز حفر قناة السويس أن تقدم مصر للشركة ٨٠ ٪ من الأعمال يعملون في الحفر كسخرة بلا مقابل . والشركة تدفع قرشا يومية لكل عامل من الـ ٢٠ ٪ الباقين . وانجلترا بالطبع كانت لمسألة حفر القناة بالمرصاد بعدما ضاعت منها هذه الصفقة . فالفرنسيون سوف يسيطرون على هذا الأمر الحيوى الذى يوصل إلي مستعمراتها بالهند . لهذا أخذت تشن حملة دولية ضد الحكومة المصرية لأنها تتبع السخرة التى أهلكت الآلاف من الفلاحين . وحاول إسماعيل تحسين صورته في الغرب بعد غرقه في الديون الأجنبية . فعنع السخرة لكن فرنسا حكمت عليه بدفع ثلاثة ملايين جنيها كتعويض للشركة في مقابل إلغاء السخرة مع دفع تكاليف حفر ترعة الاسماعيلية . وكانت الشركة مسئولة عن نفقاتها . بعدها ألغى إسماعيل السخرة والرق عام ١٨٧٧ م . لهذا السبب .

والخديو إسماعيل إستطاع توطيد علاقاته مع السلطان بالآستانة وحاشيته عن طريق الهدايا والرشاوى . فحصل على فرمانين . الأول فرمان بتعديل نظام وراثه حكم ولاية مصر لتصبح قاصرة على أكبر أبناء الخديوى وليس على أكبر أفراد أسرة محمد على . والفرمان الثانى جعل مصر خديوية وأصبح إسماعيل يلقب بالخديوى . وكلمة خديوى معناها الملك بالفارسية .

وإسماعيل حصل على هذا اللقب بعدما قدم هدايا باهظة وبعدما أرسل الجيش المصرى للحرب في جزيرة كريت لمساندة السلطان ضد الثورة هناك . وهذا اللقب حمله إسماعيل تمييزا له عن باقى الولاة الذين كانوا يحملون لقب الباشا في بقية الولايات العثمانية . وهذا اللقب تلقب به ثلاثة إسماعيل وتوفيق وآخرهما الخديوى عباس الثانى . لكن إنجلترا عام ١٩١٤ م . بعد إعلانها الحماية على مصر وعزلها لعباس وفصل مصر عن الدولة العثمانية وإعلان السلطنة بها ألغت منصب الخديوى وخالفت فرمان عام ١٨٦٦ الذى قصر وراثته حكم الخديوية على أكبر أبناء الخديو ولجأت إلي اتباع ما جاء بفرمان عام ١٨٤٠ م . فولت السلطان حسين وبعده السلطان فؤاد الذى أصبح عام ١٩٢٣ م . ملكا على مصر . وظلت مصر ملكية حتى عام ١٩٥٣ م . بعده أصبحت جمهورية مصر .

وكانت سياسة الخديو إسماعيل هي إنشاء إمبراطورية أفريقية بعيدا عن النفوذ الأوروبى والعثمانى فاتجه إلي التوسع في وسط أفريقيا لأنه لقن الدرس الذى ناله جده محمد على عندما حاول التوسع شمالا في الشام والناضول فواجه الدول الاستعمارية التى تأمرت وحطمت إسطوله الرابض في مياه نفايرين شمال اليونان ببصر إيجة . لهذا كان قادة جيش إسماعيل من الأمريكان ولم يستعن في فتوحاته بغيرهم من الاجانب حتى لا تشاركه هذه الدول الكبرى في هذه الفتوحات التى ادعى فيها أنه يصفى جيوب مراكز الرق في أفريقيا الوسطى . ولهذا بلغت إمبراطوريته البحيرات الاستوائية بجنوب السودان وضم بعض مناطق الحبشة والصومال واستولى على إريتريا بالأسطول البحرى وضم له مصروع وزبلج على سواحل شرق أفريقيا . والعق هنا يقال أن هذه الفترحات كانت صحوة أفريقية حيث قام الجيش المصرى بإقامة المدن والمستشفيات والمدارس مما انتشل شعوب هذه المنطقة من وهدة تخلف القرون الأفريقية المظلمة . ووقفت الأزمة الاقتصادية التى عانى منها إسماعيل ضد هذا المد المصرى المتراكم في قلب أفريقيا التى كانت فعلا أرضا بلا صاحب . لهذا لما احتلت مصر عام ١٨٨٢ م . كان من مخططات بريطانيا مع الدول الاستعمارية الكبرى هو تقليص النفوذ والتغلغل المصرى في أفريقيا . فلما انسحبت مصر من هذه المناطق تسابقت ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا للحل محل مصر ودار صراع رهيب حول إستعمار أفريقيا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأصبحت القارة الأفريقية السوداء والعذراء منتهكة من الدول الاستعمارية التى استنفدت ثرواتها ونهبت شعوبها وصدر أهلها كعبيد لأمريكا (القارة الجديدة) . فكانت تجارة الرقيق بواسطة الاوربيين تجارة من أحط وأقذر التجارات في

التاريخ الانساني كله . وهذه وصمة عار لأوربا . فالمصريون لما ذهبوا إلي هناك أيام إسماعيل الذي ألقى الرق في مصر كانوا لحماية الأفريقيين من عصابات خطف الأفارقة ومداومة قراهم وتصدير الأسرى من مراكز تجميع الرقيق في غرب أفريقيا لنقلهم بالسفن مع المواشي إلي أمريكا التي بناها هؤلاء الأفارقة الذين سيقوا إلي مصائرهم المجهولة ليسوموا سق التعذيب والرق والخلع لهم من أصولهم الأفريقية حيث زج بهم في العالم الجديد (الأمريكتان) . وأصبحوا سجناء هاتين القارتين سجناء أبديا .

وبعد حصول إسماعيل على لقبه سادت العلاقات بينه وبين السلطان لأنه أخذ يتصرف مستقلا عن الباب العالي متناسيا أنه وال تابع له . لهذا أطلق إسماعيل على نفسه لقب (عزيز مصر) كما كان أبوه محمد على يلقب نفسه . وهذا اللقب إشارة إلي أن مصر فرعونية وليست عثمانية . ولما زار إسماعيل أوربا عام ١٨٦٩ م . لدعوة ملوكها وأباطرتها لحضور حفل إفتتاح القناة وجه الدعوة باسمه متجاهلا السلطان . ولهذا بعض الملوك تخرجوا من حضور الحفل فأرسلوا نوابا عنهم ولا سيما وأن السلطان أو عز إليهم بمقاطعة هذا الحفل . ولما وصل مبعوث إنجلترا إلي السلطان بالاستئذان يستأذنه في حضوره لحفل الاسماعيلية كلفه أيضا بأن يكون نائبا عنه في حضوره . وفي الاسماعيلية أقيم حفل خرافي . ولما بدأت مراسيم الاحتفال وأخذ الحاضرون يشيرون بالخدوي إسماعيل . وحسب تعليمات السلطان للمندوب الانجليزي وهي أن يدخل الحفل متأخرا . فلما دخل السرايق هب قائلا بصوت عال : إدعوا للسلطان أمير المؤمنين . فوقف الجميع بما فيهم إسماعيل مبهورا وحوله الملوك وكبار الشخصيات يدعون بصوت عال . وكان هذا الاحتفال خياليا لدرجة تناهست الصحف العالمية في وصفه عدة أسابيع كان فيها حديث العالم عن فخامته . وفي الاحتفالات على مسرح دار الاوبرا التي أقيمت خصيصا لهذا الاحتفال عرضت رائعة فيردى (أوبرا عايدة) التي كان الخديوى قد كلفه بوضع ألحانها لتعرض ضمن برنامج حفل إفتتاح القناة . كل هذا البذخ وخزائن مصر كانت قد أنضبت والخديوى المفلس كان الدائنون يلاحقونه أمام المحاكم المختلطة . وكانت الأموال تجمع من الفلاحين بالكرباج لدرجة أنهم باعوا مواشيهم وبوابهم . وأنفقوا كل مدخراتهم ليوفوا فردة الحكومة . وهذا القسر الضرائبي الجاهم للاستدانة من المرابين اليهود والأروام واليونانيين . حتى بلغت مديونيات الفلاحين وحدها حوالي ٢٠ مليون جنيه لهؤلاء المرابين . فرهنوا لهم أراضيهم وبيوتهم وأعلنوا إفلاسهم . حتى الخديوى نفسه من كثرة ديونه أعلن بواره إفلاسه معهم

، وكان الخديوى إسماعيل ديكتاتورا ذكيا فلما أقيمت خطبة العرش الخديوى عام ١٨٦٦ م وهى أول خطبة عرش فى مصر وجه الخديوى إلى مجلس شورى النواب خطبته يعدد فيها مآثر جده محمد على وأبيه إبراهيم باشا على مصر والشعب المصرى . بين أن مصر قبلهما كانت زرية . فرد عليه نواب الأمة بعريضة يدعون فيها (. لأفندينا الأفخم بنوام سعوده) . لأن المجلس كما يقول (عبد الرحمن الرافعى) كان (شرابة خرج) . وكأن قدر مصر أن تكون مجالسها النيابية والتشريعية شرابة خرج لكل حاكم . حتى باتت ديكتورا يتزين بها ومظهرا للديموقراطية زائفة . فمجلس شورى النواب أيام إسماعيل طرد إثنين من المعارضة بعدها وقف الخديو إسماعيل أمام المجلس ملوحا وفى يده ورقة مطوية بعدما تفشت أخبار سرقاته وتبديده . فقال أمام نواب الأمة : هذه صحيفتى بيدي فلسنا نحن لصوصا أو مبيدين . ثم هددهم وتجاهلهم قائلا : لا تسألونى بعد الآن فانا لست مسئولا أمامكم . فصفق له الحاضرون لخطابه التاريخى والجامع الشامل ومثل هذه اللحظة عرفت مصر النجل السياسى الذى لازمها ... وأهدر الخديو إسماعيل الديمقراطية بلا موارد وعملانية متحديا نواب الأمة الذين اشترى ذممهم بتعييناته لهم فى الوظائف العامة والإدارية . فلماذا ظلت المجالس النيابية فى أيدي خديوى مصر نعمة بل لعنة مصر الكبرى . فالمعارضة بها منبوذة وملفوظة من العبد والرب والبقية لا تتطرق عملا بالمثل البوذى لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم إلا ككفرا بمصر . وكم جرت هذه السياسة النيابية المقادة المصائب لها . وبقت بمسامير الخراب فى نعلها . فالديموقراطية بلا ضمانات كالقصور فوق الرمال وكالسراب فى يوم حار

تأثير مصر

مصر والحق يقال قبل حكم إسماعيل كانت بمنأى عن التدخل العثمانى أو الأوروبى فى شئوننا الداخلية ولا سيما الأمور المالية . وكان الخديوى إسماعيل ممنوعا حسب فرمان ١٨٤٠ م من الاستدانة باسم الحكومة المصرية إلا بعد موافقة الباب العالى . فلماذا إستدان بصفته الشخصية من البنوك الأجنبية ولا سيما من بريطانيا حتى وصلت جملة الديون ٢٥ مليون جنيه بفائدة تتراوح ما بين ١٢ و ٢٦ ٪ وهذه كانت أعلى فائدة عرفت البنوك العالمية . وهذه المبالغ أنفقت على الاحتفال التاريخى بافتتاح قناة السويس التى أصبحت غرما لا غنما فى عهده . ولم يستطع الخديوى المفلس توفية الديون أو حتى فوائدها المتراكمة . لأن الأحوال الاقتصادية أصبحت متردية ولا سيما وأن أسعار القطن المصرى إنخفضت عالميا . لأن الثورة الأمريكية

إنتهت وأخذ القطن الأمريكى يتنافس القطن المصرى والأسبانى في الأسواق العالمية . وهذا الافلاس الخديوى أجبر إسماعيل على إستدانة ٧ ملايين أخرى من بنوك إنجلترا . مما جعل الباب العالى يحتج بشدة لدى حكومتها رسميا . لأن هذا القرض بالذات كان بضمان أملاك الدولة . لكن إسماعيل إستطاع بالرشوة والهدايا للباب العالى الحصول على فرمان باطلاق يده في شئون مصر دون الرجوع إلي الباب العالى لأخذ رأيه أو موافقته . فحول بعدها كل ديونه الشخصية وجعلها ديونا عامة على الحكومة المصرية وحصل بهذا على قرض ثالث بـ ٢٢ مليون جنيه . ولشدة شراهة إسماعيل للمال أصدر عام ١٨٧٢ م . قرارا بدين المقابلة وهو عبارة عن تعهد الدولة السنوية بالتنازل عن نصف الضرائب على الأطيان الزراعية لو دفع أصحابها ضرائب ست سنوات مقدما . وفى عام ١٨٧٤ م . طرح إكتتابا عاما بدين الروزنامة تتعهد الدولة بدفع ٩ ٪ فوائد سنويا للمساهمين في تمويله . ورغم هذه الأموال أصبح الوضع المالى سيئا للغاية في مصر . فالديون تتراكم مع فوائدها وهذا جعل إسماعيل يبيع أسهم مصر في القناة بأربعة ملايين من الجنيهات إلي بيت آل روتشيلد الانجليزى . وشجعت الحكومة البريطانية إتمام الصفقة ولا سيما وأن الدولة العثمانية تعانى أيضا الافلاس . وبعد إتمام بيع الصفقة طلب إسماعيل من إنجلترا إرسال لجنة لبحث الوضع المالى في مصر لأن البنوك رفضت تسليفه . فأرسلت لجنة (كيف) للاطلاع على ميزانية الحكومة المصرية . فلما قدمت اللجنة تقابل معها إسماعيل المفتش وزير المالية وقدم لها ميزانية مزورة . وبدهائه أقنع اللجنة بأرقامها الخيالية والمفبركة . بعدها نشر (كيف) تقريره الذى جاء على هوى إسماعيل حيث أعلن فيه أن حالة مصر المالية متينة . لكن هذه اللجنة بنشرها هذا التقرير عالميا أثبتت أن ديون إسماعيل حكومية وليست شخصية عليه . وهذا التقرير تضمن تعليقا على الديون جاء فيه : أن مصر كانت تعانى من الجهل والخيانة والتبذير والنفقات الغير مدروسة . وهذه العبارة تنطبق على كل ديون مصر . فعبد الناصر باع الغطاء الذهبى في البنك المركزى (الأهلئ وقتها) لتسديد الديون . والسادات أعلن في مؤتمر صحفى إستعداداه لرهن أو بيع قناة السويس لتسديد ديون مصر . فالشئ بالشئ يذكر . فديون مصر بلغت عام ١٨٧٥ م . حوالى ٦٨ مليون جنيه . دخل منها الميزانية ٤٤ مليون جنيه والباقى كان سرقات وعمولات أو ما يطلق عليه حاليا خدمة الديون . وبلغ النصب العالمى على خديوى مصر كما يقول (كيف) في تقريره أن الغرب كون مصارف وهمية ومفتعلة كالمصرف الانجليزى - المصرى . والمصرف الايطالى - المصرى . والمصرف الفرنسى - المصرى . وهذه المصارف

انشئتها المصارف العالمية خصيصا لا قراض مصر بفوائد تفوق أسعار الفوائد العالمية ولتبتعد
« هذه المصارف الكبرى عن الشبهات أو الانتقادات العالمية . ولهذا وصف (كيف) هذه المصارف
بأنها انشئت لا قراض الخديوى بفوائد عالية جدا وبشروط موبقة ومجحفة . وبين في تقريره -
أيضا - أن المشروعات التى أقيمت كان مبالغا في أسعارها وأضعاف الاسعار العالمية فبلغ
تكاليف مشروع إنشاء خطوط السكك الحديدية أربعة أضعاف سعره السائد وقتها . أما قناة
السويس فكانت غراما لمصر وليس غنما . لأن الدولة لا تجنى منها شيئا ولا سيما بعدما باعت
حصتها فيها من الأسهم وكانت التجارة العالمية تمر قبلها عبر الأراضى المصرية نظير دفع
مكوس للحكومة المصرية . وهذا إنتهى تحصيله بعد فتح القناة . والحق يقال هنا أن محمد على
عرض عليه مشروع شق القناة فرفضه بشدة حتى لا يجلب عليه أطماع الدول الأجنبية فتتدخل في
شئون مصر الداخلية . وتقرير (كيف) كان ظاهريا مع الخديوى لكن وضع فيه كل الأسباب التى
أدت إلي تراكم الديون . فعادت اللجنة عام ١٨٧٧ م . ومعها مشروع بتأليف لجنة دولية لفحص
ميزانية مصر . وهذا يذكرنا بلجنة صندوق النقد الدولى التى جاءت مؤخرا للقاهرة لاعطاء
خطاب النوايا ولإعادة جدولة ديون مصر .

وهذه اللجنة أخذت تدبر الميزانية المصرية . فباعت إمتياز إستغلال المناجم والتنقيب على
البترول لشركات بريطانية . كما قامت بتصدير عظام الموتى البالية في المقابر لاستخلاص عنصر
الفسفور منها . وضاعفت الجمارك وأسعار النقل والشحن بالسكك الحديدية . وهذا جعل الأهالى
يلجئون للشحن والنقل النهري . وهذه الاجراءات تسببت في كساد التجارة والصناعة في مصر .
وقامت اللجنة بتخفيض مصاريف القصر الخديوى والحد منها وأوقفت صرف مرتبات الموظفين
وسرحت جزءا كبيرا من الجيش بحجة التوفير . لكن هذا الاجراء بالذات كان لاضعاف القوة
العسكرية المصرية للتمهيد للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م . وحاول إسماعيل بكل وسيلة توحيد
هذه الديون العامة بفوائد ثابتة وإعادة جدولتها . واقترح دفع ٢٥ ٪ من الديون الخاصة كفوائد
دفعة واحدة وكتعويضات تستنزل من قيمتها فيما بعد . فأصدر قرارا بإنشاء صندوق الدين
العمومى يقوم بدفع ٧ ٪ فوائد سنويا من القيمة الاسمية لهذه الديون لمدة ٦٥ عاما بعدها تستهلك
نهائيا . وومن إيرادات أربع مديريات علاوة على محافظتى القاهرة والاسكندرية . كما يقوم
الصندوق بتحصيل الجمارك وبيع أراضى الدائرة السنية . وبهذا واجه إسماعيل الادارة الأجنبية
لمزانية بلاده . ولا سيما في أواخر عهده . فأصبح صندوق الدين العمومى يستولى سنويا على

٥٠٪ من إيرادات مصر والباقي كان يتركها للحكومة المصرية . وكان المشرفون على هذا الصندوق بريطانيين وفرنسيين وإيطاليين ونمساويين . ولهم سيطرتهم الكاملة على الميزانية المصرية يتدخلون في أبواب صرفها . ولهذا كانت قراراتهم ضد الإصلاحات والتنمية . ولما تولى رياض باشا الوزارة أصبح لبريطانيا نفوذها على الحكومة المصرية فعينت ولسن وزيرا لبريطانيا المالية . وكان راتبه ضعف راتب رئيس النظار .

وأمام هذا الكساد الاقتصادي والاضرار السياسي اللذين سادا البلاد . أجبرت الدول الأوربية الدائنة لإسماعيل على التنازل لابنه توفيق عن الخديوية عام ١٨٧٩ م . ونفى للأستانة حيث توفي هناك عام ١٨٩٥ م . وكانت مصر وقتها ترزح تحت نير الاحتلال البريطاني تجتر الفقر والديون التي جلبها بطيشه . وليلة وصول الجثمان إلي الاسكندرية بالباخرة غير اللورد كرومر برنامج الأوبرا الخديوية لتمثل أوبرا عابدة رائعة فردى فوق مسرحها والتي مثلت في الاحتفال التاريخي الذي أقامه إسماعيل عند افتتاح قناة السويس . ودفن على موسيقاها جثمانه بالقاهرة . وكان هذا تشفيا من كرومر .

**

*

مصر المصرية

كانت مصر دائما يحتلها مستعمر واحد لكن في عام ١٨٧٦ م . أصبحت محقة من ١٦ دولة بقناصلها ورعاياها بإنشاء المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية . وقصة الامتيازات الأجنبية أن التجار الأجانب في ولايات الدولة العثمانية كانوا رعايا أجنب يطلق عليهم المستامنون . أى أنهم أشخاص منحوا الأمان وحق الإقامة . وكانت الدولة تعاملهم كأهل الذمة وفي القرن الـ ١٨ أصدرت الدولة العثمانية تنظيمات لهؤلاء الأجانب من الناحيتين المدنية والقانونية . وجعلت شكوى الأجنبى يتقدم بها لقنصله ليحكم فيها بواسطة محكمة تعقد في القنصلية . وكان الهدف من وراء هذه التنظيمات تشجيع التجار والتجارة بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية . وهذه التجارة قد راجت فعلا بعد صدور هذه التنظيمات . فالامتيازات الأجنبية كانت في مجملها معاهدات تجارية بينها وبين هذه الدول . لكن مع تهاوى الدولة العثمانية وضعفها أصبحت هذه المعاهدات إمتيازات للأجانب المقيمين الذين يتمتعون بحماية الدول الأجنبية . فاعتبروها حقوقا مكتسبة لهم . فظهرت الحماية القنصلية للرعايا الأجانب . وامتدت هذه الحماية فأصبحت حمايتهم أمام القانون العثمانى في كل الولايات العثمانية . وفي القرن الـ ١٩ توسعت التجارة في مصر ولا سيما بعد إفتتاح قناة السويس ومد خطى السكك الحديدية بين القاهرة والاسكندرية وبين السويس ومحطة كوبرى الليمون بالعاصمة . وزاد عدد الجاليات الأجنبية في مصر زيادة كبيرة وظهرت الامتيازات الأجنبية في شكل إعفاء الأجانب من الضرائب .

الإمتيازات الأجنبية

في ظل هذه الامتيازات ظهرت مشاكل بين رعايا دولة وأخرى حيث كان القناصل يجاملون رعاياهم . لهذا أوعزت الدول الأوربية للباب العالي أن يصدر أوامرا للخديو إسماعيل بإنشاء المحاكم المختلطة . فأصدر بها قانونا عام ١٨٧٦ م . وضعه نوبار باشا رئيس النظار . وتشكلت هذه المحاكم من مندوبين من الـ ١٦ قنصلية ليقوموا بالحكم في قضايا الأجانب حتى ولو كان أحد أطراف النزاع من المصريين أو الحكومة المصرية بما فيها الخديو نفسه . وأحكام هذه المحاكم واجبة النفاذ . وهذه الحقوق القضائية كان يطلق عليها المصريون لفظ الحماية . وبها كان لاحتر

أجنبي أو أى رعية أجنبية اليد العليا في مصر حتى على الخديو ولّى النعم . وأى حكم تصدره هذه المحاكم على أجنبي كان له الحق الاستئناف أمام المحاكم المختلطة ويرحل الأجانب إلى بلادهم لينفذوا فيها الأحكام . لهذا كانوا يعودون إلى مصر بعد مدة باسماء أخرى .

وعلى هذا كان الأجانب يتاجرون في المنعومات ملانية ويدخلون البلاد بلا تفتيش جمركى ويقتلون وينهبون ويدعون كذباً على المصريين بأى تهمة لجرهم إلى أتون هذه المحاكم . لهذا كان الأجانب يقرضون (الفردة) على الأهالى تحت تهديدهم بهذه المحاكم التى أصبحت مؤثلاً للظلم وكانت مكاتب المحامين الأجانب منتشرة في البلاد ليركضهم المصريين عنهم في قضاياهم أمام هذه المحاكم كان مندوبوا القناصل يجاملون رعاياهم ويحاربونهم والمصريون كانوا يجرون أمام مساحاتها لا حول لهم ولا قوة ليقتلوا أمام قضاة لا يرحمونهم ولا يفهمون ما يقال وما يدور من حولهم . فكان المصري يقف كالأطرش في الزفة موكلا عنه محامياً أجنبياً لا يعرف أن كان معه أو عليه لمعظمهم كانوا خربى الذمة . ولهذا صدرت آلاف الأحكام على المصريين كلها زيف وبطلان . وأصبحت هذه المحاكم الظالمة وسيلة ظلم وارهاب وليست أداة عدل وانصاف .

والمطالع لمذكرات نوبار باشا في مصر ترجمة الاستاذ نبيل زكى . سيطالع عن مأساة الامتيازات الأجنبية حيث نرى نوبار يحكى قصة الفلاح المصرى الذى دخل على مدير المديرية ثائراً وحائفاً وهو يلقى بعمامته على الأرض قائلاً للمدير : أنت لا تخاف الله ولا أفندينا . أنت لا تعرف غير القناصل الذين تسجد أمامهم وتعفر جيبك بين أيديهم . وقال المدير لنوبار : مكتوب على الجبين أن أسمع اليوم من يقول الشتائم . وانصرف عن الفلاح الذى التقط عمامته لا عفا . وأصدق وصف لهذا الطاعون الذى اجتاح مصر ما قاله نوبار نفسه : إنها سنوات نهب كل موارد مصر على أيدي أجانب يستنزفون كل قطرة من عرقها ودمائها . وحكام يحتقرون شعب هذا البلد ويرتعون هلعاً أمام أى صعلوك أو محتال .

وكان المصري إذا تعرض لظلم أجنبي يلجأ إلى قنصله بعيداً عن الحكومة المصرية لينال حقوقه وكان القناصل يتدخلون في دعاوى الأهالى ضد رعاياهم . لكن لو كان الأجنبي صاحب الشكوى كان القنصل يحولها إلى أزمة دبلوماسية مع الحكومة المصرية بل يلزمها بدفع التعويضات فوراً عن المصريين لصالح رعيته وقالبا ما يكون مغالياً فيها .

والامتيازات الأجنبية جعلت بعض المصريين يتحايلون بشتى الوسائل للانتساب إلى دولة أجنبية للحصول على الحماية ليعيشوا آمنين في وطنهم . وكان معظمهم ينتسبون إلى الجزائر

وتونس بالذات ليحافظوا على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ومصالحهم وتجارتهم على تراب وطنهم بهذه الهوية الأجنبية . لأن الجنسية المصرية كانت وحدها لا تكفى . وكانت عملة رديئة في هذا الزمن الرديء . وكان الأتراك حانقين على هذه الامتيازات التي سلبتهم نفوذهم ولم تحقق تركيتهم لهم هذه الحماية وهذه الامتيازات . وهذا ما جعل الأمير محمد توفيق (ولى عهد الملك فاروق) يقول معلقا : كان الطربوش العثماني فيما مضى معتبرا فأصبحت البرنيطة في مقام التعظيم والاحترام . لأن هذه الامتيازات أعطت لهلافت أربابا ورعايا الدول التي استعمرها الغرب حصانة تفوق حصانة خديو مصر نفسه .

والشرطة المصرية كانت لا تستطيع القبض على أجنبي أو استجوابه حتى ولو كان متلبسا بجريمة قتل إلا بعد استئذان القنصلية التي يتبعها وفي حضور مترجم منها لحضور التحقيق . وكانت هناك قنصليات مشهورة بسوق السمعة لأنها كانت تعاطل في إعطاء الأذن أو إرسال مترجم للحكومة المصرية . كل هذا كان لاعطاء الفرصة للمتهم الأجنبي ليخفى معالم جريمته أو لمضايقة الشاكي المصري فينصرف عن شكواه . ولما احتلت فرنسا دول المغرب العربي أصبح المغاربة رعايا فرنسيين . والشوام أيام الاحتلال الفرنسي لبلادهم والفلسطينيون أيام الانتداب البريطاني أصبحوا جميعا حماية أجنبية في مصر . وهذه الامتيازات الأجنبية بما فيها المحاكم المختلطة ألغاه النحاس باشا عام ١٩٣٧ م . بعدما وقع معاهدة ١٩٣٦ م . التي عرفت باتفاقية مونترييه . وحدد النحاس في هذه الاتفاقية نهاية هذه الامتيازات وإلغاء المحاكم المختلطة في عام ١٩٤٩ م . وبهذا تخلصت مصر من وباء إجتاحتها ٧٣ عاما .

العرايوة والحياة الدستورية :

كان يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ م . يوما مشهودا في تاريخ الحركة الوطنية المصرية حيث كانت مصر كلها في قبضة إبنها عرابي يشهر بها في وجه الخديو توفيق في وسط ساحة عابدين يقسم باسمها أنها لن تورث بعد اليوم . وخلفه وقف أبناء مصر مصطفى يربون لها إعتبارها ويمسحون من غرتها غواير الزمن . ويواسونها بعد قرون خلت فيها تجتر محتها . فهذا عرابي يقف صلبا غير هباب يطالب باسم الأمة بالدستور والبرلمان والديموقراطية وإقالة وزارة رياض . فانصاع الخديو لمطالبه . وعت الفرحة البلاد . وأخذ المصريون يتعاقبون في كل مكان . حتى في القرى والنجوع كان الفلاحون فرحين بالحرية العرايية . أما الانتهازيون من العمدة والمشايخ فقد وقعوا على عرائض الدستور لعرابي ورفاة كرها في رياض الذي ألفى السخرة وليس حبا في

الدستور أو الديمقراطية . لأن إلغاء هذه السخرة جعلهم غير قادرين على تسخير الفلاحين في أراضيهم وأبيدياتهم . فاقالة رياض كانت على هواهم . كما أنهم لم يكونوا قادرين على مقاومة الطوفان الشعبي الهادر الذي لا حديث له إلا عن الدستور والحرية والديموقراطية والعهد العرابي الجديد .

وفي عام ١٨٨١ م . تمت أول إنتخابات نيابية في مصر وكانت حرة . ولم يتدخل فيها العرابيون ولم يدخلوها . وتشكل المجلس النيابي الجديد وكان افتتاحه عيداً قومياً في البلاد حيث نزح الأهالي من أقصى الصعيد والأرياف ليشهدوا هذا اليوم التاريخي . وامتلئت الشوارع بالزيينات احتفاء بمصر الديمقراطية . والتف المواطنون عن بكرة أبيهم حول مبنى الاجتماع ليحيوا نواب الشعب وفي يناير ١٨٨٢ م . تقدمت الحكومة بمشروع الدستور إلي المجلس لمناقشته وإقراره إلا أن إنجلترا وفرنسا إعتزستا على النظام البرلماني وقدمتا مذكرة احتجاج مشتركة إلي الخديو بقصر عابدين . وهذا الاعتراض كان على هواه لأنه إجهاض لارادة الشعب وردة إلي حكمه المطلق لعبيده كما كان يحلوه أن يسمى الشعب المصري . لكن محمد شريف رئيس الحكومة تجاهل المذكرة تماماً مما جعل إنجلترا وفرنسا يتفاوضيان عن اعتراضهما . وصدر الدستور وكان أول دستور لمصر أطلق عليه دستور عام ١٨٨٢ م . بعده أصبحت مصر دولة دستورية لأول مرة في تاريخها والفضل يرجع لعرابي والعرابين وشريف باشا . وقابل الشعب المصري هذا العمل التاريخي بعدما أصبح له دستوره ونوابه بالأفراح وكانت الأهالي تتسابق في توزيع الحلوى والشرقيات تعبيراً عن فرحتها الغامرة .

ولقد كان لإصدار الدستور وبعث الديمقراطية في مصر أثره على المجتمع المصري فظهرت فيه المحافل والاجتماعات السياسية . وأخذ الشعب يتعلم السياسة من خطبائها وعلى رأسهم عبد الله النديم . فباتوا يسمعون ويطالعون في الصحف عن الحقوق والواجبات وعن أخبار المجلس النيابي وما يدور فيه من إقتراحات ومناقشات . وأصبح الوزراء مسئولين أمام نواب الأمة يحاسبونهم وكان لهذا المجلس الوليد قوة أرهبت الخديو والأوربيين معه . وسلطت الصحافة على مفهوم الشعب مصادر السلطات وقامت بتوجيه النقد للحكومة . كل هذا كان جديداً على الشعب المصري .

مناجحة الإسكندرية :

لم يكن للعرابين أى أطماع شخصية وهذا متفق عليه وواضح في قراراتهم . فلم يدخلوا

في المجلس النيابي ولم يتولوا كمحافظين ولم يتول من زعمائهم الوزارة سوى عرابي الذي أصبح وزيرا للجهادية في وزارة البارودي . وهذا طبيعي أن يتولى عرابي المنصب حتى يحمي الثورة العربية وإنجازاتها القومية بسيطرته على الجيش . لكن الخديوي لم يعد يثق في الحكومة الجديدة ولم تعد هي تثق فيه . وهذه العلاقة المتبادلة بعدم الثقة جعلت بريطانيا قلقة على مصالحها في مصر والخديوي أصبح لا يبت في قرار إلا بعد أخذ رأي القناصل الأوروبيين وقد خاب من إستشارهم . والدولة العثمانية التي تتبعها خديوية مصر أصبحت بدورها في قلق من الثورة العربية وخشيت أن يمتد تأثيرها إلي باقي الولايات التابعة لها . لهذا إتفقت مع إنجلترا وفرنسا على إرسال إسطوليهما إلي مياه الاسكندرية في مايو ١٨٨٢ م . وأعلنت بريطانيا أن إسطولها أتى لتأمين القناة من عرابي . وهذا طمأن فرنسا عليها . وكان الاتفاق بضرب الاسكندرية (لتهويش) عرابي فينصرف عن هذه القناة . لكن السياسة كذب وخداع ومصالح شعوب أولا وأخيرا .

وتفريق كان في أول عهده متحالفا مع العربيين بل شجع إنضمامهم إلي جماعة الحزب الوطني التي كان يشجعها ليتخذ منها أداة لإشهارها أمام النفوذ الانجليزي بالذات الذي خلع أباء من الخديوية . لكن هذه الجماعة انقلبت عليه لتحقيق أطماع قومية كان قد روج لها الخديو توفيق نفسه . ومن بينها الديموقراطية والحياة الدستورية ليستسر وراءها لصمايته من النفوذ الأوربي . وليحكم قبضته الحاكمة على مصر . ولما انقلبت عليه ارتسى في أحضان الانجليز ولا سيما بعد ظهور دعوة الأمير حليم مطالباً بالولاية لأنه أحق بالخديوية من توفيق حسب فرمان عام ١٨٤٠ م من الباب العالي . وأقال توفيق حكومة البارودي وأصبحت مصر بلا حكومة وظل عرابي وزيرا للجهادية رغم هذا لأن الجيش يسانده . واجتمع عرابي مع قناصل الدول ووقع لهم على تعهد يكفل لهم فيه سلامتهم وسلامة رعاياهم في مصر . وهذا جعل الخديوي يتحرك من وراء ستار ليكشف للأوربيين أن عرابي لا يقوى حتى على حماية نفسه . وهذا التعهد رفع من أسهم عرابي أمام القناصل مما صرف معظم الدول عن الوقوف بجانب الخديو . فخطط توفيق مع القنصلية الانجليزية مذبحه الاسكندرية في ١١ يونيو عام ١٨٨٢ م . وأخذت القنصلية تجلب البنادق ليلا من الاسطول الانجليزي الرابض في مياه الاسكندرية ووزعتها سرا على الأجانب . وجمع عمر لطفى العريان من البحيرة ووزع عليهم النبايات التي إشترتها الضبطية بالاسكندرية . وزجت إنجلترا بأحد رعاياها الماطلين لإفتعال معركة مع الأهالي بعدها انطلق الأجانب بإطلاق

الرماس وبكتافة . ونزل العريان بنبايتهم التى وزعتها الضبطية عليهم ومعهم رجال المباحث فى زى منى . وأخذوا ينقضون على المارة وشهود عمر لطفى وسط الهياج كما يقول بلنت . وكان يصيح قائلا : سييويهم يموتوا ولاد الكلب . وأخذ المتآمرون يحرقون الاسكندرية ويأخذون المنهويات إلى قصره . وكان الخديوى قد أرسل له رسالة من مكتب تلغراف قصر النيل يقول فيها : إما تخدم عرابى فى ضمانته للأمن وإما تخدمنا . فوقف عمر لطفى والاسكندرية تحترق أمامه وحوله رجال الشرطة يعيثون فسادا حتى اضطّر الجيش إلى النزول للشوارع وإطفاء الحرائق بعد خمس ساعات من المذبحة الرهيبة . وقبض على بعض زعماء هذه الفتنة فاعترفوا بأنهم عملاء لعمر لطفى المحافظ . وأطلق إسم نيرون الاسكندرية الصغير حاليا على أكبر شوارعها . وعين وزيرا للحربية بدلا من عرابى بعد دخول الانجليز مصر إعترافا بفضلته وبطولاته بالاسكندرية . وكان بقية المخطط إقامة مذبحه أخرى بالعاصمة لكن عرابى أجهضها . وقامت فى طنطا ودمتهور محاولات لاشعال مذابح هناك . لكن وكيل مديرية دمنهور أخضعها فى حينها وعوقب بعدها بالطرد من الخدمة والنفى لمدة ١٥ عاما بعد الاحتلال بتهمة تحريض الجماهير وقتها .

وأخفى الخديو ملف التحقيق فى هذه المذابح لكن الانجليز فتحوه بعد الاحتلال مباشرة وشكلت لجنة إنجليزية للتحقيق برئاسة بيمان . بعدها أرسل رسالة لتشرشل يصف فيها الخديو بقوله : هذا الرجل الذى قد ذهبنا لنحارب من أجله فى مصر . أكبر دجال . فقد دبر مذبحه الاسكندرية عن طريق رجاله . وعرابى منها برىء . وتقرير بيمان الذى كتبه بعد التحقيقات المستفيضة وثبت فيه بعدها براءة عرابى من المذبحة جعل الحكومة البريطانية تعدل سرا عن تقديم عرابى إلى المحاكمة بهذه التهمة التى سقطت عنه .

غروب الإسكندرية :

أول مرة فى تاريخ مصر يحارب الجيش المصرى بقيادة مصرية ويدافع ببسالة عن ترابها فى يوم ١١ يوليو الاخير . فلقد كان الجو السياسى إبان عرابى قد جعل مصر كما يقول المؤرخ أحمد شفيق فى مذكراته مسرحا سياسيا للخطباء فى كل مكان . وكان السبب فى هذه الحياة الدستورية التى اجتاحت البلاد لدرجة كان المغنى المشهور محمد عثمان عندما يسأل : أى الافراح ستغنى الليلة ؟ كان يجيب فوراً : الفرحة الفلانى مع عبد الله النديم (خطيب الثورة العرابية) . وكان النديم يشرك معه فى تبادل الخطابة الطلبة ومن بينهم سعد زغلول الذى كان يقود المظاهرات وقتها وتربى هؤلاء الطلبة فى مدرسة الوطنية العرابية . وبث النديم بخطبه فى الشعب

روح القومية والحرية وحب مصر . وكان عرابى وزملاؤه حريصين على حضور الاجتماعات والمحافل الخطابية . وكان عرابى نفسه خطيبا مفوها يثير في الجماهير الحماس الفياض . وكانت هذه الخطب الوطنية تجعل الجماهير المحتشدة تخرج بعدها أهل سياسة كما يقول المؤرخ أحمد شفيق . ولعبت الصحافة المصرية دورا أساسيا في تعبئة الرأي العام المصرى بهذه الروح الوطنية التى سادت في البلاد طولا وعرضا . وكانت تنتقد الخديو صراحة وتنشر الأحداث العالمية وأخبار الثورات في الخارج . وتركز على الحروب التحريرية مسلطة الضوء على زعماء الحرية وقتها . ومما ساعدها وصول الصحف الأجنبية التى كانت تصل للأجانب في مصر وكانت أخبارها تترجم وتنشر في الصحف المصرية . وكان للثورة التعليمية التى قام بها أيام إسماعيل المصلح على باشا مبارك أثرها . حيث جعل التعليم مدنيا حتى في المدارس العليا . فطلاب هذه المدارس كانوا أيام عرابى طليعة المصريين المستنيرين الذين فتح أمامهم على مبارك أبوابها لينهلوا فيها العلوم العصرية . وهؤلاء تربوا على الوطنية وعاصروا الاحتلال فكانوا مع مطلع القرن العشرين قادة الرأي والفكر في مصر كما سيجيء بعد .

وفي هذا الجو المشحون وطنية تقدمت إنجلترا وفرنسا في ٢٥ مايو ١٨٨٢ م . بمذكرة للخدوى يطلبان فيها نفي عرابى خارج مصر وإقالة حكومة البارودى مستغلين وجود الأسطولين الانجليزى والفرنسى في مياه الاسكندرية . وقبل توفيق المذكرة . وطلب من البارودى تقديم إستقالة حكومته . فقدم خطاب الاستقالة . وبمطالعة نصه نقرأ عبارة تتنافى مع الدستور ولا تصدر عن حكومة دستورية كانت تطلق على نفسها الحكومة الوطنية . وهذه العبارة نصها (ونحن لجنابكم العبيد المطيعون) وهذه العبارة وردت في نهاية الخطاب وموجهة للخدوى . والخطاب كان موقعا عليه من البارودى وبقية الوزراء بما فيهم عرابى نفسه . وهذه الهفوة الدستورية تدل على أن الأمور الدستورية لم يستوعبها عرابى وزملاؤه . كما أن هذه المذكرة كان المفروض الخديوى لايبث فيها برأى إلا بعد عرضها على نواب الأمة ليقروها أو يرفضوها . لأن هذا يعتبر تدخلا من الخديوى والانجليز والفرنسيين في الشؤون الداخلية لمصر الدستورية وليبرهن توفيق أمام الدول الأجنبية أنه ما زال يمتلك زمام الأمور . لهذا جمع النواب والمشايخ والاعيان وكبار الضباط في قصر عابدين وأعلن أمامهم قبول الاستقالة بعد قبول المذكرة الثنائية . وتعاضى في قراراته معلنا تأليفه الحكومة برئاسة بما فيها وزارة الجهادية التى ستتبعه شخصيا . وهب طلعت عصمت معترضا أمام هذا الحشد واستنكر قبول توفيق المذكرة لأنها من إختصاص الباب العالى

بالاستانة . وكان على إنجلترا وفرنسا تقديمها هناك . وطالب أن تكون الجهادية لعرايى . فأيدته الحاضرون الذين إنغضوا دون إستئذان . بعدها أرسل ضباط الاسكندرية برقية عاجلة إلى الخديوى يطالبونه فيها بعودة عرايى للجهادية وأمهله ١٢ ساعة . بعدها لو رفض عليه أن يتحمل مغبة ما سيحدث . فاتصاع الخديو لمطلبهم وأصبح عرايى وزيرا للجهادية بلا وزارة يمارس بمفرده مهام أعماله . وانهالت العرائض عليه تطالبه برفض هذه المذكرة وعزل الخديوى . وفى ٢٠ يونيو عين توفيق حكومة راغب باشا وظل عرايى وزيرا للجهادية بها . وكان عرايى قد أعطى القناصل عهدا يحفظ الأمن في مصر والسودان رغم أن السودان كان فيه وقتها ثورة المهدي كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى . لكن رغم هذا كانت نذر الحرب قد لاحت أمام المصريين عندما أخذ الأسد البريطانى يكشر بأسطوله عن أنيابه في الاسكندرية . فاجتمع الشيخ محمد عبده بالضباط في قشلاق عابدين وأقسموا على المصحف للوقوف يدا واحدة إذا قامت الحرب .

لقد كان واضحاً أن ثمة عمليات حربية سيقوم بها الأسطول البريطانى في الاسكندرية . وهذا ما لاحظته العسكريون المصريون . وذلك من طريقة توزيع البوارج الحربية وتكثيف مهام الاستطلاع وقياس المسافات ورصد الطوايى المصرية على الشاطئ وقياس الأعماق البحرية لمياه الميناء . وترحيل الأجانب بأموالهم وأمتعتهم في الأسبوع الأول من شهر يوليو ١٨٨٢ م . وإبلاغ القنصليات الأوربية لرعاياها بمصر بسرعة مغادرتها نهائيا وحضور سفن الركاب لمينائى الاسكندرية وبورسعيد لحملهم إلى بلادهم . وسفر توفيق فجأة إلى الاسكندرية في هذا الوقت على غير عادته . ونزوله في سراي الرمل خارج الاسكندرية ولم ينزل بسراي رأس التين التى قرب الميناء . كل هذه كانت مؤشرات أمام العربيين أن هناك مؤامرة كبرى ضد مصر .

وإنجلترا لم تضيع وقتها للتمهيد على الساحة الدولية لشن حرب على مصر . فروجت صحافتها عن مذبحه الاسكندرية ووصول الأجانب النازحين معهم أمتعتهم وأموالهم مؤكدة للغرب أن في مصر مذابح رهيبة ضد الأجانب . وأشاعت إنجلترا أن بمصر قلاقل داخلية وأوعزت إلى قناصل الدول الأجنبية أن يطلبوا من حكوماتهم شحن الأسلحة لتوزيعها على رعاياها للدفاع بها عن أنفسهم ضد المصريين . وبهذا كتبت إنجلترا لسفراء الدول الكبرى في الاستانة تدعوهم للإجتماع في مقر السفارة الايطالية هناك في ٢٣ يونيو . ووجهت الدعوة للحكومة التركية لحضور هذا المؤتمر . لكنها قاطعته لأنه يبحث مشاكل مصر الداخلية التى تخص تركيا وحدها . ولا سيما وأن مصر أصبحت مستقرة بتعيين حكومة راغب باشا في ٢٠ يونيو . وأعلن المؤتمر [ميثاق

النزاهة [الذى ينص على عدم إحتلال مصر بواسطة أى دولة موقعة على هذا الميثاق منفردة . وفى آخر لحظة قبل التوقيع عليه أضافت إنجلترا فى النهاية فقرة وهى (إلا فى الضرورة القهرية) . وانفض المؤتمر يوم ٦ يوليو وكانت فرنسا قد سحبت أسطولها يوم ٥ يوليو تاركا الأسطول الانجليزى بالاسكندرية .

وفى فجر ١١ يوليو عام ١٨٨٢ م . إنطلقت مدفعية الأسطول الانجليزى تطلق نيرانها على الاسكندرية . وأثناء القصف كان عرابى موجودا فى دار البحرية (القيادة) قرب رأس التين . وهى فى مرمى الأسطول الانجليزى وناحية الاهداف البحرية والطوابى المدافعة عن المدينة . وفى المساء توجه عرابى إلى الخديو لمقابلته فى قصر الرمل (المنتزه) وقدم له تقريرا شفويا عن سير المعركة إلا أن الخديو تعمد توبيخه لأنه لم يقدم تقريره مكتوبا إليه . وطلب من الخديو وحاشيته التوجه إلى القاهرة بالقطار المعد لذلك . إلا أن الخديو ورئيس الحكومة والوزراء والمبعوث العثمانى درويش باشا توجهوا خلفا إلى سراى رأس التين حيث كان يحرسهم مشاة الأسطول الانجليزى باتفاق مسبق مع سيمور قائد الأسطول . وأصبحوا ثانياً يوم الضرب يقيمون فى سراى رأس التين رهائن للانجليز . تنفيذاً للنور والمسرحية المتفق عليها وانسحب عرابى بقواته إلى كفر الدوار ليعيد بها من مرمى المدفعية بالأسطول . وأشاع الانجليز أن عرابى أمر باحراق الاسكندرية لاختفاء جريمة ضربهم المدينة وتدميرها أمام الرأى العام العالمى . وتكتملة للدور المأساوى والتأمري أرسل توفيق وهو رهين الانجليز رسالة عاجلة لعرابى ليستدرجه بمفرده بدون قواته للحضور والقبط عليه فأبلغه فى رسالته أن الانجليز مستعدون لتسليم الاسكندرية لجيش مصرى نظامى . وأمره بالحضور للتفاوض حول هذا الأمر . إلا أن عرابى كان قد أصبح على بينة بابعاد المؤامرة . فرفض الحضور إلا بعد خروج الانجليز بأسطولهم من مياه الاسكندرية . بعدما أرسل الخديو منشوراته للأقاليم يتهم عرابى بالعصيان والخيانة لأنه رفض التفاوض مع الانجليز على الانسحاب ولهذا عزله من نظارة الجهادية . كل هذا والقصف مستمر فوق الاسكندرية وأحيائها والالاف ينزحون منها إلى خورشيد وكفر الدوار والبيضا فرارا من هول القصف والضرب . وعلى الفور تكون مجلس عام بالقاهرة من المشايخ والأعيان والأقباط لتيسير الأمور بالبلاد وحكمها . لأن الخديو أسير الانجليز وكلف هذا المجلس القومى عرابى بمواصلة الجهاد للدفاع عن مصر . فلقد باع الخديو بلاده للشيطان من أجل السلطان .

وحاول الجنرال أليسون الهجوم بقواته التى نزلت للبر عند كفر الدوار لكن المقاومة ضده

كانت حذيفة . فلما هزم مدحورا عاد إلى الاسكندرية . وحاولت القوات الانجليزية لأكثر من شهرين الاستيلاء على الجبهة الشمالية الغربية بالاسكندرية وكفر النوار إلا أنها فشلت . فأتجهت إلى الجبهة الشمالية الشرقية بالدلتا حتى وصلت هذه القوات للتل الكبير . ولا يهمننا تفاصيل المعركة هناك سوى خيانة وتآمر محمد سلطان باشا رئيس مجلس الأمة وقتها . الذي تقابل مع خنفس باشا [سرا] وكان قائد الجبهة المصرية في مواجهة القوات البريطانية كنسحق قتالي أول . ورشاه بالذهب وطلب منه (كروكي) الخطة الموقع عليها من عرابي والتي وضعها محمد عبيد باشا قائد القوات في المعركة وكان عليها الموقف القتالي بالكامل . وهذا الكروكي سلم إلى الانجليز . كما إتفق محمد سلطان مع خنفس باشا على الانسحاب من المواقع الأمامية وإخلاء الخنادق من القوات وسحب سرية الاستطلاع ونفذت المؤامرة الخنفسية وفتح خنفس الطريق على مصرعيه بلا مقاومة لتدخل القوات البريطانية لمؤخرة الجيش المصري بلا قتال أو إنذار . واكتشف عرابي هذه الخيانة أثناء التحقيق معه . فلقد عرض سير تشالز ويلسون على عرابي الرسم الكروكي للخطة وعليه توقيعه . فبهت وعلق ويلسون عليها قائلاً : لقد كان من المحتمل جداً أن تهزموننا لو كنتم قد إتبعتم هذه الخطة لولا إنسحاب خنفس من خنادق المواجهة وإنسحاب قائد الخيالة في سرية الاستطلاع . واكتشفت المؤامرة أمام قائد الثورة وهو رهن السجن إنتظاراً لمحاكمته بتهمة الخيانة وتهم أخرى كانت في جعبة الخديوي والانجليز الذين هزموا عرابي في ١٦ سبتمبر عندما سلم سيفه ونفسه ذراً للأخطار وحفظاً للقاهرة من الضرب .

هو إعتاب الهزيمة :

بعد هزيمة عرابي بثلاثة أيام حلت بريطانيات الجيش المصري وسرحت جنوده . وذهل الانجليز عندما وجدوا جيش مصر لا يوجد به أمي واحد بين جنوده . وباحتلال مصر تجمد الدستور والمجلس النيابي وتحطمت الآمال الوطنية . وبدأ توفيق يحكم بالعصا والكرياج والارهاب . وها هو رياض باشا الذي أقاله عرابي وهو رئيس للنظار يعين في أول وزارة بعد الاحتلال وزيار للداخلية ويعلن أمام سادة العهد الجديد (كما يقول بلنت) : بأن المصريين ثعابين تسحق بالأقدام لمنع انتشارها . قائلاً : لهذا سأسحق المصريين . وعين عمر لطفى وزيرا للجهادية .

ويعلق بلنت على ضرب الاسكندرية بأنه جعل من عرابي في نظر المصريين بطلا قوميا بعدما كانت أبواق الخديو تصوره متمردا عليه . وأصدق وصف لعرابي ما قالت عنه الأميرة نازلي إبنة عم توفيق . حيث قالت : لو كان عرابي رجلا يسطو ويعنف مثل محمد علي (جدها) لأخذ

توفيقا مع جميع الأمراء في القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميرا على البلاد . هكذا قالت نازى لمستر بلنت . وهذا القول قالته وعرايى في منفاه بجزيرة سيلان تلاحقه لعنات وتشنيعات الخدي توفيق وحاشيته . لكن نازلى كانت منصفة لعرايى ولا سيما عندما قالت لتوفيق : لقد كان عرا أول وزير وطنى جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وبلنت ذكر رواية نازلى بالتفصيل كتابه (التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر) .

وحقيقة يقال أن الاستعمار البريطانى نجح دون قصد في توحيد المصريين مسلمين وأقبا حول قضية واحدة وهى الجلاء والاستقلال . وأيقظ فيهم جميعا روح النضال والكفاح . وكان هذا جنود الاحتلال من إنجليز وأستراليين وهنود وأفارقة وهم يسيرون في الشوارع أو يعملون في دواوين الحكومة والمدارس قد بعث السخط لدى الشعب بكل طبقاته . ولأول مرة تتحول المدارس المصرية إلى فصول للوطنية ليصبح مدرسوها من المصريين زعماء يشرحون لتلاميذهم أبعاد القضية ويحسونهم للنضال والكفاح من أجلها . وأصبح الانجليز يسيطرون على كل شيء في البلاد ما عدا الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية حيث كان توفيق بلا عمل تقريبا سوى الاشراف على هذه الهيئات الدينية . واستغل محمد عبده هذه الفرصة فتقدم إليه بمشروع لتطوير الأزهر ونظام التعليم فيه . فوافقه الخديو عليه وأصدر قرارا بذلك .

الصحافة والاحتلال .

الصحافة بعد الاحتلال مباشرة وفي عهد كرومر بالذات أصبحت عميلة لانجلترا أو للدوا العثمانية . وكان الصحفيون الشوام يقومون بهذه المهمة الصحفية وأهم هذه الصحف الأمراء والمقطم والجرائب والقاهرة . وهذه كما يقول لويس عوض في كتابه (تاريخ الفكر المصرى الحديث) . أوجدت بليلة عظمى في الرأى العام المصرى وبقى الأهرام ضد الاحتلال لحساب فرنسا لأن صاحبه بشارة تقلا كان رعية فرنسية يتمتع بالحماية الأجنبية . وأخذت كل الصحف بما فيها الأهرام تندد بعرايى وبالثورة العرابية . والحق يقال أو كما يقول لويس عوض كانت وقتها تصدر ٦٠ صحيفة كلها تسبى بحمد الاحتلال وتشيد به ما عدا صحيفتى المؤيد التى كان يصدرها الشيخ على يوسف والأستاذ التى كان يصدرها عبد الله النديم . وهذا جعل الشعب المصرى يقبل على هاتين الصحيفتين الوطنيتين . فأيام كرومر الذى ادعى أنه ممثل لوزارة حزب الأحرار وقتها في إنجلترا كعم الصحافة المصرية الوطنية . وكان كرومر يشجع اللجوء السياسى للشوام المنشقين على الحكم العثمانى بسوريا الكبرى فكان يرعاهم وكان هؤلاء من الموارد

المثقفين وخريجى مدارس الارساليات الفرنسية بلبنان . فروجوا في مجلاتهم الهلال والمقطم والأهرام للثقافة العلمانية الغربية ولا سيما الثقافة الفرنسية وهذا الأسلوب الاعلامى الذى خطط له كرومر كان للترويج لعزل مصر وإخراجها من الفلك العثمانى .

وكان تبنى جمال الدين الافغانى ومحمد عبده لفكرة الجماعة الاسلامية . للتصدى لحساب تركيا ضد هذه الحملة العلمانية والثقافة الوافدة التى باتت سمة للاصدارات الصحفية إبان كرومر . وانضم لهما فلول الثورة العربية وكان معهم - أيضاً - مصطفى كامل ومحمد فريد .

و الصحافة لعبت دورا رئيسيا إبان عصر إسماعيل والثورة العربية وتحت ظلال الاحتلال الانجليزى لمصر . والصحافة في عصر ميلادها الأول عرفت العمالة والنفاق . وكانت الصحف تتلقى (المصاريف السرية) من الخديو إسماعيل والأستانة والانجليز والفرنسيين . وكان كل يغنى على ليله . فأيام إسماعيل وفد اللاجئون من الشوام بعد مطاردة السلطة العثمانية لثوراتهم ضد الحكم العثمانى بايعاز من فرنسا ولا سيما للشوام المسيحيين الموارنة . والخديو إسماعيل كان قد خطط لنفسه إغتنام الفرصة للاستقلال بأرض مصر . فاستقطب بعض هؤلاء الشوام لاصدار صحف لهم كالأهرام . وكان إسماعيل باستقباله لهؤلاء المنشقين عن السلطان العثمانى وإعطاء الحرية للصحافة بشتى تياراتها السياسية والعميلة تحديا للسلطان نفسه . وأخذ هؤلاء يروجون إلى فكرة مصر الفتاة ومصر المصريين . وكانت مقالاتهم تأخذ طابعا إنفصاليا لمصر من الأستانة بطريقة علانية . وأخذ الأهرام يندد بتركيا والسياسة العثمانية ويهاجم أنجلترا لحساب فرنسا . وكانت هذه الصحف الخديوية تشيد بعصر إسماعيل . وبلغ عدد الصحف في مصر أكثر من خمسين صحيفة بالعربية والانجليزية والفرنسية والايطالية واليونانية .

ولما تولى الخديوى عباس الثانى أخذ يصطدم بكرومر المعتمد البريطانى في مصر . ففى عام ١٨٩٣ م . أقال وزارة مصطفى فهمى نون علمه أو أخذ رأيه . وكان هذا الموقف من عباس قد بعث صحوة وطنية . فالتف حوله الوطنيون . وأخذ يتخذ من هذه الحركة الوطنية سلاحا يشهره في وجه الانجليز . وعلى هذا نجد الفترة ما بين عامى ١٨٩٢ م و ١٨٩٧ م . فترة ثراء وطنى وثاب حيث كان الوطنيون المصريون يقفون ضد الادارة البريطانية ويشوهون صورة أى وزير يتعاون مع الاحتلال . ولعبت الصحافة دورا بارزا في هذا الاتجاه الوطنى .

فكرة الوطن القومي اليهودي

في عام ١٨٩٦ م . حاول اليهود إقامة وطن قومي لهم في أرض مدين شمال غرب الجزيرة العربية وجنوب ميناء العقبة الأردني . وكانت تخضع للدولة العثمانية ضمن أرض الحجاز لكن انجلترا بعد احتلال مصر جعلتها تابعة لاقليم السويس إداريا . وتبنى هذا المشروع اليهودي الألماني بول فريد مان الذي كان كرورير يعاونه لتحقيق هذا الحلم . فقام فريد مان بتهجير اليهود من شرق أوروبا ومعهم أسلحتهم ووصلوا إلى جبل الطور في سفينة أطلق عليها إسرائيل . وحاول شراء الأراضى من البور رغم أن الدولة العثمانية منعت شراء الأجانب للأراضى في أرض الحجاز وهذا ما جعل الباب العالي يضغط على بريطانيا لسحب هذا المشروع وطرد فريدمان من الأرض ووصلت تركيا أرض مدين عن الإدارة المصرية عام ١٩٠٦ م . وحدثت وقتها أزمة بين بريطانيا وتركيا عرفت بأزمة الفرمان وكان من ضمنها مشكلة طابا المصرية في النزاع حول تحديد الحدود المصرية .

وفي عام ١٩٠٣ م . قابل هرتزل تشمبرلين بلندن وعرض عليه فكرة إنشاء دولة يهودية على ساحل العريش بسيناء تحت إشراف بريطانيا . وكان هرتزل قد أرسل ليوبولد جرينبرج إلى القاهرة لاقتناع كرورير والمستولين المصريين بهذا المشروع ونشط الماسون في مصر للعمل على الموافقة على هذا المشروع . ورغم تكتم هذا المشروع إلا أن القوى الوطنية المصرية علمت به وعارضته بشدة . وهذا ما جعل وزير الخارجية بطرس باشا غالى يعلن : عدم التخلي عن حق من حقوق السيادة المصرية . لكن مصر كانت مستعدة على حسب ما جاء على لسان وزير خارجيتها السماح لليهود بالمجيء لمصر ومنحهم إمتيازات خاصة بالضرائب والأراضى . ويصبحون رعايا للدولة بعدها حضر هرتزل إلى القاهرة عام ١٩٠٣ م . وتقابل مع كرورير لاقتناعه بمشروع العريش والعمل على مد مياه النيل إلى سيناء تحت قناة السويس . وحاول - أيضا - الاجتماع بالزعماء السياسيين في مصر لاقتناعهم وإبداء المساهمة المالية لحل ديون مصر . لكن بريطانيا أجمعت عن المشروع لأن توصيل مياه النيل لسيناء سوف يغلق القناة لفترة ويمنع بريطانيا من الاتصال بمستعمراتها بالهند والشرق الأقصى وتعطيل التجارة العالمية . كما أن هذا المشروع سوف يقلب الرأي العام المصري واقترحت انجلترا إنشاء الوطن القومي لليهود في [يوغندا] . لكن الانجليز المستوطنين هناك عارضوا فكرة مجيء اليهود وإنشاء وطن قومي لهم في يوغندا . لأن هذا سيضر بمصالحهم ومشروعاتهم . وصرفت بريطانيا نظرها عن هذا المشروع .

وفي عام ١٩٠٤ م . حاول هرتزل إقناع إنجلترا بإنشاء الوطن القومي في الحمام بمنطقة مريوط بصحراء مصر الغربية لكنه توفي بعدها .

وفي عام ١٩٠٤ م . إتفقت فرنسا مع إنجلترا إتفاقا وديا فيما بينهما . وهذا الاتفاق أطلقته فيه يد فرنسا في شمال أفريقيا ويد إنجلترا في مصر . بعده ألفى كرومر إشراف الأجانب على صندوق الدين العمومي والإشراف الدولي على ميزانية مصر بعدما خلا الجو لانجلترا بهذا الاتفاق وتعهد لهم بدفع الديون .

وكرومر كان يعتبر الحاكم لمصر والخديوى كان ظله يتبعه . فأدار البلاد بكفاءة واقتدار واتبع التخطيط السليم في إدارة الأجهزة الادارية . ونجح في إستمالة قطاعات كثيرة من طبقات الشعب . فنراه عام ١٨٩٩ م . يرفع سعر القطن ليرضى كبار الملاك والفلاحين ويخفض الضرائب الزراعية مما خفف من الأعباء عليهم وانتابهم موجة من الرواج . ومنع الضرب بالكرباج وأقام عدة مشروعات لتحسين وسائل الري والزراعة في مصر . ومن بين هذه المشروعات إقامة خزان اسوان عام ١٩٠٣ م . وإنشاء بنك التسليف الزراعى والتعاونى ليسلف الفلاح وكان يقدم له البذرة . وأنقذ الفلاحين من المزاين . وعلى جانب آخر قرب منه مشايخ الأزهر وجعل لهم دورا في الحياة العامة حيث عينهم في مجلسى شورى القوانين والجمعية العمومية النيابية . وبهذا استطاع عزل السواد الأعظم من الشعب عن طبقة المثقفين والأفندية . واستدان كرومر من البنوك الانجليزية قرضا سدد به بعض ديون مصر للدول الدائنة وبعد السداد ألفى إشرافها على صندوق الدين والإشراف الدولي على الميزانية المصرية كما أشرت من قبل . وتعهد بسداد هذا القرض من الانتاج الزراعى بعد الإصلاحات التى قام بها في مجالى الري والزراعة والخدمات التعاونية للفلاحين . ولهذا شهدت البلاد إزدهارا لم تشهده منذ عهد سعيد ويعتبر عهد كرومر بلا تحيز عصرا ذهبيا للفلاح المصرى . وعلى جانب آخر حارب كرومر التعليم في مصر وخفض من ميزانيته تخفيضا كبيرا وجعله بمصاريف باهظة بعدما كان بالمجان في كل مراحله . وأخذ يشجع الكتاتيب ولم يتدخل في شئوننا لتظل تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وتحفيظ القرآن لتأهيل خريجيهما للدخول والالتحاق بالأزهر وكانت سياسة الاستعمار البريطانى عدم التدخل في الشئون الدينية . وكانت سياسة التعليم التى وضعها دانلوب أيامه وكان مستشارا لوزارة المعارف العمومية . هى تخريج طبقة من الكتبة فقط يعملون في الجهاز الادارى بالحكومة .

ظهور الأحزاب :

كان حادث دنشواى عام ١٩٠٦ م . القشة التى قصمت ظهر كرومر والاحتلال البريطانى فى مصر لمساويته وقسوة أحكامه . فلقد سيق الفلاحون ظلما إلى ساحة الشهداء فى قرية دنشواى . ونصبت المشانق لاعداء شهداء هذه المنبجة الوحشية التى إهتز لها ولبشاعتها الضعير الوطنى لكل مصرى . وفى هذا الجو المشحون بالغضب والوطنية الجياشة برز مصطفى كامل يقود أمة هبت بعد إستكانتها متحولة إلى بركان حممه ثوار فى كل مكان هبوا دفاعا عن القومية المصرية . وأثناء حادث دنشواى كان اللورد كرومر فى إنجلترا يقضى أجازته ولما عاد عام ١٩٠٧ م . وجد انتفاضة مصرية عارمة ضده وضد بلاده وهذا جعل إنجلترا تقيله بعد وحوله إلى ساييغ . وفى عام دنشواى ظهرت أحزاب ثلاثة وهى الحزب الوطنى برئاسة مصطفى كامل وحزب الأمة برئاسة أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) والثالث حزب الإصلاحات الدستورية برئاسة الشيخ على يوسف . وكانت هذه الأحزاب لها صحفها فصيحيفة اللواء كانت تعبر عن الحزب الوطنى والجريدة عن حزب الأمة والمؤيد عن حزب الإصلاحات .

وهذه الصحف لعبت دورا أساسيا فى السياسة المصرية وقتها . وأخذت صحيفة اللواء تتند بالاحتلال وكان خط مصطفى كامل فيها هو الدعوة إلى الاستقلال لمصر وعودتها لأعضان الخلافة العثمانية بالأستانة وهذه الدعوة تبناها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده حيث دعيا إلى إحياء الخلافة وإنشاء الجامعة الاسلامية لتكون رابطة للعالم الاسلامى . أما حزب الأمة فكانت صحيفته الجريدة برئاسة أحمد لطفى السيد تأخذ خطا يتحد مع اللواء فى المطالبة بالجلء أما الاستقلال لمصر فيكون عن بريطانيا والدولة العثمانية معا أى تعود مصر للمصريين . أما صحيفة المؤيد فكانت تؤيد الخديو عباس الذى كان ينفق عليها لتكون لسان حاله . ولا هم لها سوى المطالبة بالدستور لهوى فى نفس الخديو عباس الذى نراه شجع الأحزاب لتطالب بعودة الدستور والبرلمان . حقيقة كان يريد دستورا حبرا على ورق (سولفان) ليكون ضعيفا واهيا ليسهل تقطيعه ولا يفقد بريقه أمام الانجليز . فكان فعلا يهددهم بالتغيير الدستورى التى تنادى به الصحف والأحزاب وخصوصا حزب الإصلاحات وصحيفته المؤيد . وظل عباس ينالور بالأحزاب والصحف حتى أصبح بلا وفاق مع الانجليز وكرومر وجورست خلفه إلى أن وعده كما يقول العقاد بأن ينصبوه خليفة للمسلمين بالقاهرة ويترك لهم إحتلال مصر . فوافقهم وانقلب على شيعته . فنراه يطارد أعضاء الحزب الوطنى الذى كان ينادى بعودة مصر لتبعية والخلافة العثمانية . لأن

قيادته كانت تركية الأصل ولهذا السبب ترك محمد فريد البلاد واستقر بالخارج في منفاه الاختياري وحتى لا يصطدم بالخدويى وظل يدعو في أوروبا لجلء الانجليز وهناك بمفرده والحزب الوطنى كان شبه مجمد ولا سيما بعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ م .

الإنجليز والفتنة الطائفية :

خلف جورست المعتمد البريطانى اللورد كرومر في مصر عام ١٩٠٧ م . بعد سحبه في أعقاب دنشواى . و لعب دورا في تأليب الاقباط ضد المسلمين حسب السياسة البريطانية المعهودة (فرق تسد) وهذه السياسة قد اتبعها في الهند ففرقت بين الهنود وجعلتهم طوائف متناحرة ما بين مسلمين وهندوس وسيخ وقاديان . وهذه الفتن إمتدت ومازالت هناك مشتعلة رغم الاستقلال عام ١٩٤٧ م . وأصدق وصف للفتنة الطائفية وبدايتها في مصر ما قاله المفكر المصرى الدكتور لويس عوض قائلا : كل هذا كان من عمل الانجليز وفقا لسياسة فرق تسد وقال أيضا (كان كرومر يحتقر كل المصريين الاقباط والمسلمين على السواء . فلما سحبه في عام ١٩٠٧ م . بعد حادثة دنشواى أرسلوا مكانه جورست مع سياسة جديدة وهى التودد للرأى العام الاسلامى وإثارة الفتنة ضد الاقباط لتعطيل الحركة الوطنية . واختلف مع الدكتور لويس في نقطة واحدة وهى أن جورست ألب الاقباط ضد المسلمين وليس العكس صحيحا . فجورست كان قد أتى لتهدة الرأى العام المصرى الساخط على الاحتلال في أعقاب مجزرة دنشواى والحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل كان مشتعلا وطنية وحماسا . وكانت الأمة تقف خلفه وكانت كلمات الزعيم مصطفى كامل تنوى في أرجاء البلاد طولا وعرضا . فلضرب هذا التيار الوطنى الجارف تحالفت إنجلترا مع الخديوى عباس الذى كان يشجع هذه الحركة الوطنية ووعدته بخلافة المسلمين كما سبق وأن أشرت . ففعلا تخلى الخديوى عن مصطفى كامل . وقتها وبعد وفاته أخذ يطارد أعضاء حزبه وقبض على بعضهم . وعلى الجانب الآخر لا بد من شق الأمة المصرية إلي عنصرين بعدما كانت عنصرا واحدا ولو نجح هذا المخطط سهل ضرب الحزب الوطنى لأنه يدعو إلي عودة الخلافة الاسلامية . وكانت فكرة الجامعة الاسلامية التى كان الأفغانى ومحمد عبده يروجان لها لحساب السلطان عبد الحميد بالاستانة باعثة لقلق بريطانيا أيضا . ولهذا نجد جورست يقيل فجأة وزارة مصطفى فهمى باشا (سبق وان أقاله عباس أيام كرومر) وكلف بها بطرس باشا غالى وكان وقتها وزيرا للمالية . واختار جورست غالى رئيسا للوزراء لأن اسمه يرتبط في أذهان الشعب المصرى بحادثة دنشواى عندما كان وكيل الحفائى وقتها ورئيسا للمحكمة التى حكمت على شهداء

دنشواى . واختاره مسيحيا بالذات ليقرب المسلمين ضد الاقباط بتولية بطل جريمة دنشواى . وما ساعد جورست في تحقيق مخططه اغتيال بطرس غالى على ايدى المتطرفين المسلمين . لانه في عام ١٩١٠ م . لما عاد بطرس غالى من زيارته لانجلترا اتى معه بمشروع مد امتياز شركة قناة السويس لمدة (٩٩) سنة جديدة رغم أن امتيازها أصلا كان ينتهى عام ١٩٦٨ م . وطلب من سعد زغلول بصفتها وزير الحاقية التقدم بالمشروع للجمعية التشريعية لاقراءه لكن نواب الأمة رفضوه . وكانت الصحف الوطنية قد هاجمته بعنف وفددة . وبعد اغتيال بطرس غالى تفجرت الفتنة الطائفية وهددت البلاد بقيام حرب أهلية بين المسلمين والاقباط في مصر . لكن للتاريخ والعقيدة إن تبه المصريون لهذا المخطط الانجليزى وأعلنت الكنيسة المرقسية إبان ثورة ١٩١٩م أن الصليب مع الهلال وكان هذا مبادرة منها . ورفعت فوق كنائسها علم الوحدة الوطنية (الهلال مع الصليب) الذى إتخذه المصريون علما للثورة . وهذه المبادرة كانت صفة لانجلترا أفقدتها توازنها

وأيام عهد عباس كانت الصحافة لها دورها البارز في إثراء الحركة الوطنية داعية إلى الحرية والاستقلال وحرية الصحافة واستقلال القضاء . ونادت بحرية الفرد والأمة وعودة الحكم الدستورى في البلاد . وفي هذا الجو ظهر سعد زغلول على الساحة السياسية ولا سيما بعدما تزوج عام ١٨٩٦ م . من إينة مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء . وهذا الزواج قد أهله للدخول في زمرة الوزراء إلا أن قدراته الشخصية مكنته كثيرا في فرض شخصيته . ففي عام ١٩٠٦ م . عينه كرومر وزيرا للمعارف فجعل يوم عيد الهجرة لأول مرة عطلة رسمية بالمدارس وعرب التعليم مما أغضب الانجليز . كما أنشأ مدرسة القضاء الشرعى مما أغضب الخديوى عباس ومشايخ الأزهر . وكان كرومر سندا لسعد في تحقيق إصلاحاته واستقل سعد هذا فهادن الانجليز ليحقق مكاسب قومية . ولم يكن من زمرة الخديوى الذى أقسم ألا يحضر مجلسا فيه سعد زغلول لانه يعارضه . وكان سعد وقتها مهادنا للانجليز . فبينما كان الحزب الوطنى مشتتلا حماسا وثورة ضد الاحتلال كان سعد يساند حزب الأمة برئاسة أحمد لطفى السيد وكلاهما كان يتعاون ويتهادن مع الانجليز لتحقيق الاستقلال . ولهذا كان كرومر كما يقول (شيرول) يقسم العون لحزب الأمة في أول إنشائه . وكان هذا الحزب يدعو إلى الديمقراطية والقومية المصرية وعودة مصر للمصريين وليس للعثمانيين . لكن مبادئ حزب الأمة لم تجد صدى بين جماهير الشعب التى تكالبت خلف الحزب الوطنى وقتها .

لحالة السياسية بمصر

من بين الاحزاب الرئيسية التى ظهرت كان الحزب الجمهورى (عام ١٩٠٨ م) وكان يضم بقة المثقفين المصريين وكان يشايح فرنسا واتخذ من شعار الثورة الفرنسية (حرية - إخاء - مساواة) شعارا وكان يحتفل بذكرى الثورة الفرنسية مع القنصلية الفرنسية . واخذت صحيفتا الاخبار (لامين الخازن و) الاحرار (لوحيد الايوى تدعوان إلى هذا الحزب ويتصدر شعاره بدر صفحاتها . واخذ محمد غانم رئيس الحزب يهاجم الأسرة العلوية وعلى رأسها محمد على الذى جعل مصر إرثا له ولأبنائه وأحفاده من بعده . حتى أصبحت نهبا ونهما وطمعا لكل من كملها . وهذا الحزب عقد مؤتمرا عماليا لأول مرة عام ١٩٠٩ م في جنينة الازبكية طالبوا فيه القوانين الاشتراكية وخرجت جموعهم في شوارع القاهرة هاتفة (جعانين يا فندينا) وأخذت طالب بالخبز إسوة بثوار فرنسا .

أما طبقة النوات فشكوا (حزب النبلاء) يضم الاتراك والشراكسة . وكان هدفه الأساسى و إستعادة الامتيازات الطبقيّة لهم كما كانوا قبل الاحتلال . وهذا جعل صحيفة اللواء تندد بهم أتهمهم محمد فريد بأنهم جمعوا ثرواتهم على حساب الشعب . واخذ حزب النبلاء يدعو إلى لتقارب بين تركيا وانجلترا ويات يهاجم حزب أحمد لطفى السيد (رئيس حزب الأمة) لأنه يطالب أن تكون مصر للمصريين . ودعا النبلاء إلى فكرة الجماعة الاسلامية تحت ظلال الدولة العثمانية . وحزب الأقباط (الحزب المصرى) ألفه المحامى أخنوخ فانوس كان يدعو إلى إنشاء جامعة مسيحية أسوة بالجامعة (الجماعة) الاسلامية التى نادى بها الأفغانى ويؤيدها الحزب الوطنى حزب النبلاء . وكانت الصحف القبطية كما يقول لويس عوض كالوطن وفرعون ومصر تروج لهذا الحزب . ودموته كانت فصل الدين عن السياسة . وكان الكاتب سلامة موسى من أشد المتعصبين لهذا الحزب ومروجا له . واخذت جريدة مصر تروج إلى القبطية على أنها تضم المسيحيين المسلمين لأن كلمة قبطى تعنى مصرى ولا يقصد بها النصارى . وطالب هذا الحزب بمساواة لمصريين في الحقوق والواجبات دون تمييز بسبب الجنس أو الدين . أو على حد قول لويس عوض لدعوة إلى إنشاء دولة علمانية . وكان كرومر وراء هذا الحزب يسانده كما ساند حزب الأمة لطفى السيد الذى كان يدعو إلى أن تكون مصر للمصريين .

وكانت هذه الأحزاب وغيرها من أحزاب أخرى قد ظهرت في هذه الفترة عبارة عن منابر سياسية ليست قادرة على المشاركة في الحكم لكنها كانت تصيح بالرأى العام فنرى الحزب

الوطني يدعو الشعب إلى كتابة العرائض وتقديمها لأفندينا مطالبين بالدستور عام ١٩٠٨ م وراوغت إنجلترا كالعادة . وكان لظهور الحركة العمالية في بداية القرن العشرين أثرها في ثورة ١٩١٩ م فيما بعد . وفي عامي ١٩٠٩ م و ١٩١٠ م أخذ عمال السجائر والترام والمطابع الأميرية والسكك الحديدية والورش الأميرية يجتمعون ويقومون بالمظاهرات والاضطرابات بالبوليس وقدم زعماء هذه الحركة للمحاكمة . وهذه كانت بداية الحركة العمالية التي نادت بـ (جعائين يافندينا) وأصبح هذا شعارا للحركة العمالية بمصر في كل عصر وأوان . بل نداء الشعب المصري كله .

وفي عام ١٩١٠ م . تولى سعد زغلول وزارة الحقانية في وزارة بطرس غالى وتقدم للجمعية التشريعية بعدة قوانين سيئة السمعة كما أطلق عليها . فبينما كان معارضا بشدة عام ١٩٠٩ . لقانون المطبوعات والنشر عندما كان وزيرا للمعارف نراه يعرضه ويصر عليه . وبعد الموافقة عليه طبقه بعنف وهو وزير للحقانية . وتدم سعد على هذا وأقر بغلطته قائلا : ها أنا نادم اليوم على ما فعلته بالأمس . لأن الصحف القومية كتمت صفحاتها وزج بكتابها في السجون وأغلقت معظمها . وهذا الكبت للرأى العام أوجد شعورا بالسخط . فهذه الصحف كانت نوافذ يطل منها الشعب المصري على كفاح الشعوب وتحديثهم عن زعماء العالم الذين يناضلون الاستعمار في الخارج . وكانت الصحف تدعو إلى التعليم والنهوض به كما دعت الشعب المصري لإنشاء الجامعة الأهلية لتكون مستقلة عن سياسة الاستعمار . وفي عام ١٩١٢ م . أجبر الخديوى عباس سعد على تقديم إستقالته . بعدها انفصل عن الارستقراطية الحاكمة . فرشح نفسه مستقلا من الأحزاب عام ١٩١٢ م . ونجح في الانتخاب كعضو في الجمعية التشريعية التي أصبح وكيلها . وكان يرأسها حسين كامل . (السلطان فيما بعد) . وقزعم المعارضة داخل مجلسها وحول هذه الجمعية من مجلس لاقرار وتميرير القوانين إلى مجلس يشرع القوانين للأمة وحدها .

الحماية البريطانية :

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ م . ولما تحالفت روسيا العدو التقليدى لتركيا مع إنجلترا أعلنت الدولة العثمانية تحالفها مع الالمان ضد إنجلترا . وكان الخديو عباس في الأستانة وقتها . فقامت إنجلترا على الفور باعلان الحماية على مصر وفرضت بها الأحكام العرفية . ثم قامت بإلغاء الخديوية بعدما عزلت الخديوى عباس وأعلنت مصر سلطنة وعينت حسين كامل ابن إسماعيل سلطانا لمصر . وباعلان السلطنة المصرية أسوة بالسلطنة العثمانية أصبحت مصر منفصلة تماما عن التبعية لحكومة الباب العالى . واستقلت بعد أربعة قرون عن الحكم العثمانى

منذ دخول سليم الأول مصر عام ١٥١٧ م . وحاولت الاستانة تجميع العالم الاسلامى حولها ضد إنجلترا وروسيا . فأخذ المفتى بالاستانة في نوفمبر ١٩١٤ م . يناشد المسلمين للوحدة ضد إنجلترا وروسيا أعداء الاسلام وأشيعت الفتوى في كل الولايات الاسلامية العثمانية . وأخذت أبواب الدعاية تروج فكرة إحياء الخلافة العثمانية لكن الشريف حسين شريف مكة والحجاز وقتها أعلن أحقيته في الخلافة لأنه عربى قرشى والرسول قال الأئمة من قریش . وتحالف مع الانجليز لتحقيق هذا الحلم وساندهم مساندة كبرى في بلاد الشام ضد القوات العثمانية أملا في تولية الخلافة العربية بعد الحرب . لكن آل سعود عزلوه وهذه قصة أخرى .

وظلت مصر إبان الحرب وحتى عام ١٩٢٢ م . تحت الحماية ورهينة في أيدي الانجليز . وأصبح الوضع الدولى لسلطنة مصر على الطريقة البريطانية التى منعتها من الاتصال بالعالم الخارجى إلا عن طريقها لأن وزارة الخارجية ألغيت من مجلس النظار أثناء الحماية . وتولى السلطان فؤاد الأول السلطنة عام ١٩١٧ م . بعد وفاة حسين كامل .

*

مهر بين ثورتين

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وانتهت عام ١٩١٨ م . وأعلن الرئيس الأمريكى واسن أن الشعوب لها حق تقرير المصير بعد الحرب . وهذا جعل السلطان فؤاد يرسل برقية إليه يهنئه فيها بالانتصار ويناشده عدم تجاهل المطالب المصرية التى يأمل أن تلقى عنايته . لكن هذه البرقية لم تصل واشنطن لأن الحاكم العسكرى الانجليزى لمصر أخفاها ولم يرسلها . وكانت البرقيات تخضع لرقابته كما أن محظورا على أى مصرى الاتصال بالجهات الأجنبية حتى ولو كان سلطان مصر إلا بتصريح من السلطات البريطانية . ولهذا طلب حسين رشدى السماح له بالسفر إلى لندن للتفاوض وبحث مستقبل مصر . فرفضت دار الحماية التصديق له . وكان قد تقدم بالطلب ثلاث مرات وفي كل مرة يقابل بالرفض مما جعله يقدم إستقالته إلى السلطان فؤاد إحتجاجا على هذا وقبلها فؤاد بعد موافقة دار الحماية على سفره ومعه وفد . وفى ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨ م . توجه سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى إلى دار الحماية البريطانية وقابلوا سير وينجت المندوب السامى البريطانى وهذا اليوم المشهود هو يوم عيد الجهاد الوطنى . وفى الاجتماع تهرب منهم وينجت حتى لا يوافق لهم بالسفر إلى مؤتمر الصلح بباريس .

ظهور الوفد :

أمام رفض دار الحماية السماح بالسفر لسعد وزملائه إلى فرنسا وحسين رشدى والوفد المصرى الذى سيرافقه لانجلترا كتب سعد زغلول عريضة شديدة اللهجة وأرسلها للسلطان فؤاد . وهذه العريضة كانت بالعربية ومعها ترجمة لها بالفرنسية . لأن فؤاد كان لا يجيد اللغة العربية وخشى سعد أن يفوته معنى عند القراءة أو يلتبس عليه كلمة منها . فأرفق هذه الترجمة الفرنسية التى يجيدها فؤاد . وقال سعد للسلطان : ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى إعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الأمين . وفى اليوم التالى إستدعى الحاكم العسكرى الانجليزى سعد زغلول إلى مكتبه وهدده لأنه مشاغب سياسى . بعدها أرسل سعد برقية إحتجاج إلى رئيس حكومة بريطانيا . فحسب قرار فرض الاحكام العرفية التى لم تلغ بعد الحرب قبض على سعد وزملائه لنقيهم إلى مالطة . وفى اليوم التالى (٩ مارس عام ١٩١٩ م) اندلعت الثورة المصرية . قامت ثورة ١٩١٩ بتلقائية وطنية ولم يشعلها سعد . ولم يخطط لها أو يقدها . فقامتوسعد

وزملاؤه على سفينة يعرض البحر تنقلهم إلى منفاهم . فالثورة كانت تلقائية شعب أعلن عن مولد زعيم مصرى جديد . التفت الجماهير حوله رغم نفيه . فالثورة كانت دفينة في نفوس الشعب المصرى . ولم تكن هذه أول ثورة ضد الاحتلال . ففي عام ١٩١١ م خرج عمال الترام ومعهم زوجاتهم وأولادهم يصرخون من الاستغلال وأضربوا عن العمل وساروا يندبون بالاحتلال بعدما أوقفوا الترام بشوارع القاهرة مما أصاب العاصمة بالشلل التام وتصدى لهم عساكر الانجليز بالرصاص واستشهدوا ولم ينس الشعب هذه المذبحة . كما لم ينس لانجلترا في الحرب العالمية الأولى قبضها على ١٧ ألف مصرى سخرتهم في العمل لخدمة جيشها . وكان هؤلاء من العمال والفلاحين الذين أرسلتهم إلى الشام وفلسطين وفرنسا ومات منهم المئات . وهذا الشباب المصرى المسخر لدى السلطات البريطانية بترحيله من مصر طوال سنوات الحرب أثر غيابه على الصناعة والزراعة . علاوة على الغلال والماشية والخيول والحمير والجمال التى كان الانجليز يستولون عليها عشوة . وكان يعاونهم العمدة والمشايخ في الاستيلاء على هذا كله . كما كانوا يرهبون الفلاحين باسم السلطة . فسخر هؤلاء العمدة والمشايخ الفلاحين في أراضيهم بدون أجور نظير إعفائهم من السلطة والترحيل . فلهذا كان السواد الأعظم طوال سنوات الحرب يلقى أبشع أنواع السخرة . فخرج الفلاحون من هذه الحرب مفلسين وعليهم ديون للمرابين . ومما زاد يؤسهم المطاعون البقرى الذى داهم أبقارهم والوباء التى إلتهمت أقطانهم . وظروف الحرب العالمية إنخفض سعر القطن وساد البلاد كساد إقتصادى رهيب . وكان الشعور الواضح لدى الشعب المصرى أنه دفع بأبنائه لأتون الحرب وألهم قوته غيلة وغدرا من أجل حرب لاناقة له فيها ولا جمل . فثورة ١٩١٩ كانت في حقيقتها ثورة شعب جاع فهاج . والمطالع لمؤرخى هذه الثورة حيث عاصروها نجدهم قد بينوا أن الشائرين داهموا بيوت الاقطاعيين بحثا عن الخبز والطعام . كما فعل ثوار فرنسا إبان الثورة الفرنسية . فكانت بداية الثورة هي الثورة على الاقطاع رمز السخرة وعلى الانجليز الذين جروهم إلى البؤس والفقر . فقام الثوار بتحطيم وضرب المصالح البريطانية في مصر . بعد الطوفان عمت الاضرابات في كل مكان وبعد إندلاعها انضم إليها مشايخ الأزهر والقساوسة وتحولت المساجد والكنائس إلى قلاع للوحدة الوطنية رافعة شعار الهلال والصليب . والأحزاب الثلاثة التى كانت على الساحة السياسية وقتها متمثلة في الحزب الوطنى والامتوا أعضاء الوفد حاولت وقف هذا الطوفان الهادر والناثر . ولم يصدق الزعيمان سعد زغلول ومحمد فريد وهما في منفيهما خبر الثورة . ومن هول المفاجأة أعلن رؤساء هذه الأحزاب بما فيهم أقطاب الوفد بأن هذه الثورة تخالف الشرع

والدين رغم أن رجال الدين والأزهر والكنيسة المرقسية كانوا جميعاً فيها صفواً واحداً يستأيدونها .
والمطالع لكتاب فكرى أباطة (الضاحك الباكي) يجد أن قادة الوفد أثناء نفى سعد كانوا يشيرون
القسم بالله ويسعد في منفاه بمقاطعة البضائع الانجليزية واللغة الانجليزية وكل من له علاقة
بالانجليزية مع لبس الحداد حتى يعود سعد وزملائه . لكن المصريين كما يقول (لبلان) في كتابه
(في سبيل الاستقلال) كانوا قد لبسوا فعلاً السواد على شهداء الثورة . وبينما كان المثقفون
وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد يطالبون بالاستقلال عن طريق المفاوضات كان الثوار الفلاحون
والعمال لهم منطقهم . واتبعوا طريقاً آخر أكثر إبلاماً لانجلترا ضارين بقسم الوفد عرض الحائط
. فسعد زغلول قد أيقظ شعب مصر من غفوته عندما طلب منه التوقيع له على عرائض الوكالة عنه
ليتكلم باسم مصر ويطالب باستقلالها . وهذه التوقيعات التى إنهالت عليه جعلت المصريين
يشعرون بذاتهم وأهميتهم ضمن إطار الوطنية مما جعلهم يشعرون أنهم وحدهم أصحاب مصر .
والجماهير التى وقعت ويصمت بأصابعها وأختامها على عرائض سعد وضعت في مأزق وطنى لا
مفر منه . فلا بد أن يصر على الاستقلال لتحقيق رغبة الأمة ورفع الحماية عن مصر . فكان
إعتقاله ونفيه صدمة للشعب والأمة . فوكيلها منف . ومؤتمر الصلح سيعقد في باريس . فأصبح
لسان حالها يقول : من إذن سيتكلم باسم مصر هناك ؟ فاندلع المصريون ثورة ضد الاحتلال .
خشية أن تبند مطالبهم القومية . وخرجت النسوة مسلمات وقبطيات في شوارع القاهرة
والاسكندرية ثائرات هاتفات بالاستقلال أو الموت الزوام . واستشهدن برصاص الانجليز .

ثورة ١٩١٩ :

دلت طبول الثورة في كل واد من مصر . فهامى زفتى تعلن العصيان والاستقلال معلنة قيام
جمهورية زفتى الوطنية شعارها (الضيز - الحرية - الاستقلال) وجعل ثوارها الخبز قبل الحرية
لأن الشعب جاع فهاج .

ووقف السلطان فؤاد الانجليز وللول الأتراك الأعيان ضد الثورة مذهولين حائرين . وما هو
الليتبى الذى عين إبان الثورة مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر يصف هذه الثورة في تقريره الذى
أرسله على عجل لحكومته في لندن فيقول : إن هذه الثورة حركة سياسية دينية لأن الاضطراب
مشتركون جميعهم فيها رافعين علم الثورة (الصليب مع الهلال) . هذا هو صوت الأمة الذى علا
فوق صوت حكامها وزعمائها وأجبر جلادها على سماع مطالبها وشكواها وفرضت مطالبها على
الانجليز بلازعامة . فكانت أصوات الالاف الثائرة هديرأ غطى على أصوات المدافع والرشاشات

والطائرات التي قصفت أسيوطوكان ضحاياها مسلمين ومسيحيين ، وظلت هذه الثورة منذ لمة شهرا حتى رفضت إنجلترا وسمحت لسعدور فقائه بالتوجه رأسا من مالطة إلى باريس ليتكلم أمام مؤتمر الصلح باسم مصر . وعندم سعد عند وصوله عندما أعلنت أمريكا إقرارها بالحماية البريطانية على مصر وهبت وعود ولسون أدراج الرياح الاستعمارية . بعدما قدم الثوار إلى محاكم الانجليز التي نصبوها في كل مكان وأقيمت المشايق للثوار في المدن والقاهرة الاسكندرية وكانت أحكامها الشنق والجلد والسجن بعدما سقط المناشدات شهداء الثورة . وبينما سعد كان في باريس وقد أوصدت الأبواب في وجهه وفرنسخر فرنسا على مهمته حصارا إعلاميا ونهبت الحكومة الفرنسية على الصحافة بالتعتيم على أخبار مصر ومهمة سعد في باريس كان الشعب يلبس السواد حزنا على شهدائه الذين سيقوا للمشائق حتى أصبحت كل مدينة دنشواى أخرى . وفي يوم عيد جلوس ملك بريطانيا جورج الخامس وكان يوم عيده أجازة رسمية بمصر لبس فيه المصريون السواد حدادا على شهداء الثورة وكان في كل بيت بمصر ماتموسارت المظاهرات الصامتة حدادا على شهداء مصر في هذا اليوم .

وفي ١٨ يونيو ١٩١٩ م . أعلنت إتفاقية الصلح وفيها نص صريح بتثبيت الحماية البريطانية لمصر . وكان إعلان الاتفاقية بقصر فرساي بباريس حدمة للوند المصرى هناك . فانشق أعضاءه عن سعد . وعاد بعض أقطابه وعلى رأسهم إسماعيل صدقى . وعم البلاد روح الاحباط واليأس . فأخذ الوطنيون يقاتلون عساكر الانجليز في كل مكان وظهرت المنشورات السرية تهاجم السلطان والانجليز . وفي ١٢ نوفمبر إجتمع المسلمون والاقباط في اجتماع دعت إليه الكنيسة المرقسية بها ... بعدما أعلن شعار الوحدة الوطنية (الحرية - المساواة - الاخاء) . تأكيدا على مواصلة النضال والكفاح يدا واحدة ضد الاحتلال .

وفي ٢١ نوفمبر أعلنت الكنيسة بيانا فيه معارضة الاقباط للجنة ملنر بعدما رفضها المسلمون . وكان هذا الاعلان بمثابة رسالة لانجلترا بأن مصر أمة واحدة وشعب واحد . وملنر قد جاء مصر للتحقيق في أسباب الثورة ووضع صيغة ملائمة لمشروع الدستور . كل هذا وسعد ما زال في باريس بعدما أصابه الاحباط في مهمته إبان مؤتمر الصلح . والشعب في غيبة زعيمه رفض مهمة لجنة ملنر . فقامت المظاهرات ومن شدتها دخل عساكر الانجليز الأزهر والكنائس للقبض على زعمائها . وعند وصول ملنر لمصر كان عدلى يكن رئيس الحكومة والمفاوض عن الجانب المصرى قد رفض مشروع ملنر صراحة .

كل هذا من وقائع الثورة المصرية وحضور لجنة ملنرورفض عدلى يكن لمشروعها كان سعد زغلول ما زال في باريس لا عمل له هناك بعدما أحبطت مهمته . ودبت الخلافات بين أعضاء الوفد في غربتهم وهذه الخلافات أصبحت فيما بعد خصومات سياسية بعدما عادوا إلى مصر وهذه الخصومات أثرت على الحياة السياسية فيما بعد . بل أضرت بالمصالح القومية خلال العشرينات والثلاثينات . وعاد سعد وصحبه من باريس بخفى حنين في ٥ يونيو ١٩٢٠ م . واستقبله الشعب إستقبال الأبطال .

وسبب الخلاف بين أعضاء الوفد في باريس هو إقتراح أعضائه على سعد بتشكيل حكومة مصرية موثوق فيها للتفاوض مع الانجليز يختار هو أعضاء ها ممن يثق فيهم . وكان عدلى يكن رئيس الحكومة المصرية وقتها معروفًا عنه التشدد أمام إنجلترا والتمسك بالمطالب القومية وهذا كان واحدا في لجنة ملنر . ورفض سعد أن يتولى هذه الحكومة عدلى يكن . وصمم على أن يتولاها ليكون هو على رأس الوفد المفاوض . متمسكا بالتوكيلات التى وقعها له الشعب . ورفض أن يكون عضوا في وفد يرأسه عدلى بحجة أن عدلى لا يحق له أن يرأس وفدا يقرر مصير أمة . وأمام إصرار سعد إنفض أقطاب الوفد عنه وتركوا باريس عائدين ولم يبق معه سوى النحاس وعلى ماهر وواصف بطرس غالى وسينوت هنا . وظل سعد زغلول بباريس . وبعد عودة سعد لمصر عام ١٩٢٠ م . توجه عدلى يكن ومعه وفد إلى لندن عام ١٩٢١ م . للتفاوض مع الحكومة البريطانية . وعدلى كان لا يقل وطنية عن سعد رغم تركيته . فهو من الجيل الثالث التركى الذى ولد بمصر . وبينما كان يقاوض الانجليز بلندن كانت المظاهرات قد نشبت في مصر بايعاز من سعد زغلول عن طريق أعضاء الجمعية التشريعية التى كان وكيلها . وأخذت الجماهير تهتف (الاستعمار على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى) . لكن عدلى إختلف مع الانجليز في مفاوضاته التى قطعها بعدما طلب من الانجليز إصدار تصريح يبينون فيه وجهة نظرهم . ثم عاد ليقيم إستقالته . بعدها أصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م . وبعد عودة عدلى إعتقلت إنجلترا سعد ونفته لجزيرة سيشل . ثم أعلنت تصريحها وقبله عبد الخالق ثروت الذى كان رئيس الحكومة وقتها . ولم يخرج عن المشروع الذى رفض عدلى بعض ما جاء فيه . وهذا التصريح كان يضمن إلغاء الحماية لتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة وإلغاء الاحكام العرفية . وعلقت بريطانيا بحث مسألة السودان وتأمين طرق المواصلات البريطانية ولا سيما إلى مستعمراتها بالهند وحماية المصالح الاجنبية في مصر . وبعد هذا التصريح وقبله عين عبد الخالق ثروت وزيرا

للخارجية لأول مرة منذ الاحتلال ضمن وزارته . وأعلنت الملكية في مصر وأصبح السلطان فؤاد ملكا بعدما ألغيت السلطنة .

عيد الدستور

في ١٥ مارس ١٩٢٣ م . إفتتح البرلمان . واعتبر هذا اليوم أول عيد للدستور وكان عطلة رسمية . وعلى الفور تشكلت لجنة لوضع الدستور وقاطع سعد زغلول ومعه الوفد الاشتراك فيها بل هاجموها . وهم في منقاهم كما هاجمها الحزب الوطنى الذى كان يرأسه على فهمى كامل (شقيق مصطفى كامل) لأن خط الحزب الوطنى هو إستقلال مصر عن إنجلترا مع تبعيتها للدولة العثمانية . لهذا نحن (مصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة) لم يرض عنه زعماء الحزب الوطنى الذى كان معظم قياداته وقتها من المصريين من أصل تركى . والوفد لم يبق فيه سوى ثلة ياريس التى ظلت مع سعد هناك بعد عودة المنشقين وعددهم لم يكن يتعدى أصابع اليد . وكلهم منفيون في سيشل . وبعد إعلان الدستور أفرج عن المسجونين السياسيين بما فيهم مسجونو الثورة التى حكمت عليهم محاكمها بالسجن ومسجونو دنشواى . وأفرج عن سعد في منقاه وهذا العفو تم رغم احتجاج الانجليز لكن مصر أصبحت وقتها دولة مستقلة ذات سيادة هكذا كان رد عيد الخالق ثروت عليهم حيث أبلغهم أن هذا تدخل في شئون مصر المستقلة .

أما دستور ١٩٢٣ م يرجع الفضل في صدوره ليحى إبراهيم رئيس الحكومة وقد إختاره السلطان فؤاد والانجليز رئيسا للحكومة الانتقالية لأنه ليس حزبيا فقد كان مستشارا قضائيا لا يمارس السياسة . واتسم بالهنوء والصمت . ودستور يحى إبراهيم ما زال عمدة الدساتير المصرية حتى الآن . وكان قد أعد مسودة الدستور وتقابل مع الملك فؤاد الساعة ١١ ليلا . وأمام مجلس الوزراء قدم له الدستور قائلا : مصلحة البلاد العليا تقتضى توقيع الدستور الليلة . فاسقط في يد الملك فؤاد . ووقع عليه . بعدها أعلن إلغاء الاحكام العرفية التى فرضت على البلاد عام ١٩١٤ عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر مع إعلان الحرب العالمية الاولى . واجريت الانتخابات العامة التى أتت بسعد زغلول رئيسا للحكومة لأن حزبه الوفد قد اكتسح وسقط يحى إبراهيم نفسه في هذه الانتخابات النزيهة وكان رئيسا للحكومة وقتها . ولأول مرة تشكل حكومة حزبية بالانتخاب العام في التاريخ السياسى المصرى .

لقد أصبح الوفد له شعبيته بزعامة سعد زغلول وخاض المعركة الانتخابية عام ١٩٢٤ م . وحاز على أغلبية ساحقة لأن الانتخابات كانت نزيهة مائة في المائة وهذه المرة الوحيدة والأخيرة

في تاريخ الحكم النيابي في مصر ، وتولى سعد رئاسة الحكومة وأطلق على وزارته وزارة الشعب أو الافندية لأنها خلت من الباشوات . وأصبح لمصر برلمان له مجلسان هما الشيوخ والنواب واختير أحمد باشا مظلوم رئيسا لمجلس النواب . فوضع تقاليد برلمانية أهمها إعطاء النائب الفرصة الكاملة للتعبير عن رأيه مهما قاطعت معارضة النواب طالما إحتل منصة المجلس فلا يتركه إلا بعد أن يفرغ من كلمته مهما إستغرق من وقت . وهذا المجلس كان به معارضة من ١٩ نائبا هم أحزاب الأقلية كال حزب الوطنى والحرار الدستوريين (تأسيس هذا الحزب عام ١٩٢٢م والمستقلين . وكانت هذه المعارضة ضد حكومة سعد وحزب الوفد ورغم هذا كانت المعارضة تحترم وتستحي منه رغم ضيق صدره منها . فسعد كان ديكتاتورا لا يطبق معارضة رأيه أو مناقشته فيه وكان دائما لا يطلب من النواب بالمجلس التصويت على ما يتقدم به بل التأييد لكل ما يعرضه عليه . لكن في غيبة سعد كان المجلس يتناقش بمنتهى الحرية والديموقراطية ويفسح صدره للمعارضة وفي ١٥ مارس ١٩٢٤ م . ألقى سعد خطاب العرش . ويعدده خصص المجلس جلسة خاصة لمناقشة مشكلة السودان أعلن فيها سعد أنه (بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه وفي حضر تكم الموقرة أصرح بان الأمة المصرية لا تتنازل عن السودان ما حييت وعشت . وأنت الريح السياسية بما لا يشتهي سعد . فلقد فشلت مباحثاته مع ما كونا لد حول السودان وأختيل (لى ستاك) الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى هناك . بعد ها إستقال سعد من الوزاره ففرض بريطانيا شروطها الجائزوا همها إنفرادها بالسودان وتم هذا في حياة الزعيم سعد فخلول . وكانت إستقالة سعد وهوزعيم الأمة قد ترك السفينة في أخرج الموجات العاتية وتخلى عن قيادتها وهو الحائز على الأغلبية الساحقة في البرلمان وهذا التخلى جعل بريطانيا تفرض شروطها على مصر . وتنازلت الأمة قسرا عن السودان في حياة سعد الذى كان مازال هيا يرزق وكان بصلايته المعهودة كفيلا بالوقوف أمام الانجليز وكشف مخططاتهم وإجهاض نواياهم . لكنه صمت ولم يفعل شيئا .

وعلى جانب آخر على صعيد مشكلة السودان نرى الجيش المصرى هناك يرفض تسليم أسلحته والعودة تاركا السودان للانجليز . لكن حاكم السودان الجديد جمع القوات السودانية وأجبرها على حلف يمين الولاء له ولبريطانيا بدلا من الولاء لملك مصر والسودان . ثم فرضت إنجلترا حمايتها حسب ما جاء في تصريح ٢٨ فبراير حيث فرضتها على المصالح الاجنبية في مصر . واحتلت ميناء الاسكندرية . وكان هذا إعتداء صارخا على الدستور المصرى الذى لم يجف مداده بعد . وحلت مجلس النواب ولم يمض على تشكيله عام . وشكل بالانتخاب النزيه مجلس

جديد عام ١٩٢٥ م . وحل في نفس اليوم بقرار من الملك فؤاد . وفي نفس الليلة إجتمع النواب في فندق الكونتنتال وأتفقوا على تكوين حكومة إنتلافية وأعلن سعد وثيقة وقعها النواب وعرفت بوثيقة الكونتنتال . وفشلت هذه المحاولة . وفي ١٩٢٦ تشكل مجلس ثالث جديد وبعده دخلت مصر في أتون الصراع السياسى بين القصر والاحزاب والانجليز خلال الثلاثينات والاربعينات حيث أصبحت الحركة الوطنية هى التناطح على كرسى الوزارة وليس الاتحاد لتحقيق الجلاء وعودة السودان لمصر .

وفي عام ١٩٢٧ م . ظهرت أزمة الجيش عندما أخذ مجلس النواب يبحث زيادة عدده وتسليحه . فحاصرت انجلترا مصر بالبوارج الحربية تهدد مصر لتتصرف عن مسألة تقوية جيشها . وهذا التهديد جعل الملك فؤاد ومعه عبد الخالق ثروت رئيس الحكومة يهرعان إلي لندن لبحث الموقف مع الحكومة البريطانية التى طلبت من الملك فؤاد حل البرلمان ووقف الحياة النيابية وتعطيل الدستور . وأعلن مستر لويد بأن من مصلحة مصر تعطيل الدستور والبرلمان لأن الحكم الدستورى في مصر تجربة فاشلة . فكان هذا على مدى الملك فؤاد لأنه سيحقق له الحكم المطلق لمصر بلا معارضة . فيطلق فيها يده بلا منازع كما كان أباقه يفعلون . فأتى بمحمد باشا محمود عام ١٩٢٨ م . ليرأس الحكومة لضرب القوى الوطنية في مصر ومنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة وأهى قانون المطبوعات والنشر لتعطيل الصحف الوطنية ومصادرتها وجمد المجلس النيابى بصدر مرسوم ملكى بتأجيل إجتماعات البرلمان لمدة ثلاث أعوام بالرغم من عدم وجود أى ظروف خطيرة أو كوارث تستدعى هذا التعطيل للحياة الدستورية في البلاد . وأعتبر محمد محمود أن حصانة النواب قد فقدت بهذا التأجيل رغم أن المجلس كان مجمدا وليس منحلا . وأخذ يلاحق النواب ويقبض عليهم ويزج بهم في السجون وسلط عليهم البوليس السياسى لاهانتهم وتعذيبهم . وأصبحت الوطنية سبة بل لعنة تطارد صاحبها وقتها . وتلا صدقى باشا محمد محمود في رئاسة الحكومة . وكانت وزارته وزارة الحديد والنفار كما كان يقال . وصدقى ومحمد محمود كانا كما سبق وأن أشرت من المنشقين على سعد في باريس . لهذا أصبحت السياسة الآن تصفية حسابات قبل أن تكون مصلحة أمة . رغم خلو الساحة من سعد لأنه كان ميتا وقتها .

أزمة الدستور

اللى صدقى الدستور الذى عرف في التاريخ المصرى بدستور ١٩٢٣ وأصدر دستورا عام ١٩٣٠ عرف بدستور صدقى الذى تحدى به الارادة الشعبية والحركة الوطنية المصرية . وظلت

البلاد في قلق سياسي خطير طوال حكمه الذي ظل حتى عام ١٩٢٣ م . فاستقال بعدما أعياه المرض وأقعده وكانت ربود الفعل لوازرتي محمد محمود وصديقى على الشعب سيئة للغاية وهذا جعل الحركة الوطنية تنتقل من أيدي الزعماء إلى أيدي الوطنيين من شباب مصر فظهرت التنظيمات السرية لمقاومة الاحتلال وأخذت القنابل تنفجر في كل مكان وفي معسكرات الانجليز . مما جعل الملك فؤاد يلغى دستور صديقى لتظل البلاد عام ١٩٣٤ بلا دستور لمدة عام . وهذه الفترة أطلق عليها أزمة الدستور . حيث أعلن مستر هوارد وزير خارجية بريطانيا عدم عودة دستوري ١٩٢٣ م و ١٩٣٠ م . وهذا جعل الأحزاب تحت ضغط الحركة الوطنية والمقاومة الشعبية السرية التي تفشت . تكون جبهة وطنية عام ١٩٣٥ م . ضمت الشخصيات الحزبية والمستقلة . وهذه الجبهة طالبت الملك فؤاد بعودة دستور ١٩٢٣ م . وطالبت اللورد كيلرن المندوب السامى البريطانى بإبلاغ حكومته بأن مصر تريد فتح باب المفاوضات التي توقفت عام ١٩٣٠ م . بين النحاس وهندرسون .

مماهية ١٩٣٦ :

أعاد الملك فؤاد الدستور وأجريت الانتخابات عام ١٩٣٦ م . ولماز النحاس فيها بأغلبية ساحقة ليتولى الوزارة حزب الوفد برئاسة . ودارت بينه وبين بريطانيا المفاوضات حول الجلاء والجيش . وأدت هذه المفاوضات إلى توقيع معاهدة ١٩٣٦ م . التي نصت على أن يتم جلاء الانجليز نهائيا من مصر عام ١٩٥٦ أى بعد عشرين عاما من توقيع الاتفاقية . ولهذا عام ١٩٥٤ م . وقعت إتفاقية الجلاء أيام حكومة محمد نجيب ورئيس الجمهورية وقتها ليكون الجلاء في عام ١٩٥٦ نفس موعد تنفيذه حسب إتفاقية عام ١٩٣٦ ووقع إتفاقية عام ١٩٥٤ جمال عبد الناصر نيابة عن الحكومة المصرية . والنص الثانى في المعاهدة هو تمصير الجيش المصرى مع الاستعانة في تدريبه بالخبراء الانجليز وتسليحه بالاسلحة الانجليزية . ونصت المعاهدة على تواجد قوات بريطانية بمنطقة القتال لحمايتها إلى أن يصبح جيش مصر قادرا على الدفاع عنها وحمايتها . وهذه المعاهدة كما قيل عنها معاهدة تحالف وصداقة . وفي عام ١٩٣٧ وقع النحاس إتفاقية مونترييه ألغى فيها الامتيازات الاجنبية ونصت على إلغاء المحاكم المختلطة بعد ١٢ عاما وألغيت فعلا عام ١٩٤٩ . وبعد توقيع المعاهدة أخذ النحاس يصفها بأنها معاهدة الشرف والاستقلال لأنها فعلا أكدت استقلال مصر لأن التحالف لا يتم إلا بين دولتين مستقلتين عكس الحماية . فيمكن فرضها على دولة دون إرادتها . والمعاهدة رغم ما حقته أقرت بفصل السودان عن مصر

ولم يعد الصلة بينهما سوى النيل ولقب (ملك مصر والسودان) . لهذا إنصببت المعارضة بالهجوم على المعاهدة ولو كان النحاس علق مشكلة السودان لبحثها فيما بعد لكان هذا أهون من موافقته على فصل السودان إداريا عن مصر . لهذا وصفت المعارضة (وكانت أقلية) . هذه المعاهدة بأنها حماية وليست إستقلالاً . رداً على النحاس الذى قال عنها بأنها معاهدة الشرف والاستقلال . رغم أنه كان في موقف تفاوضى ممتاز أمام الجانب البريطانى لأن نذر الحرب العالمية كانت على الأبواب وأصبحت بريطانيا في مقدمتها ولا تعرف من معها أو عليها وكانت حريصة على كسب مصر في صفها لموقعها الاستراتيجى ولوجود القناة الدولية فوق أرضها . فالنحاس لم يستغل الفرصة المتاحة التى كانت فيها بريطانيا غير مؤهلة نفسياً وسياسياً وعسكرياً للتغنت أمام مطالبه أو رفضها . فالنحاس رغم المكاسب التى حصل عليها في المعاهدة تعجل بقبول شروط بريطانيا . وكان موقف بريطانيا صعباً للغاية لأنها لم تعد تحتل ثورة مصرية كثيرة ١٩١٩ وهى على أبواب حرب عالمية لا تعرف فيها الصديق من العدو . لهذا قامت معارضة ضد المعاهدة في مصر لأن إنجلترا إستفادت منها بجعل وجودها في القناة شرعياً بحجة الدفاع عنها وحماية مصر . والمعاهدة جعلت مصر رهينة وبقرة تحلبها إنجلترا أثناء وقوع حرب خندها وطوال قيام هذه المعاهدة نصت على إستغلال إنجلترا موارد مصر وأراضيها في حالة نشوب أى حرب ضدها وطوال قيام هذه الحرب . وبعد المعاهدة إتجه النحاس إلى الاستقلال بالسياسة المصرية والجيش عن النفوذ والتدخل البريطانى . وانضمت مصر إلى عصبة الأمم كنزلة مستقلة ذات سيادة . ورغم ما قيل أو يقال عن المعاهدة إلا أنها في مجملها كانت وثبة قومية على طريق الاستقلال . لأنها كما قال الدكتور عبد الله العربى عنها في صحيفة الجهاد بأنها خلقت لمصر إستقلالها التام وسيادتها الكاملة . وما جاء فيها هو تحالف عسكرى لا يتعارض مع السيادة الداخلية والخارجية . وقد أجمع المؤرخون على هذا الرأى . واعتبروا هذه المعاهدة نقطة تحول كبرى بل ومحورية في تاريخ الحركة الوطنية . لأنها أعتبرت تحالفاً على وجود قاعدة عسكرية بريطانية في قناة السويس لتأمين مصالح بريطانيا في الهند والشرق . وهذا التحالف يؤكد إستقلال مصر في نظرهم .

جـهـمـ فـاروقـ :

كان فاروق ملكاً مريضاً بمرض عقلى لاصابته بمرض التهاب السحايا (الحمى الشوكية) وهو في التاسعة من عمره واستدعى الملك فؤاد كبار الأطباء الايطاليين . وهذه الرواية كشف عنها لأول مرة مرتضى المراغى في مذكراته بعنوان (غرائب من عهد فاروق) .

وهذا المرة لازمت آثاره الملك فاروق طوال حياته وجعلته أموج التصرف ومشتتا في تفكيره وقراراته . وأخفى هذا المرض عن الشعب المصرى وكان له آثاره السيئة على الملك فؤاد الذى ر فى ولى عهده وإبنة الوحيد على أخواته الثلاثة . وجعل هذا المرض فاروق يسلك مسلكا طفوليا ف معظم تصرفاته الصببانية . وكان الزعماء السياسيون يعاملونه بمنتهى الحذر وعلى رأسه مصطفى النحاس باشا . وأصبح ملك مصر والسودان ألوية فى أيدي حاشيته ويطانته . وكان جميعا أهل سوء .

وكان على ماهر رئيسا للديوان الملكى وقتها والنحاس رئيس الحكومة . وكان الملك هبب غرا وبعد عام من توليته العرش أقال النحاس باشا عام ١٩٤٨ م . والمطالع لخطاب الاقالة سيجا فيه وقاحة ملك إالى زعيم الأغلبية البرلمانية وقتها . وبعد الاقالة حل الملك البرلمان ليفقد النحاس أغلبته فيه . والملك لم يكن محتكا فى السياسة والأمر الدستورية لكن على ماهر كان له مز الناصحين والمخططين لبث الوقية بين الملك والنحاس زعيم الأغلبية وزعيم الأمة وقتها . ليخلول الجو السياسى وصول ويجول فيه . وعلى ماهر كان داهية بمعنى الكلمة وسياسيا لا يشق له غبار فى معارك السياسة . وكان يمتاز بالهدوء والتخطيط لدرجة كان يلقب بالثعلب لدهائه ومكره . فنراه بعد إقالة النحاس يولى محمد محمود لثانى مرة وكانت المرة الأولى التى تولى فيها رئاسة الحكومة كانت فى أعقاب وزارة النحاس الأولى . وخطا محمد محمود فى وزارته الثانية عدة خطوات إصلاحية فى الجيش وتسليحه واشترى سربين من الطائرات فى عام توليه وألقى البديلة العسكرية وجعل التجنيد إلزاميا ما عدا بعض الاعفاءات التى كان ينص عليها قانون التجنيد . ثم إستقال فى نفس العام الذى تولى فيه وهو عام ١٩٣٨ م . ليخلفه على ماهر فى أوائل عام ١٩٣٩ م . وكان مجيئه فى الوقت المناسب لأن الحرب العالمية كانت قد اشتعلت فى بولندا . وهذه الفترة كانت فترة سياسية حرجة بالنسبة لموقف مصر المستقلة وتنفيذ إنجلترا لشروط معاهدة ١٩٣٦ م . فبثعلبية على ماهر إستطاع عزل الملك تماما فى قصره عن السياسة المصرية . ولكونه كان رئيس الديوان الملكى حيد الحاشية . ولم يكن بمعزل عما يدور فى كواليسه عن طريق أتباعه فى السراى .

فلما نشبت الحرب العالمية الثانية رفض صراحة إعلان الحرب مع إنجلترا ضد ألمانيا . والتزم أمامها بتنفيذ المعاهدة حرفيا . وعلى جانب آخر كان على صلة بالنازى وأصبح همزة وصل ما بين الألمان والملك . وهذه العلاقة الألمانية المصرية كانت طى الكتمان . ونرا للرماد قطع

العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الألمانية . لكن إنجلترا رغم هذا أحست بأن على ماهر ليس رجلها المفضل في مصر رغم التزامه التام بتنفيذ بنود المعاهدة حرفيا بلا زيادة أو نقصان . وكان تنفيذه لها كما يقول (كامبل) تنفيذ المكره الساخط . لأنه كان متحفظا في تعاملاته مع السفارة البريطانية .

وسلط هتلر دعاياته عبر الاذاعة إلى المصريين باللغة العربية وروج عن طريق عملائه دعايات مضادة للانجليز بين جماهير الشعب المصري الذي كان يهتف تقدم ياروميل تشفيا في الانجليز . ووجدت إنجلترا أن الملك وعلى ماهر رئيس الحكومة المصرية والشعب المصري معظمه مع الالمان قلبا وروحا خندهم . فلم يكن أمامهم خيار سوى القيام بعملية ٤ فبراير ١٩٤٢ م . وهذا الحادث أضاع هبة الملك وأتى بالنحاس فوق رماح القوات الانجليزية التي حاصرت سراي عابدين وبها الملك فاروق . وأندرت السفارة البريطانية فاروق إما عودة النحاس للرئاسة وإما الخلع في ٢٤ ساعة . ولأول مرة يقف الشعب بقلبه مع ملكه الذي إنصاع لمطالب الانجليز وأصدر مرسوما بإقالة على ماهر وتعيين النحاس عن كره منه . وقبل النحاس تشكيل الوزارة .

من الجحود السياسي أن نسقط من تاريخنا زعامة كزعامة النحاس ولا سيما في هذه الفترة بالذات فلقد كان حادث ٤ فبراير صورة إنتهازية إستعمارية إلتصقت بالنحاس وكانت مثلبا للنيل منه ومن زعامته لسنوات ما بعد الحرب . وما زال إلى اليوم يعير بها تاريخه وحزبه . ويغض النظر عما قيل أو يقال عنه فهو زعيم . قال عنه الدكتور حسين مؤنس . حكم قلبا وعقلا لأن جهاده كان جهاد السياسي المكتمل الزعامة التي كان يتسم بمهابتها وعظمتها . والتي ظهرت في حادثه ٤ فبراير حيث أرجف البعض بها وبينوا أنها مثلب ضده . لكن كل ما يقال لا يؤخذ على عواهنه . وإلا تاهت الحقيقة . وحادث ٤ فبراير رغم أنه كان يحتم على زعيم كالنحاس ألا يقف مكتوف الأيدي ولا سيما أنه كان على بينة بما يدور على مسرح العمليات في شمال أفريقيا وما كان يدور في كواليس السراي من تحالف مع الالمان وعملاء النازي وقتها . فالالمان كانوا بدعاياتهم قد إستحوذوا على عقول المصريين ومنوهم بالجلاء والتخلص من الانجليز وقتها كانت قواتهم على أبواب مصر عند العلمين . لهذا جن جنون الانجليز ولم يكن أمامهم حل سوى إقصاء على ماهر عميل المانيا الأول في مصر . عكس النحاس الذي كان ولاؤه لمصر بعيدا عن إنجلترا وألمانيا . وله شخصيته وزعامته . فرأى الانجليز أن في عودة النحاس إلى الحكم سينقذ الموقف المتردى وقتها . ورأى النحاس أن قبوله للمنصب فيه غنم لمصر لأنه سيكون على مقربة من الأحداث لينقذ مصر

وزعامته . إما أحمد ماهر نأى عن هذا واتجه بنظرته السياسية إلى التطلع لموقف مصر بعد الحرب . فالألمان أصبحوا على وشك الهزيمة والهلفاء في طريقهم لإعلان سقوط برلين عاصمة ألمانيا . فأراد أحمد ماهر إعلان الحرب في آخر لحظة بعدما كانت مصر على الحياد إسمياً إبانها . وهذا الاعلان الصورى سيعطى مصر الحق في حضور مؤتمر الصلح وتكون طرفاً فيه بصفتها دولة مصر المستقلة وعضو عصبة الأمم . مما يجعلها صاحبة الحق في التعويضات عما أصابها من أضرار أثناء الحرب . وهذه نظرة إيجابية لأنها ستحقق لمصر غنماً . لا غرماً لها بالمرة وفي الحضور تأكيد على إستقلالها وسيادتها على أراضيها أمام العالم في هذا المؤتمر الدولى الذى يضم الدول العظمى كلها . لكن النحاس في ٢٥ فبراير نشر بياناً بجريدة البلاغ إتهم فيه أحمد ماهر بالخيانة العظمى بإعلانه الحرب على ألمانيا . وهذه سقطة من النحاس لا تفتقر لأن الموقف السياسى على الصعيد القومى كان وقتها لا يحتمل مناورات سياسية . فالشعب بما فيه الشباب كان متحمساً لألمانيا وللهتلر ولم يكن على بينة بأبعاد الموقف العالمى من الحرب . فاتهم النحاس لأحمد ماهر بالخيانة صراحة لأجهاز مهمته أوغر صدور الشباب الذين ضربوا أحمد ماهر بالرصاص واغتالوه غيلة وغدرا في البرلمان لتخسر مصر أحد سياستها العظام .

وكان للاحياط القومى الذى عم البلاد من تناطح الأحزاب على الحكم أن عمت الاضرابات عامى ٤٦ و ١٩٤٧ في كل مكان حيث أضرب العمال والطلبة والموظفون وساروا في الشوارع يطالبون بالجلء . وقامت الجماهير الغاضبة بتمزيق العلم البريطانى بالقاهرة والاسكندرية واحتكت بعساكر الانجليز واستشهد العشرات وكان محمد فهمى النقراشى رئيساً للحكومة الذى أمر بإطلاق النيران وفتح كوبرى عباس على الطلبة وغرق الكثيرون منهم خوفاً من الرصاص الذى كان ينهال عليهم برصاص البوليس المصرى فآلقوا بأنفسهم في النيل .

وفى عام ١٩٤٨ أعلنت مصر دخولها حرب فلسطين وقصة الأسلحة الفاسدة معروفة والخيانة التى صاحبته معروفة وحصار القوات المصرية في الفالوجة وإنسحابها بعده عام ١٩٤٩م من فلسطين . بعدما ألحت مصر على عقد مؤتمر رودس لتوقيع الهدنة مع اليهود . وكانت قواتنا قد هزمت هناك رغم إستشهاد الكثيرين منها . وأبلى كتائب الاخوان المسلمين بلاء حسناً فيها ومن بينهم الشهيد أحمد عبد العزيز . واستقبلت الجماهير أبطال الفالوجة وقوات الجيش المصرى عند عودتهم من فلسطين إستقبال الأبطال المنتصرين وأستقبلهم الملك فاروق في ميدان عابدين وأنعم عليهم بالنياشين والهدايا . وكان الشعب لا يعرف مدى التضليل الاعلامى الذى

يروجه الملك حول جيشه المنهزم . فكانت حرب فلسطين بإبعادها المساوية نكبة للمصريين
والفلسطينيين معا . فبينما كان الملك يستقبل قواته المظفرة كان الآلاف يذبحون وينزحون من
أراضيهم الفلسطينية بلا ملأى تطاردهم بنادق ومدافع العصابات الصهيونية .

وفي عام ١٩٥١ أعلن النحاس النحاس الفاسم عهده ١٩٣٦ وإلغاء لاتفاقية الثنائي بين مصر
 وإنجلترا عام ١٨٩٩ م . والخاصة بالحكم الثنائي بينهما للسودان وأعلن أن الملك فاروق ملك مصر
 والسودان . بعدها ظهرت حركة الفدائيين كتنظيمات سرية تضم المتطوعين . وكانت بعيدة عن
 سيطرة الحكومة . وكان الشعب يمولها . وحول الفدائيون منطقة القنال التي كان فيها معسكرات
 الانجليز إلى جحيم لا يطاق . مما جعل القوات البريطانية تحاصر بلوكات النظام (قوات الأمن
 المصرية) في ٢٥ يناير ١٩٥٢ وكانت في مدينة الاسماعيليه . وحوصرت هذه القوات بالدهابات
 البريطانية . أطلقت عليها النيران لكن المصريين قاوموا هودافوا من معسكراتهم ببسالة واستشهد
 منهم البعض وأصبح هذا اليوم ميذا للشرطة لاستبسالها أمام القوات البريطانية ولم تستسلم . لهذا
 قرر النحاس قطع العلاقات مع بريطانيا والقبض على كبار الشخصيات الانجليزية كرهائن لوقف
 معركة الاسماعيليه . وانطلقت المظاهرات إلى سراي القبة حيث كان الاستعداد للاحتفال بعيد ميلاد
 الطفل أحمد فؤاد ولي العهد . ووقفت الجماهير الفاضحة تطالب ملك البلاد بالسلاح للحرب في
 القناة . وفي اليوم التالي كان السبت الأسود ٢٦ يناير ١٩٥٢ ثاني يوم معركة الاسماعيليه يوم
 حريق القاهرة المشهود .

قيام ثورة يوليو

كان حريق القاهرة اليوم الأغبر بداية العد التنازلي لوجود فاروق على عرش مصر رغم أن
 الجناة ما زالوا مجهولي الهوية حتى الآن . لكن كان وراءه ملك حبث بمقدرات شعبه ولم يدرك أنه
 كان يحفر قبره . وكان واضحاً أن هذا الحريق دبته السراي مع المخابرات البريطانية في مصر
 لاختفاء حركة الفدائيين وضرب حكومة الوفد بزعماء النحاس التي أقالها . لهذا بعد نشوب الحريق
 بساعات أصدر الملك فاروق مرسوماً بإقالة النحاس وبخه فيه متجاهلاً أنه زعيم للأغلبية البرلمانية
 ثم أعلن الأحكام العرفية . بعدها دخلت مصر لعبة تغيير الحكومات فشكلت منذ يناير حتى قيام
 الثورة في يوليو عام ١٩٥٢ سبع وزارات كان بعضها يحكم أياما معدودات ثم تقال .

وفي ٢٣ يوليو قامت الثورة بقيادة اللواء محمد نجيب . واستقبلها الشعب بفرحة وأمل .
 وكان شعارها (الاتحاد والنظام والعمل) . وقائد الثورة محمد نجيب كان شخصية محبوبة في

الجيش المصرى وكانَ معروفًا لدى الشعب لما بذله من شجاعة وبطولة في حرب فلسطين . وفي ٢٦ يوليو تنازل فاروق عن العرش لولى العهد أحمد فؤاد وكان طفلاً رضيعاً عمره شهور فعين له مجلس وصاية . وتعين على ماهر أول رئيس وزراء في عهد الثورة حيث أصدرت حكومته قانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية وإلغاء الألقاب وأستعفى عنها بلقب (السيد) يسبق إسم كل مواطن .

وفي عام ١٩٥٢ ألغيت الملكية في مصر وأصبحت جمهورية . وتعين اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية . وبهذا أصبح لابسو الجلايب الزرقاء أصحاب بلدهم وحكامها . وحلت الأحزاب عام ١٩٥٣ وقدم زعمائها للمحاكمات بتهم الرشوة والمحسوبية والفساد السياسى ونهب قوت الشعب . وسجن منهم من سجن والنحاس حددت إقامته ببيته حتى مات عام ١٩٦٥ وتكتمت الصحافة خبر وفاته . وفي ١٩٥٤ حلت جماعة الإخوان وقبض على أفرادها وزج بهم في السجون . وأقيل محمد نجيب وحددت إقامته في بيت النحاس بالمرج .

حكام مصر قبل الفتح

حكام مصر قبل الفتح:

- ٥٠٠٠ ق. م. - عصر ما قبل الأسرات .
- ٢١٠٠ - ٢٢٨٦ ق. م. - بداية عصر الأسرات
(الأسرتان الأولى والثانية) .
- الملك مينا يوحنا القطرين . روتيد مدينة منف .

الأسرة الأولى:

- العاصمة أبيدوس .
- ملوكها : سخموي ونب رع وتتريمو وأونج
وبرايب أش وسنجنى وخع سخم وخع سخموى .
- ٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق. م. - الملكة القديمة
(الأسرة ٣ - ٦) .

الأسرة الثالثة:

- العاصمة منف (مغيس) حاليا ميت هيف
باليدرشين بالجيزة .
- ملوكها : زوسر وسخم خت وخع يا ونفركا
وجونى .

الأسرة الرابعة:

- العاصمة : دهشور (ميدوم) والجيزة وأبدواش
ثم الجيزة .
- ملوكها : سنفر و خوفو وجد فرع وخفرع
ومتكارع (منقرع) وسيسكاف .

الأسرة الخامسة:

- العاصمة : منف ودهشور وسقارة .
- ملوكها : أوسركاف وساحورى وكاكاي ومنكا
وهور وايسيسى وأوناس .

الأسرة السادسة:

- العاصمة منف .
- ملوكها : تيتى الأول ويبيى لأول ويبيى الثانى
ونفر كارع .
- ٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق. م. - الفترة المتوسطة الأولى
(الأسرة ٧ - ١٠) .
- العاصمة منف وميراكلىو بوليس وطيبة ومنف .

الأسرة السابعة:

- ملوكها : مجهولون . كانت البلاد فى فوضى
سياسية وحكمها ٧٠ ملكا فى سبعين يوما .

الأسرة الثامنة:

- آخر أسرة فى منف وملوكها مجهولون .

الأسرتان التاسعة والعاشر:

- العاصمة هيراكلىو بوليس .
- ملوكها : خيت الأول وخيتى الثانى ونفر كارع
وخيت الثالث وهرى كارع .

٢٠٤٠ - ١٧٨٦ ق. م. - عصر المملكة المتوسطة

(الأسرة ١١ - ١٢) .

الأسرة ١١ :

===== العاصمة : طيبة .

- ملوكها : عشرة ملوك يطلق عليهم ملوك

المناحة .

الأسرة ١٢ :

===== العاصمة منف (ممفيس) .

- ملوكها : امنمحات الأول وسيزوستريس

وامنمحات الثانى وسيزوستريس الثانى وسيزو-

ستريس الثالث وامنمحات الثالث وامنمحات الرابع

والملكة سبك نفرو رع .

فى عام ١٩٩٥ ق. م. حكم امنمحات الأول مصر

بقبضة حديدية ووحدها .

وفى عام ١٧٨٥ ق. م. حكمت الملكة سبك نفرو

رع آخر ملوك الأسرة ١٢ وهى أول ملكة تحكم

فى التاريخ .

١٧٨٦ - ١٥٦٧ ق. م. - عصر الفترة المتوسطة

الثانية (الأسرة ١٣ - ١٧) .

الأسرات ١٣ وال ١٤ :

===== - حكم مصر حوالى ٤٠ ملكا حيث انقسمت فيهما

البلاد الى دويلات صغيرة وكانت العاصمة الليشت.

الأسرات ١٥ وال ١٦ : حكم الهكسوس فيهما

===== مصر وهم رعاة أسبويون

- العاصمة : أواريس (هواريس) حاليا صان

الحجر .

- ملوكها : شرك واوسرع وابوى الأول وسوسرن

رع وخيان وشيشى وحمدى وعاسح رع وابوى

الثانى وابوى الثالث .

الأسرة ١٧ :

===== - العاصمة : طيبة

- ملكها كاموس الذى استعاد مصر الوسطى من

الهكسوس .

١٧٩٠ - ١٥٨٠ ق. م. - الهكسوس يفزون

مصر ولاسيما منطقة شرق الدلتا .

١٧٢٠ ق. م. - الهكسوس يفزون مصر ثانية .

١٦٧٤ ق. م. - سقوط مدينة منف (بالدريشين)

فى يد الملك ساليثس (الهكسوس) . وتأسيس

مملكة فرعونية مستقلة فى طيبة (الأقصر) .

١٥٦٧ - ١٠٨٥ ق. م. - قيام المملكة الحديثة

(الأسرة ١٨ - ٢٠) .

الأسرة ١٨ : أسرة التحامسة (مصرية)

===== - العاصمة : طيبة (الأقصر) .

- ملوكها :

١٥٨٠ ق. م. - أحمدس (محرر مصر من الهكسوس) .

١٥٥٨ ق. م. - امنحتب (أمنوفيس) الأول .

١٥١٤ ق. م. - تحتمس الأول .

١٥٢٠ ق. م. - تحتمس الثانى (تزوج أخته حتشبسوت) .

١٥٠٤ ق. م. - الملكة حتشبسوت .

١٤٨٣ ق. م. - تحتمس الثالث (تزوج خالته حتشبسوت) .

١٤٥٠ ق. م. - امنحتب الثانى (أمنوفيس الثانى) .

١٤٢٥ ق. م. - تحتمس الرابع

١٤٠٨ ق. م. - امنحتب (أمنوفيس) الثالث .

١٣٧٢ ق. م. - امنحتب (أمنوفيس) الرابع

(الخاتون) (جمل العاصمة أختن آتن (تل العمارنة حاليا).

١٣٦٦ ق. م. - سمنخ كا رع .

١٣٥٤ ق. م. - توت عنخ آمون . (أعاد العاصمة

بطيبة بعد الغاء دعوة أتون وعودة عبادة آمون .

- الملك أى

١٣٤٢ ق.م. - حور محب .

الأسرة الـ ١٩ : أسرة الرعامسة الأولى

- العاصمة : طيبة (الأقصر)

- ملوكها :

١٣١٤ ق.م. - رمسيس الأول .

١٣١٢ ق.م. - سيتي الأول .

١٣٠١ ق.م. - رمسيس الثانى .

١٢٣٥ ق.م. - مرنبتاح (منفتاح) .

١٢٢٤ ق.م. - أتموسيس .

١٢١٩ ق.م. - مرنبتاح سيتاح .

١٢١٠ ق.م. - سيتي الثانى .

١٢٠٥ ق.م. - رمسيس سيتاح .

- إيارسو (حكم مصر من فلسطين) .

١٢٠٠ ق.م. - سيتاخذ .

الأسرة الـ ٢٠ : أسرة الرعامسة الثانية .

١١٩٨ ق.م. - رمسيس الثالث .

١١٦٨ ق.م. - ١٠٨٥ ق.م. - حكم الرعامسة من

رمسيس الرابع حتى رمسيس الـ ١١ .

١١٠٠ ق.م. - سهتد يس يحكم مصر من تانيس

١٠٨٥ - ٢٣٢ ق.م. - عصر الفترة المتأخرة

(الأسرة ٢١ - ٣٠) .

الأسرة الـ ٢١ :

كانت مصر تحكم حكما مزيجا من تانيس (سمند يس)

وطيبة .

ملوكها :

- فى سمند يس : بسو ستس وماركا رع ابنة سو

سنس و أمثيوفيس وسيامون .

- فى طيبة : حريحور وبلى نجم .

الأسرة الـ ٢٢ : الليبيون يحكمون مصر .

٩٥٠ ق.م. - شيشنق الأول . (وحد مصر) .

٩٢٩ ق.م. - أوسركون الأول .

٨٩٣ ق.م. - تاكوت الأول .

٨٧٠ ق.م. - أوسركون الثانى .

٨٤٧ ق.م. - تاكوت الثانى .

٨٢٣ ق.م. - شيشنق الثالث .

الأسرة الـ ٢٣ :

- العاصمة تانيس (قرب بمياط)

- من ملوكها : باماي وشيشنق الخامس حكم عام

٧٦٧ ق.م. .

الأسرة الـ ٢٤ :

- العاصمة : سا يس

ملوكها : تفناخت وپوكوريس .

الأسرة الـ ٢٥ : المملكة النوبية (الكرشية) .

- العاصمة : نباتة فى النوبة (حاليا بلدة كريمة

على الضفة الغربية للنيل جنوب بلاد النوبة)

ملوكها :

٧١٥ ق.م. - شابا

٧٠١ ق.م. - شبا تاكا .

٦٨٩ ق.م. - طهارقا

٦٦٤ ق.م. - تانو تامون .

الأسرة ٢٦:

ملوكها :

٣٧٨ ق.م. - نبطا تيو الأول .

٣٦٩ ق.م. - تاخوس

٣٥٩ ق.م. - نبطا تيو الثاني (آخر فراعنة مصر)

٣٤١ ق.م. - ارتا جزر كسيس الثالث (فارسي)

٢٢٨ ق.م. - أرسيس.

٢٢٥ ق.م. - دارا الثالث .

٢٢٢ ق.م. - العصر الأفريقي وحكم الاسكندر

والبطالة.

حكم البطالة مصر (١٤ ملكا وملكة . سبعة ملوك

حملوا إسم بطليموس وسبع ملكات حملن إسم

كليو باترا وآخرهن كليو باترا السابعة التي خلفها

إبتها بطليموس الملك الـ ١٤) .

٣٠ ق.م. - ٦٢٩ م. الحكم الروماني لمصر وكانت

مصر تابعة الى روما ثم أصبحت تابعة الي

القسطنطينية الدولة الرومانية الشرقية منذ عام

٢٩٥ م. وظلت إلى أن فتح العرب مصر .

- العاصمة : منف .

٦٦٢ ق.م. - بسماتيك الأول .

٦٠٩ ق.م. - نخار الثاني .

٥٩٤ ق.م. - بسماتيك الثاني .

٥٨٨ ق.م. - إبريس

٥٦٨ ق.م. - أما زيس (العاصمة سايس) .

٥٢٥ ق.م. - بسماتيك الثالث

الأسرة الـ ٢٧ : مصر ولاية فارسية . يحكمها :

٥٢٥ ق.م. - قمبيز يهزم بسماتيك الثالث.

٥٢٢ ق.م. - دارا الأول .

٤٨٥ ق.م. - جزر كسيس الأول .

٤٦٤ ق.م. - ارتا جزر كسيس الأول .

الأسرة الـ ٢٨ : مصر إستقلت وأصبحت فرعونية.

- العاصمة سايس

- ملكها أميرتس .

الأسرة الـ ٢٩:

- العاصمة منديس (قرب سمند) .

- ملوكها :

٣٩٨ ق.م. - نفرتيس الأول .

٣٩١ ق.م. - بسموتيس .

٣٩٠ ق.م. - جاكوريس .

٣٧٨ ق.م. - نفرتيس الثاني

الأسرة الـ ٣٠:

- العاصمة سمند.

حكماء مصر منذ الفتح

حكماء عام

- | | |
|--|---------------------------------------|
| ٧٠٥ - عبد الله بن عبد الملك | ٦٤٠ - ٨٦٨ - فترة حكم الولاة التابعين |
| ٧٠٩ - قرّة بن شريك العباسي | للخلافة الراشدية والاموية والعباسية |
| ٧١٤ - عبد الملك بن رفاعة الفهمي | ٦٤٠ - عمرو بن العاص |
| ٧١٧ - أيوب بن شرحبيل | ٦٤٤ - عبد الله بن سعد بن أبي سرح |
| ٧٢٠ - بشر بن صفوان الكلبي | ٦٥٦ - قيس بن سعد |
| ٧٢١ - حنظلة بن صفوان الفهمي | ٦٥٧ - محمد بن أبي بكر |
| ٧٢٤ - محمد بن عبد الملك بن مروان | - ملك بن الحارث الاشر |
| - الحر بن يوسف | ٦٥٨ - عمرو بن العاص (عاد مرة ثانية) |
| ٧٢٧ - حفص بن الوليد الحضرمي | ٦٦١ - ٧٥٠ حكم الدولة الاموية |
| - عبد الملك بن رفاعة (للمرة الثانية) | ٦٦٤ - عبد الله بن عمرو |
| - الوليد بن رفاعة الفهمي | - عتبة بن أبي سفيان |
| ٧٣٥ - عبد الرحمن بن خالد الفهمي | ٦٦٥ - عتبة بن عامر الجهني |
| ٧٣٧ - حنظلة بن صفوان (للمرة الثانية) | ٦٦٧ - مسلمة بن مخلد |
| ٧٤٢ - حفص بن الوليد (للمرة الثانية) | ٦٨٢ - سعيد بن يزيد الأزدي (كانت مصر |
| ٧٤٥ - حسان بن العتاهية التجيبي | تابعة للخلافة الزبيرية) |
| - حفص بن الولي الحضرمي | ٦٨٤ - عبد الرحمن بن عتبة بن جهم |
| (للمره الثانية) | القرشي (كانت مصر تابعة للخلافة |
| - هوثره بن سهل الباهلي | الزبيرية) |
| ٧٤٩ - عبد الحميد بن المغيرة بن عبيد الله | ٦٨٥ - عبد العزيز بن مروان |
| الغزاري | |

- ٧٥٠ - عبد الملك بن مروان اللخمي (يقال
عبد الله بن مروان الحمار)
٧٥٠ - مصر تابعة للخلافة العباسية
٧٥١ - أبو عون عبد الملك
٧٥٢ - صالح بن علي بن عبد الله العباسي
٧٥٤ - أبو عون عبد الملك الأزدي
(للمرة الثانية)
٧٥٨ - موسى بن كعب التميمي
٧٥٩ - محمد بن الأشعث الخزاعي
٧٦٠ - حميد بن قحطبة الطائي
٧٦٢ - يزيد بن حاتم المهلبى
٧٦٩ - عبد الله بن عبد الرحمن بن خديج
٧٧٢ - محمد بن خديج
٧٧٢ - موسى اللخمي
٧٧٨ - عيسى بن لقمان
٧٧٩ - منصور بن يزيد الرويني
- أبو صالح يحيى
٧٨٠ - صالح بن سودة التميمي
٧٨١ - إبراهيم بن صالح بن علي العباسي
٧٨٤ - موسى بن مصعب الخثعمي
٧٨٥ - أسامة بن عمرو
- الفضل بن صالح بن علي العباسي
٧٨٦ - علي بن سليمان بن علي العباسي
٧٨٧ - موسى بن عيسى العباسي
٧٨٩ - مسلمة بن يحيى البغلي (الأحمسي)
٧٨٩ - محمد بن زهير الأزدي
٧٩٠ - داود بن يزيد بن حاتم المهلبى
٧٩١ - موسى بن عيسى العباسي
(للمرة الثانية)
٧٩٢ - إبراهيم بن صالح العباسي
(للمرة الثانية)
٧٩٣ - عبد الله بن مسيب الضبي
- إسحق بن سليمان بن علي العباسي
٧٩٤ - هرثمة بن عيان
- عبد الملك بن صالح بن علي العباسي
٧٩٥ - عبيد الله بن المهدي العباسي
٧٩٦ - موسى بن عيسى العباسي
(للمرة الثالثة)
- عبيد الله بن المهدي العباسي
٧٩٧ - إسماعيل بن صالح بن علي العباسي
٧٩٨ - الليث بن الفضل الأسدي
٨٠٣ - أحمد بن إسماعيل بن علي العباسي
٨٠٥ - عبيد الله العباسي (لقب بابن زينب)
٨٠٦ - الحسين بن جميل
٨٠٧ - مالك بن دهم الكلبى
٨٠٩ - الحسن بن التختاخ
٨١٠ - حاتم بن هرثمة بن أعين
٨١٢ - جابر بن الأشعث الطائي
- عبد الله البلخي
٨١٣ - المطلب الخزاعي
٨١٤ - العباس بن موسى بن إسحق العباسي
٨١٥ - المطلب الخزاعي (للمرة الثانية)

- ٨١٦ - السرى بن الحكم
- سليمان بن غالب البغلي
٨١٧ - السرى بن الحكم (للمرة الثانية)
٨٢٠ - محمد بن السرى
٨٢٢ - عبيد الله بن السرى
٨٢٦ - عبد الله بن طاهر
٨٢٧ - عيسى بن يزيد الجلودى
٨٢٩ - عمير بن الوليد التميمي
- عيسى بن يزيد الجلودى (للمرة الثانية)
٨٢٩ - المعتصم العباسي
٨٣٠ - عبيدة جيلة
٨٣١ - عيسى بن منصور المراقى
٨٣٢ - المؤمن - وهو خليفة جاء ليفقد الفتنة
- نصر بن عبد الله (كيدر)
٨٣٤ - المنظر بن كيدر
- موسى الحنفى
٨٣٩ - مالك بن كيدر
٨٤١ - على بن يحيى الأرمنى
٨٤٣ - عيسى بن منصور (للمرة الثانية)
٨٤٧ - هرثمة بن النادر بن نصر الجبلى
٨٤٩ - حاتم بن هرثمة
- على بن يحيى (للمرة الثانية)
٨٥٠ - إسحق بن يحيى
٨٥١ - ميد الواحد بن يحيى
٨٥٢ - غنبة بن إسحق بن شمر
٨٥٦ - يزيد بن عبد الله التركى
- ٨٦٧ - مزاحم بن خاقان
٨٦٨ - أحمد بن مزاحم
- أرغون طرخان
٨٦٨ - ٩٠٤ قيام الامارة الطولونية بمصر
٨٦٨ - أحمد بن طولون (١)
٨٨٤ - خمارويه (٢)
٨٩٥ - أبو العساكر (٣)
٨٩٦ - أبو موسى هارون (٤)
٩٠٤ - شيبان أحمد بن طولون (٥)
٩٣٥ - نهاية الدولة الطولونية
٩٠٥ - ٩٣٥ عودة مصر للخلافة العباسية
إداريا وحكم المولاة الأتراك (كنوابها)
٩٠٥ - عيسى بن محمد الفشارى
٩١٠ - تكين الخسا الجزيرى
٩١٥ - دكا الرومى
٩١٩ - تكين (للمرة الثانية)
٩٢١ - محود الحمل (لمدة ثلاث أيام)
- تكين (للمرة الثالثة)
٩٢٣ - أحمد بن كيفلغ
٩٢٤ - تكين (للمرة الرابعة)
٩٣٣ - محمد بن تكين
- محمد بن طغ (الأخشيد)
- أحمد بن كيفلغ (للمرة الثانية)
٩٣٤ - محمد بن تكين
٩٣٥ - ٩٦٩ قيام الدولة الأخشيديّة (دولة
مستقلة ذاتيا عن الخلافة العباسية)

- ٩٣٥ - محمد بن طغ (لقب بالأخشيدي) (١)
- ٩٤٦ - أبو القاسم أنجور (٢)
- ٩٦٠ - أبو الحسن على (٣)
- ٩٦٦ - أبو المسك كافور (٤)
- ٩٦٨ - أحمد أبو الفوارس (٥)
- ٩٦٩ - جوهر لمدة أيام وهو أخو كافور (٦)
- ٩٦٩ - ١١٧١ قيام الخلافة الفاطمية في مصر وإنفصالها عن الخلافة العباسية
- ٩٦٩ - المعز لدين الله (١)
- ٩٧٥ - العزيز بالله (٢)
- ٩٩٦ - الحاكم بأمر الله (٣)
- ١٠٢١ - الظاهر (٤)
- ١٠٣٥ - المستنصر (٥)
- ١٠٩٤ - المستعلى (٦)
- ١١٠١ - الأمر (٧)
- ١١٣٠ - الحافظ (٨)
- ١١٤٩ - الظاهر (٩)
- ١١٥٤ - الفائز (١٠)
- ١١٦٠ - العاضد (١١)
- ١١٧١ - نهاية الخلافة الفاطمية في مصر
- ١١٧١ - ١٢٥٢ قيام الدولة الأيوبية (سلاطين)
- وعودة مصر للخلافة العباسية إسمياً
- ١١٦٩ - صلاح الدين الأيوبي
- (كوزيوسلطان) (١)
- ١١٩٣ - العزيز عماد الدين (٢)
- ١١٩٨ - المنصور محمد (٣)
- ١١٩٩ - العادل سيف الدين (٤)
- ١٢١٨ - الكامل محمد (٥)
- ١٢٣٨ - العادل الثاني (٦)
- ١١٢٦ - الصالح نجم الدين (٧)
- ١٢٤٩ - شجرة الدر
- (حكمت باسم زوجها الصالح بالنيابة)
- ١٢٥٠ - المعظم توارن شاه (٨)
- ١٢٥٠ - شجرة الدر
- (للمرة الثانية) (ملوكية)
- ١٢٥٠ - ١٥١٧ قيام حكم المماليك في مصر (سلاطين)
- ١٢٥٠ - ١٣٨٢ الدولة المملوكية الأولى
- (المماليك البحرية)
- ١٢٥٠ - عز الدين إيبك
- (الزوج الثاني لشجرة الدر)
- ١٢٥٧ - المنصور (نور الدين على)
- ١٢٥٩ - قتلز (المخلف سيف الدين قتلز)
- ١٢٦٠ - الظاهر ركن الدين بيبرس
- (مؤسس دولة المماليك البحرية)
- ١٢٧٧ - السعيد ناصر الدين يركة خان بن بيبرس
- ١٢٧٩ - العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس
- ١٢٩٠ - الأشرف صالح الدين خليل بن قلاوون
- ١٢٩٣ - التاهر الدين محمد بن قلاوون

١٣٦٣ - الأشرف ناصر الدين شعبان بن

حسين بن الناصر

١٣٧٦ - المنصور علاء الدين على بن شعبان

١٣٨١ - الصالح صلاح الدين حاجى بن

شعبان

١٣٨٢ - الظاهر سيف الدين برقوق

(بداية المماليك البرجية)

١٣٨٩ - الصالح حاجى (للمرة الثانية)

لقب بالمنصور (وهو مملوك بحرى)

١٣٨٢ - ١٥١٧ حكم المماليك البرجية

(اشتهروا بالجراكسة أو الشراكسة)

١٣٨٢ - الظاهر سيف الدين برقوق

(مؤسس الدولة المملوكية البرجية)

١٣٨٩ - الصالح حجى (مملوك بحرى)

(للمرة الثانية)

١٣٩٠ - الظاهر سيف الدين برقوق

(مملوك برجى) (للمرة الثانية)

١٣٩٨ - الناصر فرج بن برقوق

١٤٠٥ - المنصور عز الدين

١٤٠٦ - الناصر فرج (للمرة الثانية)

١٤١٢ - الخليفة العباسى المستعين بالله

وتلقب بالملك العادل

١٤١٢ - المؤيد شيخ الحمودى

١٤٢١ - المنظر أحمد بن شيخ

١٤٢١ - الظاهر سيف الدين ططر (تتر)

١٤٢٢ - الأشرف سيف الدين برسباى

١٢٩٤ - العادل زين الدين كتيغا

(من ممالك قلاوون)

١٢٩٦ - المنصور حسام لاجين

١٢٩٨ - الناصر محمد قلاوون

(للمرة الثانية)

١٣٠٨ - المنظر ركن الدين بيبرس الثانى

١٣٠٩ - الناصر محمد قلاوون (مرة ثالثة)

١٣٤١ - المنصور سيف الدين أبو بكر بن

الناصر

١٣٤١ - الأشرف على الدين كوجك بن

الناصر

١٣٤٢ - الناصر شهاب الدين أحمد بن

الناصر

- الصالح عماد الدين إسماعيل بن

الناصر

١٣٤٥ - الكامل سيف الدين شعبان بن

الناصر

١٣٤٦ - المنظر سيف الدين حاجى بن

الناصر

١٣٤٧ - الناصر ناصر الدين حسن بن

الناصر

١٣٥١ - الصالح صلاح الدين حسن بن

الناصر

١٣٥٤ - الناصر حسن (للمرة الثانية)

١٣٦١ - المنصور صلاح الدين محمد بن

حاجى

- ١٤٣٨ - العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي
- الظاهر سيف الدين جقمق
١٤٥٣ - المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق
- الاشرف سيف الدين اينال
١٤٦٠ - المؤيد شهاب الدين بن اينال
١٤٦١ - الظاهر سيف الدين خشقدم
١٤٦٧ - الظاهر سيف الدين يلغا
١٤٦٨ - الاشرف سيف الدين قايتباي
١٤٩٥ - الناصر محمد بن قايتباي
١٤٩٨ - الظاهر قنصوه
١٤٩٩ - الاشرف جنبلط
١٥٠٠ - الاشرف قنصوه الغوري
١٥٠١ - العادل طومنباي
- الاشرف قنصوه الغوري
١٥١٦ - الاشرف طومنباي
(آخر سلاطين المماليك اعدم على باب
زويلة بعد دخول سليم العثماني)
١٥١٧ - ١٩١٤ الحكم العثماني لمصر
١٥١٧ - ١٧٩٨ حكم الولاة العثمانيين
(اخذ المماليك يسيطرون ثانية على الحكم منذ عام
١٧٠٤ بعودة نفوذ المماليك البكوات (الباشوات
كما يسمى)
١٥١٧ - خيرى بك (كان من المماليك) .
١٥٢٢ - مصطفى باشا (اول وال عثماني يحكم
مصر) .
١٥٢٣ - احمد باشا (عرف بالخائن لانه تمرد
على السلطان) (اسمه بكر بك الروملى)
اصله كرجى .
- ١٥٢٤ - قاسم باشا .
١٥٢٥ - ابراهيم باشا .
١٥٢٧ - سليمان باشا الخادم .
١٥٢٨ - داود باشا .
١٥٤٩ - على باشا .
١٥٥٤ - محمد باشا زاده .
١٥٥٦ - اسكندر باشا .
١٥٦١ - على باشا الخادم .
- مصطفى باشا .
١٥٦٣ - على باشا الصفوى .
١٥٦٦ - محمود باشا .
١٥٦٧ - سنان باشا . (للمرة الاولى) .
١٥٧٣ - حسين باشا .
١٥٧٩ - حسين باشا مسيح .
١٥٨٠ - حسن باشا الخادم .
١٥٨٣ - ابراهيم باشا (أصبح الصدر
الاعظم بالاستانة) .
١٥٨٤ - سنان باشا (للمرة الثانية) .
١٥٨٥ - عويس باشا .
١٥٩١ - احمد باشا الخادم .
١٥٩٥ - كرد باشا .
١٥٩٦ - محمد باشا الشريف .
١٥٩٨ - خضر باشا .
١٦٠١ - على باشا السلحدار .
١٦٠٣ - ابراهيم باشا . (قتل) .
١٦٠٥ - محمد باشا الكورجى .
- حسن باشا .

- ١٦٠٧ - محمد باشا .
 ١٦١٠ - حسن باشا الوزير .
 ١٦١٢ - محمد باشا الصوفى .
 ١٦١٣ - أحمد باشا الدفتر دار .
 ١٦١٧ - مصطفى باشا لقعلى .
 ١٦١٨ - جعفر باشا .
 ١٦١٩ - مصطفى باشا (المرة الأولى)
 ١٦٢٢ - محمد باشا .
 - ابراهيم باشا .
 ١٦٢٣ - مصطفى باشا (للمرة الثانية) .
 ١٦٢٧ - بيرام باشا .
 ١٦٢٩ - محمد باشا .
 ١٦٣٠ - موسى باشا .
 ١٦٣١ - حسن بك .
 - خليل بك البستانجى .
 ١٦٣٣ - أحمد باشا الكرجى .
 ١٦٣٦ - حسن باشا .
 ١٦٣٨ - محمد باشا أحمد .
 ١٦٣٩ - مصطفى باشا البستانجى .
 ١٦٤٢ - منصور باشا .
 ١٦٤٥ - سفيان بك (بالنياية) .
 - أيوب باشا .
 ١٦٤٧ - محمد باشا حيدر .
 ١٧٤٨ - أحمد باشا .
 ١٦٥١ - عبد الرحمن باشا .
 ١٦٥٢ - محمد باشا السلحدار .
 ١٦٦٣ - عمر باشا .
 ١٦٦٦ - أحمد باشا .
 ١٦٦٧ - ابراهيم باشا .
 ١٦٧٤ - حسين باشا .
 ١٦٨٠ - عثمان باشا .
 ١٦٨٨ - حسين باشا السلحدار .
 ١٦٩٠ - أحمد باشا .
 ١٦٩١ - على باشا قلج (عزل) .
 ١٦٩٦ - مسلم اسماعيل .
 ١٦٩٨ - حسن باشا الوزير . (عزل) .
 (للمرة الأولى)
 ١٧٠٢ - أحمد باشا قره محمد (عزل) .
 ١٧٠٥ - محمد باشا رامى (عزل) .
 ١٧٠٦ - مسلم باشا على (للمرة الأولى)
 (عزل) .
 ١٧٠٧ - حسين باشا الوزير (للمرة الثانية)
 (عزل) .
 ١٧٠٩ - ابراهيم باشا القيو دان (عزل) .
 ١٧١٠ - خليل باشا .
 ١٧١١ - ولى باشا .
 ١٧١٢ - عابدين باشا (عزل) .
 ١٧١٦ - مسلم على باشا (للمرة الثانية)
 ١٧١٧ - على باشا الازميرلى .
 ١٧١٨ - رجب باشا .
 ١٧٢٠ - محمد باشا البستانجى .
 ١٧٢٩ - باكير باشا . (للمرة الأولى)

- ١٩٢٩ - عبد الله باشا الكبيرلى .
- ١٧٣٢ - محمد باشا السلحدار (عزل) .
- ١٧٣٤ - عثمان باشا الحلبي (عزل) .
- ١٧٣٥ - باكير باشا (للمرة الثانية) .
- ١٧٣٦ - مصطفى باشا .
- ١٧٣٩ - سليمان باشا الشامى (ابن العظم)
- ١٧٤٠ - على باشا حكيم أوغلى
- (المرة الأولى) (عزل) .
- ١٧٤١ - يحيى باشا (عزل) .
- ١٧٤١ - محمد باشا النيد كشى (عزل) .
- ١٧٤٥ - مسلم باشا راعب .
- ١٧٤٨ - أحمد باشا كور .
- ١٧٥٠ - شريف عبد الله باشا .
- ١٧٥٣ - محمد أمين باشا .
- مصطفى باشا .
- ١٧٥٦ - على باشا حكيم أوغلى
- (للمرة الثانية) .
- ١٧٥٨ - محمد سعيد باشا .
- ١٧٥٩ - مصطفى باشا .
- ١٧٦١ - أحمد باشا كامل صيطلان .
- ١٧٦٢ - باكير باشا .
- حسن باشا .
- ١٧٦٥ - حمزة باشا .
- ١٧٦٧ - محمد راقم باشا .
- ١٧٦٨ - محمد الأورغلى باشا .
- ١٧٧٠ - أحمد باشا .
- قره خليل باشا .
- ١٧٧٣ - خليل باشا .
- ١٧٧٤ - مصطفى باشا التابلسى .
- ١٧٧٥ - ابراهيم باشا عرب كيرلى .
- ١٧٧٦ - محمد عزت باشا (الكبير)
- (المرة الأولى) .
- ١٧٧٩ - اسماعيل باشا (عزل) .
- ابراهيم باشا (مدة ثلاثة شهور)
- اسماعيل باشا (للمرة الثانية) .
- ١٧٨٢ - على القصاب باشا .
- ١٧٨٣ - محمد باشا (عزله المماليك) .
- ١٧٨٥ - محمد يكن باشا .
- ١٧٨٧ - عابدين باشا الشريف .
- ١٧٨٩ - اسماعيل باشا التونسى (عزل)
- ١٧٩٢ - محمد عزت باشا (للمرة الثانية)
- (لقب بابى مرق) .
- ١٧٩٤ - صالح باشا القيصرى .
- ١٧٩٦ - بكر باشا الطرابلسى
- (عاصر الحملة الفرنسية) .
- ١٧٩٨ - نابليون بوناپرت
- (الحملة الفرنسية) .
- ١٧٩٩ - الجنرال كبير الفرنسى .
- ١٨٠٠ - الجنرال عبد الله جاك مينو
- الفرنسى .
- ١٨٠١ - محمد باشا خسرو (أول وال يعد
- الحملة الفرنسية) . (للمرة الأولى) .

١٨٠٣ - أحمد طاهر باشا (عزل وقتل) .
 - أحمد باشا والى جدة (مؤقت) .
 - على باشا برغل (الجزائرلى
 أو الطرابلسى) (عزل وقتل) .
 ١٨٠٤ - محمد باشا خسرو (للمرة الثانية)
 - أحمد باشا خورشيد (مزمه محمد على)
 ١٨٠٥ محمد على باشا (آخر وال عثمانى)
 قبل حصوله على الحكم الذاتى لمصر
 ١٨٠٥ - ١٩٥٣ حكم أسرة محمد على
 (عرفت بالأسرة العلوية)
 ١٨٠٥ - محمد على (١)
 ١٨٤٨ - إبراهيم باشا ابن محمد على
 (حكم في حياة أبيه بعد عزله) (٢)
 ١٨٤٩ - عباس حلمى بن طوسون
 (حكم في حياة جده محمد على) (٣) قتل
 ١٨٥٤ - محمد سعيد باشا ابن محمد على (٤)
 ١٨٦٣ - اسماعيل بن ابن إبراهيم باشا
 (أول من تلقب بالخدوى) (٥) عزل
 ١٨٧٩ - محمد توفيق بن إسماعيل
 (خديوى) (٦)
 ١٨٩٢ - عباس الثانى ابن توفيق (آخر من
 تلقب بالخدوى) (خلع) (٧)
 ١٩١٤ - حسين كامل (أول سلطان) (٨)
 ١٩١٧ - أحمد فؤاد
 (سلطان وملك عام ١٩٢٣) (٩)
 ١٩٣٦ - فاروق الأول (١٠) خلع

١٩٥٢ - أحمد فؤاد الثانى (أمير تحت
 الوصايا عزل عام ١٩٥٣) (١١)
 ١٩٥٣ - مصر جمهورية ديموقراطية
 ١٩٥٣ - محمد نجيب (أول رئيس
 للجمهورية عزل عام ١٩٥٤) (١)
 ١٩٥٦ - جمال عبد الناصر (أصبح عام
 ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ رئيس الجمهورية
 العربية المتحدة) (٢) بعد الوحدة بين مصر
 وسوريا .
 ١٩٧٠ - محمد أنور السادات (اغتيل) (٣)
 ١٩٨١ - د. محمد صوفى أبو طالب
 (لمدة أيام) (٤)
 ١٩٨١ - محمد حسنى مبارك (٥)

دول إسلامية حكمت

مصر

١- الدولة الإسلامية الأولى

حكمتها عام :

٦٢٢ - الرسول (صلى الله عليه وسلم)

٦٣١ - أبو بكر الصديق

٦٣٤ - عمر (قتل) بالمدينة

٦٤٤ - عثمان (قتل) بالمدينة

٦٥٦ - علي (قتل) بالكوفة

٢- الدولة الأموية الأولى

بدمشق ؛ حكمتها عام :

٦٦١ - معاوية ابن أبي سفيان

(مؤسس الدولة)

٦٨٠ - يزيد بن معاوية

٦٨٣ - معاوية بن يزيد

٦٨٣ - مروان بن الحكم بن العاص

٦٨٥ - عبد الملك بن مروان

٧٠٥ - الوليد بن عبد الملك

٧١٥ - سليمان بن عبد الملك

٧١٧ - عمر بن عبد العزيز

٧٢٠ - يزيد بن عبد الملك

٧٢٤ - هشام بن عبد الملك (منه انحدر

الفرع الأموي بالاندلس)

٧٤٣ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك

٧٤٤ - يزيد بن سليمان بن عبد الملك

٧٤٤ - إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك

٧٤٤ - مروان بن محمد بن مروان (آخر

الحكام الأمويين بدمشق)

٣- الدولة العباسية الأولى

ببغداد ، حكمتها عام :

٧٥٠ - السفاح

٧٥٤ - المنصور

٧٧٥ - المهدي

٧٨٥ - الهادي

٧٨٦ - هارون الرشيد

٨٠٩ - الأمين

٨١٣ - المأمون

٨٣٣ - المعتصم

٨٤٢ - الواثق

٨٤٧ - المتوكل

٨٦١ - المنتصر

٨٦٢ - المستعين

٨٦٦ - المعتز

٨٦٩ - المهتدي

٨٧٠ - المعتمد

٨٩٢ - المعتضد	١٢٦٢ - الحاكم
٢٠٩ - المكتفى	١٣٠٢ - المستكفى
٩٠٨ - المقتدر	١٣٣٩ - الواصل
٩٣٢ - القاهر	١٣٤٠ - الحاكم الثانى
٩٣٤ - الراضى	١٣٥٢ - المعتضد
٩٤٠ - المتقى	١٣٦٢ - المتوكل (خلع)
٩٤٤ - المستكفى	١٣٧٧ - المعتمد (خلع)
٩٤٦ - المطيع	١٣٧٧ - المتوكل (عاد ثانية)
٩٧٤ - الطائى	١٤٠٥ - المستعين
٩٩١ - القادر	١٤١٣ - المعتضد الثانى
١٠٣١ - القيم	١٤٤٠ - المستكفى الثانى
١٠٧٥ - المقتدى	١٤٥١ - القيم
١٠٩٤ - المستظهر	١٤٥٤ - المستنجد
١١١٨ - المسترشد	١٤٧٩ - المتوكل الثانى
١١٣٥ - الراشد	١٤٩٧ - المستمسك (خلع)
١١٣٦ - المقتفى	١٤٩٨ - المتوكل الثالث (خلع)
١١٦٠ - المستنجد	١٥١٦ - المستمسك (عاد ثانية)
١١٧٠ - المستمعى	١٥٢١ - المتوكل الثالث (عاد ثانية)
١١٨٠ - النصير	١٥٢٨ - الفيت الخلف العباسية نهائيا
١٢٢٥ - الظهير	على ايدى العثمانيين .
١٢٢٦ - المستنصر	
١٢٤٢ - المستعصم (فى عهده سقطت بغداد عام ١٢٥٨م على ايدى المغول)	
ج- الخلافة العباسية الثانية :	
فى القاهرة . تولاهما عام :	
١٢٦١ - المنتصر	
	٥- الدولة العثمانية :
	حكمها العثمانيون عام :
	١٢٩٩ - عثمان الاول (مؤسس الدولة)
	١٣٢٦ - ارخان
	١٣٥٩ - مراد الاول
	١٣٨٩ - بايزيد الاول

- ١٤٠٣ - محمد الأول
 ١٤٢١ - مراد الثاني
 ١٤٥١ - محمد الثاني (لقب بالفاتح لفتح
 القسطنطينية)
 ١٤٨١ - بيازيد الثاني
 ١٥١٢ - سليم الأول (فتح مصر والشام)
 ١٥٢٠ - سليم الأول (لقب بالقانوني
 والعظيم)
 ١٥٦٦ - سليم الثاني
 ١٥٧٤ - مراد الثالث
 ١٥٩٥ - محمد الثالث
 ١٦٠٣ - أحمد الأول
 ١٦١٧ - مصطفى الأول (خلع)
 ١٦١٨ - عثمان الثاني (خلع وقتل)
 ١٦٢٢ - مصطفى الأول (عاد ثانية)
 ١٦٢٣ - مراد الرابع (خلع)
 ١٦٤٠ - إبراهيم
 ١٦٤٨ - محمد الرابع (خلع)
 ١٦٨٧ - سليمان الثاني
 ١٦٩١ - أحمد الثاني
 ١٦٩٥ - مصطفى الثاني
 ١٧٠٣ - أحمد الثالث (خلع)
 ١٧٣٠ - محمود الأول
 ١٧٥٤ - عثمان الثالث
 ١٧٥٧ - مصطفى الثالث
 ١٧٧٤ - عبد الحميد الأول (خلع)
- ١٨٠٧ - مصطفى الرابع
 ١٨٠٨ - محمود الثاني
 ١٨٣٩ - عبد الحميد
 ١٨٦١ - عبد العزيز
 ١٨٧٦ - مراد الخامس
 ١٨٧٦ - عبد الحميد الثاني (خلع)
 ١٩٠٩ - محمد الخامس
 ١٩١٨ - محمد السادس (خلع عام ١٩٢٢
 بعد إعلان أتاتورك الجمهورية التركية)

المؤلف

- الأزهر في ألف عام (طبعتان)
- (صدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر)
- القاديانية .. الخطر الذي يهدد الإسلام .
- (دار النهضة العربية)
- خفايا الطائفة البهائية .
- (دار النهضة العربية)
- عدة دراسات وأبحاث ومقالات نشرت في الصحف والمجلات المصرية .
- أشرف على مجلتى :
- (الصيدلة والنواء) و (النشرة الصيدلانية المصرية)
- وكان رئيسا لتحرير مجلة (صيادلة القاهرة)

*

الفهرس

- ملامح الكتاب
- ١١ - العصور الخوالى
- النيل وحياة المصريين - فلسفه الموت عند قدماء المصريين - العلوم والأداب والفنون
- الفرعونية - الحالة السياسية - ظهور ديانه التوحيد
- ٣٢ - العصر الإغريقى
- ٣٤ - عصر الرومان
- حكم زنوبيا - تاريخ الإسكندرية
- ٣٩ - العصر البيزنطى
- حكم الفرس
- ٤٣ - مصر الإسلامية
- فتح مصر - عمرو يحكم مصر
- ٤٨ - مصر ولاية عربية
- مفهوم الجزية والخراج
- ٥٤ - مصر المستقلة
- مسألة خلق القرآن - عصر أحمد بن طولون - الأخشيديون
- ٦٠ - مصر خلافة شيعية
- الخلافة الفاطمية بمصر - لوامر الحاكم بأمر الله
- ٦٥ - من ضعف الخلافة إلى قوة السلطنة
- حكم صلاح الدين - مصر والتجارة العالمية - ظهور الممالى؛
- ٧٢ - الممالىك بناء الحضارة
- عصر شجر الدر - الممالىك والمغول - إحياء الخلافة العباسية - السلطان بيبرس
- الحضارة المملوكية - ظهور الممالىك الشراكسة - السلطان برقوق

- ظهور العثمانيين - الحكم العثماني لمصر - التصوف في العصر العثماني
الإدارة العثمانية لمصر - ظهور المماليك البكوات
٩٨ - الحملة الفرنسية واليقظة المصرية
هزيمة المماليك - المصريون والفرنسيون - الثورة علي الفرنسيين - فرار نابليون
١١١ - مصر في ملتقى الطرق
حكم محمد علي - بداية عصر التنوير - عباس يحكم مصر - عهد سعيد
عصر اسماعيل - ديون مصر
١٣٠ - مصر للمصريين
الإمتيازات الأجنبية - العربيون والحياة الدستورية - مذبحه الاسكندرية
ضرب الاسكندرية - في أعقاب الهزيمة - الصحافة والاحتلال .
فكرة الوطن القومي اليهودي - ظهور الأحزاب - الإنجليز والفتنة الطائفية
الحالة السياسية بمصر - الحماية البريطانية
١٥٠ - مصر بين قورتين
ظهور الوفد - ثورة ١٩١٩ - عيد الدستور - أزمة الدستور - معاهدة ١٩٣٦
حكم فاروق - صراع الزعماء - قيام ثورة يوليو .

**

*

هذا الكتاب

يتضمن صحائف مصر... عارية بلا زيف
وهي ليست تأريخا لها بقدر ما هي تقييم
شامل للأحداث التي عاصرتها. والكتاب
«بانوراما» تاريخية بعيدا عن أراجيف
المؤرخين، ورحلة في أغوار العصور التي
أملت بمصر منذ فجر التاريخ حتى القرن
العشرين. لتكون على بينة بخبايا هذا
التاريخ بلا تحيز أو تطرف أو مغالاة بعيدا
عن أي أيديولوجية أو عواطف قد تجعلنا
نضل أو نتحيز. والمقائيق أقصر طريق
للوصول إلى الحقيقة والافتان لدمغ الباطل
وتبديده.

فهذا الكتاب... تذكرة لمن ينسى أو
يتناسى أو يجهل تاريخ مصر من المسلمين
والأقباط حتى نخرس الفتنة.
فمصر كفاها ما جنينا عليها طوال
تاريخها وهي لم تكن على أحد. فصالحها
بيض الوجوه وبين سطورها سود العهود.
لكنها مع كل هذا تسير من عصر إلى عصر
ولا تعود.

Bibliotheca Alexandrina



0298460



الكتاب
للشعر والتوزيع

٦٠ شارع النصر المعنى أمام روز اليوسف

(١١٤٥١) القاهرة

ت : ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس : ٣٥٤٧٥٦٦

To: www.al-mostafa.com